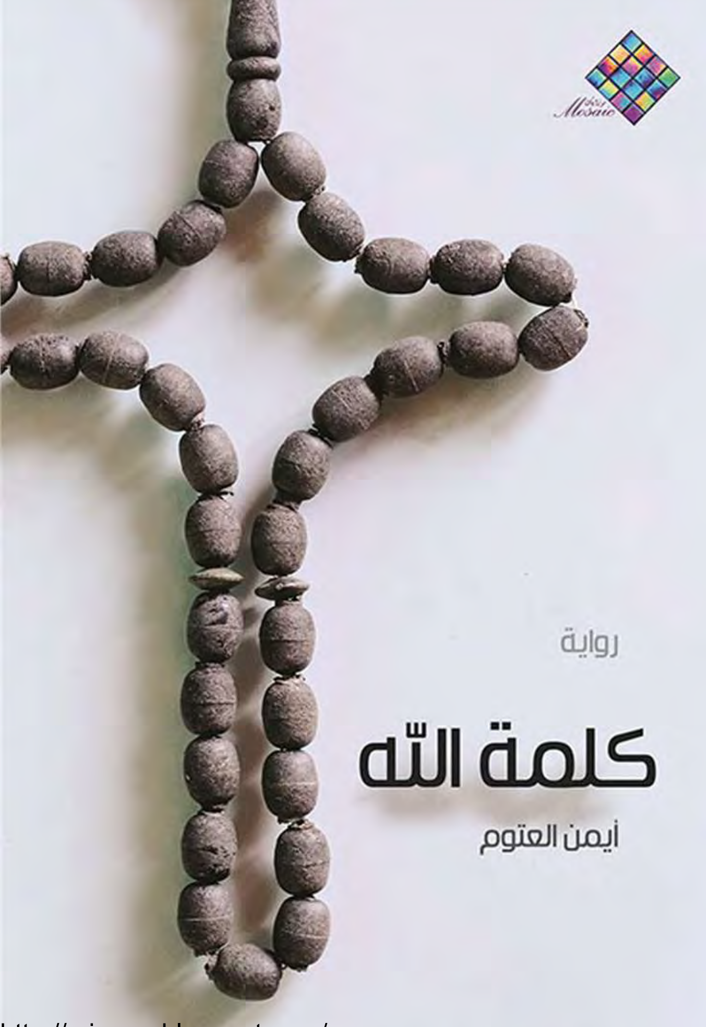

Mosaic
رواية
كلمة الله
أيمن العتوم

رواية
NOVEL

أيمن العتوم

كلمة الله



دار المعرفة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى للناشر
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع : ١٥١٦١/ ٢٠١٥
الترقيم الدولي : ١ – ٠٣٨ – ٧٦٤ – ٩٧٧ - ٩٧٨



خلف جامع الأزهر – بجوار مسجد عليش
ت : ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ – ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ – ٠١١١٤٢١٢٨٠٥
Email : elmarefa@hotmail.com

الإهداء

إلى عيسى بْن مَرْيَمَ:

﴿قَوْلَ الحَقِّ الَّذي فِيْه يَمْتَرُون﴾

﴿إنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قال لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾

إلى عيسى بْن مَرْيَمَ:

﴿مُصدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاة﴾

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُول يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد﴾

إلى عيسى بْن مَرْيَمَ:

﴿رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْه﴾

﴿وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾

مُحِبُّكَ وَالمُؤْمِنُ بِك

أيمن

﴿إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أمَّةً واحِدَةً وأنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾
الأنبياء : ٩٢

(٠)

في لا زمانَ ولا مكان . . .
التقى ثلاثتُهم دون تخطيطٍ مُسبَق . . .
وحينَ غابوا في أيكة الحياةِ ؛
لم يكنْ أحدٌ يدري ما الذي حدث بالضّبط ، ولماذا حدث!

(١)
أنا الحقّ وأنا الّذي سيُحرّرُكم

لستُ الله . . . ولن أكون . . . مَنْ يُبصر الطّريق ؛ فقد عَميتْ كلُّ السّبل . . .! هؤلاء الذين يحترفون الكَذب جعلوا من كلّ كلمةٍ وَحيًا كأنّ أحدًا لم يتحدّث بمثل هذا الّذي أقوله من قبلُ . . .! ألم يسمعوا بأولئك الّذين انشقّ لهم البحر؟ أو أولئك الّذين انحملوا في الفُلك ، أو حتّى أولئك الّذين خاطَبوا إبليس في أوّل الخُروج؟ ألم يسمعوا أحدًا يُخبر عن الله سِواي؟!

لقد نصحتُهم : احفظوا أنفُسَكم ؛ لا شيءَ يُمكن أن يُلوّث طهارتكم إلاّ إذا كان من داخلكم ، من أعماق تلك النّفس الأمّارة بالسّوء ، أمّا ذلك الّذي يَسقطُ على قلوبكم من السّماء فليس فيه إلاّ الخير .

أمس حينَ اجتمعنا رأيتُ الشّكّ في عيونهم ؛ لم يستطيعوا أن يميّزوا بين ما هو جسدي عليه وما يُلقيه الشّيطان على «الهيولا» الّتي تحجزني عنهم . . . لم يستطيعوا أن يتأكّدوا فيما إذا كنتُ من طينتهم أم من طينةٍ أخرى . لقد نصب لهم الشّيطان فخًا مُحكمًا ، فتراهم كأنّما سُكّرتْ أبصارهم ، وخُتم على قلوبهم ، وران على جوارحهم الشّكّ!

وهذا الرّاكع عندي الجاثي على قدَميه ، المُلازم لي كأنّه ظلّي ،

يقول : إنّني خادمُكَ الأمين فألقِ عليّ بَرَكَتك . . . إنّه لا يفتأ يلهج باسمي ، ويُقدّس بكلمتي . . . هذا الّذي يبدو لكم بهذه الهيئة الطّيّبة ؛ أمسِ كلّما ألقيتُ له كِسرةً في الجراب أكلها ، وكلّما ألقمتُ هذا الجِراب قطعةً من النّقود سرقها ، وكلّما نفختُ فيه نفخةً من روحي قبضَها من أثَري وظنّ أنّه قادرٌ على أن يُحييَ الموتى! أكلّما غفل طرفي عنه صار كلُّ درهم يجد طريقه إلى جيبه كأنّه هو الّذي يملكه! لماذا يخونني أقرب النّاس إليّ؟ لماذا عليّ أن أُمنى بخسارة في كلّ لحظة!! كان عليّ أن أستمع إلى صوت الله في داخلي لكي أظلّ مستيقظًا ؛ قال : لن يؤمنوا بكَ إلاّ إذا رأوني فيك فلا تغفل عنّي فيتمثّلَ فيكَ إبليس فتَضِلّ وتُضِلّ ؛ كُنْ قويًا فإنّني أنا الله أُحبُّ الأقوياء ، وأكره المتخاذلين . وقال لي : كلّما التهبتْ فيكَ حرارةُ الإيمان بي كنتَ قابَ قوسين أو أدنى من المَلكوت الأعلى ، حيثُ الأبديّة الّتي لا تنفد ، والنّعيم الّذي لا ينقطع .

إنّ هذه المخلوقات الّتي أهبطتُ أجسادها إلى الأرض وأبقيتُ أرواحها في السّماء إنّما هي ساحةٌ مفتوحةٌ تتصارع فيها الشّياطين والملائكة ، فأمّا الشّياطين فلديها من الحِيل والخِدع ما يُمكن أن تتغلّب به في بعض الأحايين على الملائكة فتتأجّج النّار ؛ وأمّا الملائكة فلديهم من القول الصّادق والموعظة الحَسَنة ما يُوقظ العقل من سَكْرته فيتوهّج النّور .

ولكنْ لِمَ كلّ هذا الاهتمام بما يفعلون ، إنْ كان الشّيطان قد استحوذ على قلوبهم فماذا أملك لهم أنا من الله . . . مَنْ كان منّا بلا خطيئة! كلّ البشر عُصاة ، وهناك ربٌّ يمسح بيده على قلوب الخاطئين وأرواحهم فيبعث مَواتها ، ويُحيي رَميمها . . . وما أنا إلاّ واسطة بين

الأرض والسّماء ؛ صحيحٌ أنّه مطلوبٌ منّي أن ألقي طهارة السّماء على قلوب أهل الأرض؟! ولكنْ لم يرتفع كلّ هذا الدّنس من أهل الأرض إلى السّماء بسببي!! بالتّأكيد لستُ أنا المسؤول عمّا يفعلون ، ولن أتحمّل خطاياهم ؛ ولماذا أتحمّل!! أكان مقدورًا عليّ فوق كلّ الّذي حملتُه على كاهلي يوم ظننتمْ أنّني صعدتُ الجبل أن أحمل المزيد . . . أنا أقول الآن كفى . . . نعم كفى!! وكُفّوا عن تحميلي كلّ هذه التّبعات . . . أنا من تلك الأحشاء الّتي ولدتْني وإليها أنتمي . . . الّذين حاولوا أن ينسبوني إلى سِواها مُخطِئون ، وليس لديهم من دليل ولو كان بمقدار دبّوس في ليلة مُظلمة . . . ولكنْ مهلاً ، ربّما أجد لكم بعض العُذر ؛ نعم بعضَ العُذر ؛ لقد كان يُشبهني حدّ التّماهي . . . كلّ ما أطلبه منكم - اليوم وأنتم تتحدّثون باسمي - أن تُدقّقوا قليلاً في النّدبة الّتي تعلو طرف العين اليُمنى ؛ إنّها ليستْ لي ، لم تمتدّ من قبلُ يدٌ إليّ فتؤذيني ؛ صدّقوني إنّ هذه النّدبة له ، وليستْ لي . . . أنا خالٍ من العيوب ؛ جسدي ظلّ لي لم يَمْسَسْهُ أحدٌ بسوء ، وروحي ظلّتْ هناك في الأعالي ، وستعود لكم يومًا ما . . .

آه أخشى أن تنكروني يومَ عودتي ، لستُ الوحيد الّذي فعلتم معه هذا يا أولادَ الأفاعي . . . أخي من قبلُ وقع في الوَرطة ذاتها ، خلا إلى ربّه أربعين يومًا فما صبرتم عليه ، حتّى إذا جاءكم كنتم قد أحوجتموه إلى أن يُمسكَ بلحيةَ أخيه بجُمع يده ، حتّى تطايرَ ذلك الشّعر من تلك اللّحية الوضيئة وسقط على قلوبكم المُظلمة فَحلّتْ عليكم اللعنة ، اللّعنة الّتي لن تزول حتّى ولو غسلتموها بماء البحر ، وغمستموها بندى الغمام . . . أعرفكم منذ ذلك العهد القديم ، لقد كنتم أعدلَ النّاس عن الطّرقات ، وأضلّهم عن الدّروب . . . وحينَ تنطقون تنطقون باسمنا أنا

وجميع إخوتي ، ولستُ منكم ولستم منّي إلاّ بمقدار ما تتّبعونني وتؤمنون بي ، مَنْ آمن بي فسيحيا ، ومَنْ كفر فهو ميّتٌ لا محالة . أخشى ما أخشاه أن يأتي ذلك اليوم الّذي تُكرّرون فيه الصّنيع مع أخي الأصغر ، سيُولَد بينكم حين أرتفع ، وسيبدأ نجمه بالبزوغ منذ اليوم ، ولكنّني حذرْتُه كما حذّرني أخي الأكبر من قبلُ ؛ قلتُ له : لقد أرادوا أن يرفعوني على تلك الخَشَبة ، ويَدُقّوا في يديّ كلّ تلك المسامير ؛ أمّا أنتَ فسيُلقون عليكَ الصّخرة من فوق منازلهم الخبيثة ؛ فَاحْذر حين تأتي تلك المرأة الّتي ابتسمتْ في وجهك ؛ وأقسمتْ عليكَ أن تأكلَ من طَعامها ؛ احذر أن تُصدّقها ، كلّ النساء من هذا الصّنف خبيثات ؛ ومليئات بالكذب والنّفاق والقذارة ؛ لا تُصدّقْها ولا تصدّقْ مَنْ جاءتكْ حالفةً بالله أنّ عهدَ الملوكِ قد انتهى ، وما أنتَ إلاّ شعلةٌ خالدة سقطتْ من يد الله إلى البشر الّذين ينتظرونك منذ قرون طويلة . . . لا تُصدّقهم يا أخي ؛ لقد قالوا لي الكلام ذاته : «انتظرناك طويلاً ؛ إنّ طوقَ الخطايا يلتفّ كالشّوك على رِقابنا ، فَمُدَّ يدكَ الطّاهرة لتُخلّصنا» . لا تُصدّقهم يا أخي ، إنّ عهدَ أخينا الأكبر بهم هو ذات العهد ؛ لم ينجُ من مكائدهم ، ومات بحسرته ، ولو أنّه مات بحسرته فحسبُ لكان الأمر هيّنا ، لقد عاش كذلك كئيبًا حزينًا ، واضطُرّ إلى أن يفقد الوجهة معهم ، وفي الرّمال الصفراء والصّحارى المُهلِكة قضى أكثر من نصف عمره من أجلهم ، ومع ذلك وضعوا ثيابه تحت الحجر ورموه بأقذع النّعوت!!

ويلَ أبينا ممّا يفعلونه بِنا . لو كان حيًّا ورأى كلّ هذه الدّسائس لَحمل مِعوله وهدمَ به أصنامهم ، لقد حدّثني عنه أخي الأكبر ؛ قال إنّه لا يقبل الضّيم ، ولا يسكتُ على الأذى . ومعوله دائمًا على كتفه كلّما وقفَ له صنمٌ في الطّريق حطّمه على رأسِ صاحبه ، وكان لا

يمشي في الطّريق إلاّ مرفوع الرأس مشدود الصّدر ، يهربُ منه كلّ جبانٍ ومُنافق ؛ أظنّ أنّ أخي الأكبر ورث عنه هذه الصّفات ، لكنّ قومه تكالَبوا عليه ، وتألّبوا ضدّه ، وكانوا كالطّوفان يجرف كلّ شيءٍ في طريقه ؛ فماذا يفعل السّبّاح إذا واجهتْهُ لُججُ الخِضَمّ فهاجتْ وماجتْ وطَغَتْ!!

وستعرفونني ، وستُدركون ولو بعد حين مَنْ أكون ، فلا ترجموني بالغيب ، ولا تظنّوا بي كلّ الظّنون ، إنما أنا كَلمة الله ، وروحٌ منه في الخالدين ، جرى عَلَيَّ النّاموسُ الّذي جرى على أخَوَيّ ، إلاّ أنّ الله قال لي : «كُنْ» فكُنت . أيّها الحائرون فِيّ ، والمُتخاصِمون في كُنهي ، لا تقولوا عنّي في غيابي ما كنتم تَستَتِرون أن تقولوه في حضوري . ألم أشهدْ معكم الليلة الأخيرة ، وأنا أُطعِمكم بيدِي ، وأنتم تتحسّسون العروق النّابضة في ساعِدَيّ حين انكشف الرّداء فرأيتم جسدي ؛ جسدي الّذي لم أكشِفْه لِسِواكم ؛ ألم أكنْ من لحم ودم ؛ فَلِمَ تُكثِرون فِيّ القول؟! ألم تشعروا بِحَرّ أنفاسي وأنا أودّعكم لألْقاكم في مكان لا ينزل فيه وَصَب ، ولا يَحِلّ عليه نَصَب!! ألم تسمعوني كأنّني ما زلتُ بينكم؟! مَنْ أولى بالتّصديق ذلك الّذي حضر مجلسنا وعشاءَنا الأخير ، أم ذلك الّذي لم يشهدْ شيئًا من تلك اللّيلة وجاء مُلتفعًا بعباءته الرّماديّة بعد عقود من تلك الليلة؟! أعرف أنّ الحقيقةَ ليستْ سهلة ، وليسَ من اليسيرِ القَبول بها ، لكنْ صدّقوا مَنْ رآني ، ولا تُصدّقوا مَنْ أخبرَ عنّي . صَدّقوا ذلك الوحيد الّذي نجا من الموت ليكتب ما شاهده ولو بأسى ، ولا تُصدّقوا ذلك الّذي أوغرَ صدره ألاّ يعرف الكثير ، وأحزنه أنْ لم يَرَ ، ولم يَكُ في المُصدّقين ، فراح يكتب على هواه ، ويُملي على مَنْ بعده وَفقَ مُبتغاه!!

أيّها المُتحابّون فِيّ وأنتم تؤذونني دون أن تدروا ، أنا أنظر إليكم من سمائي وعيني تدمع من أجلكم ، وقلبي ينفطر بِكم ، اسمعوني واعرفوا : «أنا الحقّ وأنا الّذي سيُحرّرُكم» .

(٢)
هل مَسّتْها يَدُ يَسُوعَ حتّى أينعتْ!؟

تعثّرتْ بالفستان الأبيض الّذي كانتْ تجرّه خلفها ، نظر إليها الأب المُفعَم وابتسم ، وسرعان ما اتّسعتْ ابتسامتُهُ لتتحوّل إلى ضحكة مُجلجلة وهو يراها تحاول أن تلبسَ حذاء أمّها فتغوصَ قدمُها الصّغيرة فيه ، أمسكتْ طرفَي الثّوب بيدَيها الصّغيرَتَين النّاعمَتَين ورفعتهما قليلاً قبل أن تحني رأسها لتنظر إلى موطئ أقدامها ، وتتلمّس الطّريق . وها هي تخطو أولى الخُطُوات بهذا الحذاء فتقع حافّة الفستان تحت موطئه ، ولا تكاد تنقل الخُطوة الآتية حتّى تتعثّر وتسقط . . . حينها انقطعتْ ضحكة الأب وندّتْ منه صرخةُ إشفاق عظيمة وهو يقول : الله . . . الله . . . سارَع إليها أنهضها ، حملَها بين يديه عاليًا ثمّ احتضنها طويلاً قبل أن يمدّ يديه على اتّساعهما حاملاً إيّاها وينظر عميقًا في عينَيها الزّرقاوَين اللّتَين تُشعّان براءةً ثمّ يُعيدها إليه ويطبع قبلةً حرّى على خدّها ، وهو يهمس : يا ملاكي . . . ستبقَين ملاكي ولو صار عمركِ سبعين سنة . . . أنتِ بهجة الدّنيا ، وزينتها الأبديّة . . . أمّا هيَ فخفق قلبها لحظة السّقوط ، لكنّ حُضن الأب الحنون سرعان ما أعاد إلى قلبها الطّمأنينة ، وأمّا كلماته الأخيرة فرسمتْ على شفتَيها ابتسامةً هادئة ظلّتْ تُحافظُ على بريقها من غير أن تنطفئ ، وكانتا تنطقان

وضيءً طفوليّ لا يعرفه إلاّ الآباء المهووسون بحبّ أبنائهم .

رفعتْ زوجتهُ صوتَها القادم من المطبخ تسأله : «ماذا حدث؟! لماذا كلّ هذا الضّحك يا وهيب؟!» ردّ عليها : «إنّها بَتول . . . مَنْ يملك عينَين ويراها دون أن تنبعثَ ضَحكة صادقةٌ من أعماق قلبه!! أرأيت ؛ لقد كبرتْ ابنتُنا يا مريم ، وصارتْ تلبسُ فستانَ زفافك» . «ومن أينَ عثرتْ عليه هذه الشّقيّة؟» . «لا بُدّ أنّها فتّشتْ في خزانتكِ . . . الأطفال حينَ يبحثون عن شيء يعرفون كيف يجدونه» .

أكملتِ الأمّ وَضْع اللّبن على الموقد ، استدارت بعد أن غطّت الوِعاء ، ومشتْ باتّجاه الباب ، برزتْ بثوب أسودَ طويل ، تلبس قبّعةً رماديّة ، قالت وهي تمدّ يديها خلف ظهرها لتَحُلّ المريولَ الّذي ترتديه فوق ثوبها :

- «لمَ تَخُصّ بتول بهذه المودّة؟! لِمَ لا يتحرّك قلبُكَ لسِواها»؟!
- إلامَ تُلمّحينَ يا امرأة؟!
- أنتَ تفهم قصدي .
- تقصدين (سلوى) و (وائل)؟!
- ومَنْ غيرُهما؟!
- يا امرأة لا تُدقّقي في كلّ شيء .
- إنْ لم أفعلْ فغيري يفعل ، أتحسَبُ نفسكَ بعيدًا عن هذه الأعيُنِ كلّها؟! أحيانًا ننسَى أنفسَنا في غَمْرةِ مشاعرنا فيما الآخرون يراقبوننا كأنّهم فينا من الدّاخل ؛ المشاعر الحقيقيّة لا سبيلَ إلى إخفائها مهما حاولنا!!
- سلوى في المدرسة ، وكذلك وائل ، أمّا هذه الصّغيرة فمحتاجةٌ إلى مَنْ يلهو معها هنا في البيت .

- أنا أنصحك . . . انتبهْ إلى نفسِكَ جيّدًا ؛ هذا البيت سيضطرب إنِ اضطربَ فيه العدل .

- أووووه . . . لا تُحمّلي الأمور فوق ما تحتمل . . . وهذا الكلام الكبير دعيه جانبًا . . . هذه طفلتي الصّغيرة ، وكلّ ما أقوم بهِ أنّني أُسلّيها وتُسلّيني في وقت فراغي .

حثّتْ خُطاها باتّجاه غرفتهما مُعطيَةً له ظهرها وهي تُتمتِم بكلمات غير مفهومة . هناك غيّرتْ ثِيابها ، وأحكمتْ شدّ الملاءة الطّويلة على رأسها ، وقالتْ له وهي تقف على باب البيت :

- لا تنسَ أن تُراقبَ الطّعام ، درسُ اليوم في الكنيسة مهمّ ، وعليّ أن أُساعِدَ الأسقف بكلمةٍ من كلمات الله . . . لقد طلبَ منّي ذلك في الأسبوع الفائت . . . تذكّرْ أنّ هناكَ أشياء أُخرى في البيت غير صغيرتك المُدلّلة .

***

رهبةُ المكان لا يُخطئها القلبُ العاصِي ولا حتّى المؤمن . . . بدا المدخل فسيحًا أكثر مِمّا كان يبدو عليه في السّابق ، ساحةٌ ممتدّة طويلاً مرصوفةٌ بحجارةٍ رومانيّة قديمة ، الحجارة الّتي تشهد على التّاريخ العتيق للمكان بدا سطحها البُنّيّ الفاتح كتابًا يروي حكايا الّذين مَرّوا من هنا .
وبدا الهواء الّذي يتمايل في تلك القمّة قدّيسًا ينقل أصوات مَنْ عاشوا هنا وقالوا كلمة الله ، وهتفوا باسمه مُنقطعين عن كلّ شيءٍ ما عداه .
وعلى الجانبَين ارتفعتْ أشجار السّنديان العتيقة ، وحينَ يهبّ النّسيم عليلاً كان حفيف الأوراق يقول كلامًا ، كلامًا ربّما حينَ تفتح قلبكَ له تسمع كلّ حرفٍ وكلّ مُباركةٍ قيلتْ في هذا المكان من فم الأساقفة والمطارنة والعابرين من هنا أو الواقفين هناك . أمّا البوّابة الحديديّة

العالية فكلّما امتدّتْ إليها يدٌ لتفتحها سرتْ في جسد الواقف عندها قشعريرةٌ لذيذةٌ تُشبهُ خدرَ النّعاس في أوّل النّوم ، وها هي (مريم) تسري في جسدها القشعريرة نفسها مع أنّها وقفتْ هذا الموقف مئات المرّات من قبل ، وفي كلّ مرّة تشعر أنّها المرّة الأولى . . . المرّة الأولى الّتي مدّ فيها المسيح نفسه يده ليفتح البوّابة للعُصاة والمُذنبين ويُدخِلهم إلى مَلَكوتِ الله . . .

خطتْ أولى الخطوات بعد أن أغلقت البوّابة خلفها ، وقفتْ برهةً ومدّتْ بصرها جهةَ الشّرق ، كانت الشّمس قد ارتفعتْ في القبّة السّماويّة ، تسلّلتْ بعضُ أشعّتها من خلال الأشجار العملاقة في ذلك الصّباح النّيسانيّ المُنعِش إلى قلبها فملأتْها باليقين ، هتفتْ في نفسها : «إذا سقطَ نور الحقّ في القلب أضاء وأشرق ، وحينَها لن تستطيع كلّ جيوش الظّلام أن تهزمه» . خطتْ خطوة أخرى باتّجاه القوس الحجريّ العملاق الّذي يُؤدّي إلى مدخل صغير ينفتحُ بعدها على بَهو الكنيسة الفسيح . هتفتْ في نفسها من جديد وهي تُكملُ خطواتها المتبقّيات قبل الولوج إلى بيت الرّبّ : «مَنْ يدري ؛ ربّما تُصبح بتول راعية هذا البيت ولو بعدَ حين ، وأمّا أنا فسأرتاح قبل أن يهوي بي النّعش إلى القبر ؛ حيثُ النّهر الأبديّ ؛ سأقول : لقد أنجبتُ وريثتي الحقيقيّة» .

على الباب استقبلَها الأسقُف (أبرام) مُرحّبًا بها وابتسامةٌ واسعةٌ ترتسم على وجهه الّذي لا يعرف غير الصّرامة إلاّ فيما ندر ، أطبقَ ما بين يديه وقرّبهما من فمه ، ونظر فيها عميقًا قبل أن ينحني انحناءةً خفيفة برأسه الّذي يعتمر فوقه طاقيّة من الجوخ الأحمر تلفّ قمعه من الأعلى ؛ فيما راح مساعده (دانيال) ينحني انحناءةً مُبالَغًا فيها وهو

يتقدّمهما مشيرًا إلى مكتب الأسقف الجليل ، جلس الأسقف إلى مكتبه ، فيما وقف خلفه المُساعِد ، بينما اتّخذت هي لها مجلسًا عن يمين راعي الكنيسة :

– من هنا انطلق النّور ، ومن هنا باركَ الرّبُّ البشرَ بكلمته . (قالت مريم بفخر) .

– ولكنّ البشر الّذين باركهم عادوا من جديد ليصلبوه . إنّهم عُصاة تحكّم الظّلام من أفئدتهم . (ردّ أبرام مُتذمّرًا) .

– لا تقل ذلك يا أبتي ؛ إنّما جاء المسيح من أجل هؤلاء ، وأوصانا أن نعيشَ من أجلهم .

– إنّنا نبذل لهم كلّ ما نستطيع ، غير أنّ الصّخرة القاسِية لا تُنبِتُ مهما سقيتَها ؛ لقد ماتت قلوبهم يا مريم .

– وبكلمة الله سوف نُحييها . أراكَ تيأس ، والرّبّ مات وهو مُفعَمٌ بالأمل وبالرّضى ، ونحنُ مأمورون أن نكون مثله .

– لا تُخاطبيني بكلمة الرّبّ ، أنا أَعرَفُ بالرّب منكِ وأعرفُ ما أقول . (قال ذلك بعصبيّة) .

– لا . . .لا (صاحت المرأة مُستدركةً) لم أقصدْ يا أبتي . أعتذر لنيافتك . وإنْ شئتَ قبّلْتُ الأرضَ تحتَ قدمَيك .

– لا بأس (ردّ الأسقف بعد أن هدأ) المُصيبة يا مريم أنّ كلّ الأموال الّتي تأتينا من الفاتيكان ، ومن المجلس الأعلى تُنفَق في سبيل إحياء هذه القلوب بلا طائل .

– هَوّنْ عليكَ يا أبتي ، تعرفُ أنّ الّذين يَضلّون الطّريق سيبحثون عن طريق يهديهم إلى غايتهم مهما طال زمن الضّياع .

– أرجو من الرّبّ أن يُباركنا . علينا أن ندخل إلى القاعة

الرّئيسيّة . النّاس منذ زمن ينتظرون أن يسمعوا منّا . هيّا بنا .

مشى الأسقف ، وإلى يمينه ظلّتْ مُحافظةً (مريم) على رباطة جأشها وحفيفُ خُطُواتها على البلاط الرّخاميّ يُشبه خرير نهرٍ هادئ في ليلةٍ صيفيّة ، وخلفهما مشى المُساعِدُ متهاديًا ككلبٍ أمينٍ ، وهو يجرّ وراءه رداءه الرّماديّ الطّويل ، مثل ذَنَبٍ أعوج .

عَبَروا البهو الفسيح ، كان سقف الكنيسة عاليًا بحيثُ يحتاج المرء إلى أن يُرجعَ ظهره إلى الوراء كي يُبصِر النّقوش البديعة الّتي تُزيّن مُحيطَ القبّة الّتي تتوسّط البهو ، وعليه ربّما أن يتوقّف هنيهةً قبل أن يُدركَ الآيات الّتي نُقشتْ تحت بعض الرّسوم المُلوّنة الّتي تتناثر على الجدران البعيدة الأربعة في الثّلث الأعلى منها . نفذت الشّمس من خلال الأقواس الّتي ترتفع وسط الجدران مسافةَ مترَين ، وتتوزّع على مُحيطها بالعشرات في منظرٍ مَهيب . وفي الطّرف الآخر شَمَخ بابُ القاعة الإنجيليّة الّتي يأوي إليها الزّائرون أكثر أيّام الأسبوع . كانت المسافة بين مكتب الأسقف وباب القاعة يمرّ عبر البهو الفسيح ، ظلّ ثلاثتهم يمشون كأنّهم شموعٌ رماديّة تُقدّم نفسها قربانًا لله وهي تحترق عبر طريق تمرّ ببركته من حيثُ المنبع إلى المصبّ . بدا ذلك جليًّا لـ (زَئيف) الّذي كان يقف بجسده الصّلب ، وطوله الفارع ، وصدره المنفوخ ، وعضلاته المفتولة المُخبّأة تحت رداءٍ صوفيٍّ خفيف ، ونظرته القاسية . . . كان يقف في المُلحَق العُلويّ للكنيسة ويَركز باطن كفّيه على سور المُلحَق ، ويرمق الثّلاثة بنظرةٍ ساخرة ، هزّ كتفيه بلا مبالاة وهتف في نفسه : «ماذا يُفيد السّيف زينةُ قِرابه إذا كان غير قاطع» . تعجّبَ من نفسه حينَ خطرتْ بباله هذه العبارة ، ظنّ أنّ أحدًا ما ألقاها في رُوْعه ، فكرّرها مرّة أخرى ليتأكّد أنّها صدرتْ منه . ابتسمَ ابتسامةً

ماكرةً. خفتتْ ابتسامته سريعًا، ليستبدل بها ضَحكةً عالية، ثمّ تحوّلت الضّحكة إلى قهقهة، تردّد صداها الآثم في البهو الممتدّ، تناهى الصّوت إلى الثّلاثة، تبرّم الأسقف في نفسه، أرادتْ مريم أن تنظر خلفها ثمّ تراجعت في اللّحظة الأخيرة، أمّا دانيال فهتف دون تحفّظ: «لعنكَ الرّبّ أيّها الخبيث».

وقف الثلاثة برهةً أمام البّوابة الخشبيّة العتيقة ذات النّقوش والمُنمنمات الرّفيعة، تقدّمهما دانيال ليفتح الباب على مصراعيه، ويشير لهما بالتّقدّم، وينحني لحظةَ مرورهما أمامه. تعالتْ من الدّاخل همهماتُ التّرحيب، وانتظم النّاس في كراسيّهم المُنضدَة بشكل رتيب. هبطوا باتّجاه المنصّة الرّئيسيّة عابرين صفوفًا متناسقة يجلسُ إليها التّائقون الّذين ينتظرون الخلاص في كلّ مرّة ولا يكاد يأتي.

في الممرّ الضّيق المُتاح بين هذه المقاعد الطّوليّة تقدّم (أبرام) تتبعه (مريم)، بينما ظلّ (دانيال) قابعًا في الخلف عند البوّابة يُراقبهما وينتظر إشارةً منهما. كانت الأيدي الّتي راحت ترتفع بتناوب جهةَ الأسقُف تبدو مثل أشرعة سفن مُبحرة في عين الشّمس، كلّ يدٍ آثمة تودّ أن تحظى بالبركة من الرّبّ الّذي يتمثّل في شخص الأسقف هذا. ظلّ المُبارَك ماضيًا بخطوات سريعة دون أن يُعير أيًا من هذه الأيدي أدنى اهتمام، وظلّت الأيدي بدورها تشقّ طريقها نحوه، وأحيانًا تلمس طرف ردائه المخمليّ المُزركَش، فَتَندّ منه زفرةُ تبرُّم لم يكنْ لأحد أن يلحظها باستثناء مريم. فيما بدا وجه الأسقف للتّائقين ملائكيًا ينضح بالطّيبة والرّحمة. لم ترتحْ مريم لتبرّم الأسقف وتمنّتْ أن يكون ودودًا مع هؤلاء المساكين أكثر، وأن يتظاهر بذلك على الأقلّ أمامهم، وفيما تابع الأسقف مسيره الطّويل باتّجاه المنصّة بقيت الأيدي المُشرَعة عطشى

إلى الماء ولو كان هذا الماء قميصًا من قماش. شيءٌ ما في أعماق هؤلاء المتزاحمين لديه يرفع من قدسيّة هذا الثّوب مع أنّهم لو رجعوا إلى أنفسهم لَعَلِمُوا أنّه أسرعُ بِلىً من الجسد الّذي يستره.

صعد الأسقف المنصّة بهدوء كأنّه في صلاة، ووقف خاشعًا أمام الجمع، فيما اتّخذتْ (مريم) لها مقعدًا خاصًا في المقدّمة ريثما يأتي دورُها. أرسل الأسقُف نظرةً رَخْوة لكنّها حزينة إلى الجالسين أمامه، بدا فيها للعارف أنّها نظرةُ الرّتابة الّتي عليه أن يؤدّيها كلّما وقف أمام هذه الجَمْع أو أيّ جمع يُماثله، رسم شارةَ الصّليب باحتراف، وفعل مثله أولئك الّذين جاؤوا لينالوا بركته، ثمّ جَمَع بين يديه على صدره، وتهيّأ للكلام، فاشرأبّتْ إليه أعناق القلوب:

«ستسألون: لِمَ جاء المسيح؟! لِمَ جاء الله في هيئته؟! إنّه سؤالٌ ربّما يتردّد بين فترةٍ وأخرى في ذهن واحد أو أكثرَ منكم؟! وأنا سأجيبكم: لقد جاء المسيح من أجلكم... (ارتفعتْ همهماتُ الحاضِرين مشفوعةً بموجة عميقةٍ من السّرور، سكتَ الأسقف قليلاً ثمّ تابع):

نعم، من أجلكم فلا تستغربوا، إنّه موجودٌ معكم في كلّ زمان، وفي قلب كلّ مَنْ يُناديه، نعم؛ من أجل أن يُنقذكم من الغرق في طين الآثام والشّرور. لولا ذلك أين كُنتم؟! ربّما كنتم تستحقّون أن تُمسَخوا خنازيرَ ملعونةً كلّما شَهقتْ ولدتْ شيطانًا صغيرًا ينطلقُ في الأرض ليأخذكم بعيدًا عن طريق الله». (تعالت الأصوات من جديد مُستعيذةً من هول المصير)، ولكنّ الأسقفَ لم يُمهلهم فصرخ: «ولكنّ الرّبّ يُريدُ منكم شيئًا أيّها العُصاةُ الخاطئون» سكتَ مُغضَبًا فتناهى صوتُ زفراته إلى مريم الجالسة قبالته فزمّتْ شفتَيها. لكنّ أبرام لم يُعِر

أحدًا أيَّ انتباه ، وزادتْ موجةُ هَيَجَانه حينَ أكمل : «إنّ الرّبّ يلعنُ كلّ مَنْ يُساعدُ في صَلْبه ، وأنتم . . . أنتم تُساعدون كلّ يوم في حَمْله على الصّليب ؛ إنْ لم تَرجعوا عن أفعالكم الشّنيعة فإنّ الجحيم في حفرته العاشرة ينتظركم مع بقيّة المَلعونين» . همدتِ الأصوات وخيّم صمتٌ زهيبٌ على القاعة الّتي تنتشر على جوانبها الشّبابيك ذات الألوان الزّاهية ، كان من المتوقّع أن تُدخلَ هذه الشّبابيك شيئًا من الطّمأنينة مع نفاذ أشعّة الشّمس من خلالها ، لكنّ كلمات الأسقُف ملأت الأثير بخوف مُعتّق .

نَفَضَ الأسقُفُ يدَيه بحركة راجفة ، وقبضَ كفّه اليُمنى ، وضربَ بها على صدره مرّتين أو ثلاثًا قبلَ أن يُتابع بنبرة أعلى :

«اركعوا أيّها الملعونون على أيديكم ، أُجثوا أيّها البائسون على رُكَبِكم ، وَابْكوا كثيرًا على ما اقترفتْه قلوبكم من خطايا أيّها التّائهون . . . لولا رحمة الرّبّ الحاضِر بيننا لحكمتُ عليكم باللّعنة الأبديّة» .

طأطأ الجميع رأسه ، وانسكبتْ عبراتٌ حارّة على الخدود ، وارتجفتْ بعضُ الأوصال ، وسُمعَ صريرُ بعض الأسنان ، فيما راحتِ الأعين تتوارى خلفَ الجفون متحاشيةً النّظر إلى الشّرر الّذي يتطاير من محاجر الأسقُف .

مشى الأبُ إلى الطّرف الآخر من المنصّة ، عدّل من طرفي جبّته العُليا المَفتوحَين ، قبل أن ينفثَ زفرةً عميقةً ، ويُشير إلى (مريم) قائلاً :

«انهضي أيّتها الطّاهرة ، مُباركةٌ أنتِ في العالَمين ، أسمعينا صوتَ الرّبّ في كلماتِك» .

وقفتْ مريم تُحيط بها غمامةٌ سوداء من خُطبة الأسقف ، أرسلتْ

نظرةً فاحصة إلى جموع التّائقين فأدركتْ كُنه الصّمت الّذي يلفّهم جميعًا ، بَدَوا تماثيلَ حجريّة كتلك الّتي ينتصبُ بعضها في حلقة دائريّة في الحديقة الخلفيّة للكنيسة ، هتفتْ : «لقد زادتْ خُطبة الأسقف عدد هذه التّماثيل ، وملأتْ حجارتها بالقسوة . بعضُ الكلام يُحيي وبعضُه يُميت ؛ وإنْ لم تميّز بين الكلمتَين فسيُجري الشّيطان على لسانكَ الكلمة الأخرى» . مدّتْ طرفَ يَدها اليُمنى إلى ثوبها ورفعتْه قليلاً لكي لا تعثرَ به وهي تهمّ بصعود الدّرجات الثّلاث الّتي تسبق المنصّة الرّئيسيّة قبل أن تقف في المنتصف ، ويُبادلها الأسقف مكانها الأوّل فيجلسَ هو الآخَر فيه . تَنَحْنحتْ قبل أن تَفوهَ بكلمة ، لوتْ رأسَها إلى اليمين لكي تُمسكَ بطرف الكلمات ، قبل أن تُعيدَ رأسها من جديد لتُواجه الجموع الّتي تتطلّع إلى ما تقول ، حانتْ منها التفاتةٌ باتّجاه الأسقُف ، كانتْ نظرةَ عتابٍ جارحة أرغمتْه على أن يتململَ قليلاً في مقعده قبل أن يُدير رأسه إلى الخلف بحركةٍ خجلى كأنّه شعرَ بأنّ يدًا امتدّتْ إلى كتفه ونقرتْها .

بدأتْ مريم موعظتها : «أيّها الأحباب . . . سأقدّم موعظتي عن طريق الحكاية فأنا أظنّ أنّها تنفعنا أكثر من الموعظة المباشرة . . . ذاتَ يوم من أيّام الشّتاء القاسيَة بكت السّماء كما لم تبكِ من قبل ، وامتلأت الوديان والشّعاب بالمياه المتدفّقة ، وسالت هذه المياه وطغى بعضُها فوقَ بعضٍ حتّى صارتْ طوفانًا ، ظلّ الطّوفان يجرف في طريقه - وهو سائرٌ - الحجارةَ والصّخورَ ، ويقتلع الأشجار ، ولم يصمدْ أمامه غيرُ بعضِ البيوت الّتي أقيمتْ على أساسٍ متين ، مضى الطّوفان في طريقه حتّى وصل إلى مدينةٍ ذات أسوارٍ عالية مُحصّنة ضدّ الأخطار . . . وكان اللّصوص وقُطّاع الطّرق في ذلك الوقت يَجُولون في

المدن والقُرى ، ينهبون ويسرقون ويقتلون ويَعيثون في الأرض فَساداً . . .
وفي المزارع القريبة كذلك كان المزارعون والفلاّحون قد سَمعوا صوتَ الطّوفان من بعيدٍ فَتركوا ما في أيديهم من أدوات الزّراعة والحرث ، وغادروا أراضيهم عندما سمعوا ذلك ، وركضوا باتّجاه المدينة المُحصّنة ، أمّا عُمدة المدينة الّذي تناهى إلى سمعه هذا الصّوت الهادر ، فأمر بإغلاق الأبواب والأسوار بإحكام ، ونشر المُنقذين والمُراقبين على رؤوس هذه الأسوار . . . شعر كلّ أهل المدينة بأمان . . . وصل الفلاّحون اللاّهثون إلى الأسوار أوّلاً ، ففُتحَتْ لهم الأبواب ، ودخلوا المدينة المُحصّنة وقد نَجَوا من موت مُحقّق ، وأمَر العمدةُ بعد ذلك ألاّ يُفتَح الباب لأيّ قادم جديد ؛ لأنّ أصوات الطّوفان تدلّ على أنّه صار قريباً جدّاً من المدينة . . لكنّ اللّصوص وقُطّاع الطّرق الّذين كانوا يتجوّلون متفرّقين في كلّ مكان قد وصلوا متأخّرين ، وكان الطّوفان قد لَحَقَ بهم وكاد أن يبتلعهم ، وحينَ اقترَبوا من الأسوار لم يكنْ لهم من فرصةٍ في النّجاة إلاّ إذا فُتِحَت الأبواب ، ولكنْ كيفَ تُفتَح وأوامر عمدة المدينة كانت واضحةً وصريحة . . . وقف رئيس الحرس على الأسوار ينظر إليهم وهم يتراكضون بفزع والطّوفان يلحق بهم كأنّه تنّينٌ فاغرٌ فاه يكاد يبلعهم ، واحتار بين أن ينفّذ أوامر العُمدة وبين أن يَعصي أمره لإنقاذه هؤلاء الفارّين . . . لكنّه تذكّر أنّ هؤلاء الفَزِعين ما هم إلاّ أشرار الأرض وشُذّاذ الآفاق ، ولئن بدوا الآن مَرعوبين مَفزوعين من هَوْلِ ما يَجدون فلطالما أذاقوا النّاسَ الرعبَ والفَزَع من قبل . . . واحتار في أمره . . .

نعم احتار في أمره ؛ هل يفتح لهم الأبواب أم يتركهم ليَبتَلعهم الطّوفان كما يبتلع ورقاتٍ صغيرةً يابِسةً!! ولكنْ أنا أريدُ أن أسألكم :

– لو كنتم مكان رئيس الحرس ، ماذا ستختارون ، هل سيرقّ

قلبكم لهؤلاء القُساة ، أم تتركونهم يواجهون مصيرهم المحتوم الّذي يبدو عادلاً قياساً إلى أعمالهم الشّرّيرة؟! ههْ ماذا تقولون؟!

(خيمّ صمتٌ عميق على المكان ، وظهر الوجوم على جميع وجوه التّائقين ، وبدا كأنّ القاعة أفرغتْ من كلّ حركة أو سَكَنة ، وغرقتْ في لجّ السّكوت الرّهيب . . .) لكنّ مريم استحثّتْهم من جديد :

– ههْ . . . ماذا تقولون؟!

– إنّهم يستحقّون الموت (هتفَ صوتٌ من بين الجمهور بدأ خفيضاً . . . توقّف قليلاً لكنّه ارتفع بعد ذلك . . . تابعَ صاحبُه بصوت أعلى بعد أن رأى عيون الجميع تُشكّل حوله نِطاقاً وتُتابعه بشَغَف) : نعم الموت ؛ الموت الّذي أذاقوه لمئات النّاس من قبلهم كان عليهم أن يذوقوه ولو لمرّة واحدة . .

علا الضّجيجُ في القاعة ، همهموا كأنّهم يستعدّون للصّياح ، وزفروا كبركان على وَشْك الانفجار ، ثمّ هتفَ كثيرون : (الموت . . . الموت . . .) . أشارت مريم إليهم بالهُدُوء . . . ولمّا هَدَؤُوا ، أدارتْ وجهها إلى الأسقف قائلة :

– وأنتَ أيّها الأبُ الجليل . . . لا بُدّ أنّ هؤلاء التّائقين جاؤوا ليسمعوا منكَ هنا . . . ماذا تقول : هل تفتح لهم الباب أم تُبقيه مُوصَداً في وجوههم الفَزِعة وقلوبهم المُنخلعة؟!

شعر الأسقُف بالحرج ، كأنّما طعنه السّؤال في القلب ، أصابته غصّة في الحلق قبل أن يتهيّأ للجواب ، مشى إلى مُنتصَف المنصّة ليواجه الجموع الّتي ابتلعتْ لسانها ، وربطتْ عيونها به تنتظر الإجابة . . . ، شبّكَ الأسقُف بين يديه وفركهما قبل أن يقول :

– حسناً ؛ الرّبّ عادلٌ . . . كلّ امرئٍ في هذه الحياة ينال جزاءه

الّذي أقرّ به الرّب في أعاليه استنادًا إلى معرفته الأزليّة . . . هؤلاء الأشرار نُزعت الرّحمة من صدورهم فعلى رئيس الحرس أن ينزع الرحمة من صدره تُجاههم ؛ العدالة تقتضي ذلك .

ظلّ الجميع ساكِتًا وقد عقدت الدّهشةُ لسانهم إلى أن قطع الصّمتَ شابٌّ جلس في المؤخّرة ، بدا بشعره الكثيف الأغبر ، وثيابه المُمزّقة ، ونظرته الثّاقبة ، وجسده القويّ أحد هؤلاء المرتزقة الّذين كان يُمكن أن يواجِهوا الطّوفان لو اختلفت بهم الأمكنة أو الأزمنة . . . خبطَ وجه المقعد المستطيل الّذي يجلسُ إليه خَبطةً قويّة ، وزفرَ زفرةَ غضب مسموعة حتّى لأولئك الجالسين في المقدّمة ، وصاح بصوت أجشّ :

– لو كنتُ مكانَ رئيس الحرس ، لفتحتُ لهم الأبوابَ ، ولنزلتُ من الأسوارِ وقُدتهم بيديّ لكي ينجوا . . . الرّبّ لا يُعلّمنا القسوة . . .(قال ذلك مُشيرًا إلى الأسقف الّذي كان يُتابعه وعيناه مُحَمْلقتانِ فيه) . أيّها الإخوة : الرّبّ يعلّمنا الرّحمة .

سُقطَ في أيدي الأسقف لما رأى إصبع هذا الصّعلوك تتّجه نحوه . أصابهُ دُوارٌ خفيف من وَقْع السّهم الّذي رآه يخرج من تلك الإصبع ويقصده بشكلٍ مُباشر . لكنّ الأمر لم يقفْ عند هذا الحدّ ، بل إنّ الدّهشة تملّكَتِ الجميع ، عندما نزلتْ مريم من المنصّة ، وسارت بخُطًا واثقةً تُجاه الصّعلوك ، وأمسكتْ بيده ، ثمّ مضتْ به نحو المُقدّمة ، لتقف أمام هذا الجمع المُحتشد وتقول :

– وأنا أيضًا سآخذ بيدك كما أخذت بأيديهم . . . الآنَ أنتَ تدخل الجنّة . . . طوبى لقلب تحمله ضلوعك أيّها الشّابّ المُلهَم ؛ طُوبَى للحكمة الّتي ألقاها الله في رُوحِك .

ضجّت القاعة بالتّصفيق ، وهتفتْ أصوات التّائقين : (طوبى . . .

طوبى . . .) حتّى ارتجّت الجدران . . . بينما انسحب الأسقف من بين الهاتفين مُغضَبًا مكسوفًا .

على الباب البعيد استقبله دانيال ، فتح له البوّابة على مصراعيها ، وتبعه كذَنَبه ، وهو يهتف في أذنه مُحاولاً اللّحاق بخطواته المُتسارعة التي أخذتْ تنهب الأرض ، ومن فوقُ جَلْجَلَتْ ضحكات زئيف الّذي رأى الأب يمشي مُغضَبًا نازعًا الوقار الّذي يتصنّعه في أغلب الأحيان .

صار دانيال خلف أبرام مباشرةً أمال جذعه وهو يمشي إلى الأمام حتّى أحسّ الأسقف بحمّى أنفاسه اللاّهثة تخترق عُنُقه ، هتفَ في أذنيه والزّبد يتطاير من بين شفاهه المُتلعثمة :

– لا عليكَ يا أبتِ . . . لقد تكلّمْتَ بكلمة الرّبّ . . . أمّا هي فتكلّمتْ بكلمات نَفسِها . . . وشتّان بين الأمرين . . . النّفس مسرحٌ للشّياطين ، وأرى أنّها في تلك اللّحظة الّتي قالتْ كلمتها المشؤومة قد لعبتْ في روحها آلافُ الشّياطين والمَرَدة .

– سنرى مَنْ يملك هذا الكرسيّ يا دانيال . . . أنا لا تكفيني لَعنات المجلس الأعلى القادمة من وراء البِحار ، حتّى تأتيني لَعَنات هذه المتفذلكة من هنا ؛ من هؤلاء الأقربين الّذين بدل أن يكونوا جدارًا تُسندُ إليه روحَكَ المُتعَبة يتحوّلون إلى أفاعٍ مُرقّطة تنهشُ جسدك ويسري سُمّها في دَمِك . . . سنرى . . . نعم سنَرى يا دانيال . . .!!

هبط زئيف من مُحيط الكنيسة العالي ، حتّى صار في البهو ، ظلّ ماضيًا إلى البوّابة الرّئيسيّة للمعبد التّاريخيّ ، قبل أن يدلف من تلك البوّابة العتيقة حانتْ منه التفاتةٌ إلى مكتب الأسقف ، بدا له الأب مثل كرة مطّاطيّة تكاد تتميّز من الغيظ في مقعدها الوثير وإلى جانبه المُساعِد مُنحنيًا مثل إبريق زيتٍ كبير وقد رَشَحَه العَرَق لطول ما انحنى

واستوى أمام سيّده ؛ مضى غير عابئٍ بهما ، وتجاوز البوّابة ثمّ انفتل يسارًا تُجاه جدار المبنى ، تاركًا البوّابة الحديديّة وراءه ؛ دار نصف دورة ، قبل أن يُخرج من جيبه سلسلةً من المفاتيح تلفّها حلقةٌ معدنيّة كبيرة ، عدّ المفاتيح قبل أن يستقرّ على مفتاح يعرفه ، دسّه في بوّابة تختفي خلف ثلاث شجرات عملاقات ، وتقع في زاويةٍ غير مكشوفة بين عمودَين ، صرّت البوّابة الصَّدِئة لطول العهد باستعمالها قبل أن يُغلقها خلفه بالمفتاح إيّاه ، وينزل في سراديب حلزونيّة مُتعرّجة إلى الأسفل ، بعد أن هبط أربع درجات ، بدأ نور الشّمس الّذي يتسرّب تهريبًا من نافذة ملتصقة بأرض الحديقة الخارجيّة يختفي تدريجيًّا ، دار الدّرج بشكلٍ حلزونيٍّ وابتدأ عهد الظّلام ، تناول (زئيف) المصباح المُعلّق عند فم الدّرجة الخامسة ، أضاءه وواصل هبوطه إلى العالم المُظلِم في الأسفل . فوق هذه الدّرجات الّتي بدا أنّها تهبِطُ إلى الجحيم كان صوتُ الهاتِفين بكلمة (طوبى) فوقها ما زال يطوّق قلب مريم بسرورٍ بالغ .

قالت مريم : «إنّ كلّ مَنْ يتمثّل رحمة الرّبّ فكأنّما فعل مثله ؛ فهو في ملكوته خالد ، فأبشروا بالفرح ، قولوا لقلوبكم مهما لفّها الظّلام : إنّ الرّبّ هو الّذي يمسح عليها بيده المُباركة فيحولّها إلى نور وضياء . عيشوا بكلمة الربّ وموتوا راضين ؛ لأنكم إليه تذهبون» . ما كادت تختم الموعظة بجملتها الأخيرة : «لأنكم إليه تذهَبون» حتّى تناهى إلى سمعها صوتٌ مُرعِبٌ تشكّل في هيئة استغاثة مكتومة كأنّما هي قادمةٌ من بئرٍ عميقة ، اخترقت الصّرخةُ أُذنَها ثمّ قلبها ، وقبل أن تتأكّد من أنّها سمعتْها بالفعل ، كانت القاعة تضجّ بالهُتاف : «طُوبَى . . . طُوبَى . . .» . نفضتْ رأسَها في محاولةٍ لتكذيب ما

سمعتْ ، تركت الجموع وراءها ، وتوجّهتْ صاعدةً نحو باب القاعة ، لتدلف منه إلى البهو الفسيح ، ذرعت البهو العالي المَهيب مُسرعةً حتّى دخلت على الأسقُف ، تلقّاها دانيال بنظرةٍ غاضبة ، ثمّ أشاح بوجهه عنها :

– أنا أعتذر سيّدي الأسقُف . لم أقصدْ أن أُحرِجك .

– لو كان الأمر بيننا لكان يُمكن ابتلاعه ؛ أمّا أمام هؤلاء المرتزقة . . .

– ولكنّهم ليسوا مرتزقة ؛ إنّهم ضُيُوف الرّبّ ، ولولا أنّ الربّ قبلهم لما هداهم إلى بيته!!

– من جديد تتحذلقين ؛ بعضُ الأمور الكَهنَوتيّة سِرٌّ لا يطّلع عليه العامّة .

– لكنّنا لم نتعلّم هذا في دراستنا اللاّهوت ؛ لقد تعلّمنا أنّ قلوبنا بيوتُ الغُرباء ، وأنّ نُبشّر النّاس بفرح عظيم ، أليس المسيح هو البشارةَ نفسَها الّتي بشّر بها الرّبُّ النّاسَ أجمعين!!

– لِمَ تُحاولين أن تنتقصي من هيبتي ومن مكانتي في كلّ مرّة؟!

– أنا لا أفعل . . . وأعتذر من جديد .

ولّتْ له ظَهرها ، وقالتْ وهي خارجة :

– أنا أريد أن تمنحني بركتك أيّها الأب ، لا أن تُهدّدني بلعنتك .

– لا تَنْسَي ما حدث لهيلينا . (صرخ بها متوعّدًا وهي تبتعد) .

– تُخوّفني يا أبي . القَتَلة همُ الّذين عليهم أن يخافوا ، لا أنا!!

غذّت الخُطا للبيت . عادتْ مشيًا هذه المرة . قابلتْها الدّروب الزّراعيّة المنحدرة من قِمّة الجبل ، كانت أشجار البلّوط والصّنوبر تحفّ جانبَي الطّريق وتُلقي بِظلالها هناك فتخفّف قليلاً من حرارة الشّمس

الّتي بدأت تشتدّ ، وقد قارب الوقتُ الظّهيرة . بدت الأشجار على طول الطّريق صامتة وخاشعة كرهبان تنحني في حضرة الحَبر الأعظم ، راحت تتأمّل الخُضرة الطّافحة الّتي تنعم بها الأوراق من حولها ، وهمستْ بنشوة : «هل مسّتْها يَدُ يسوع حتّى أينعتْ!!» . شقشقتْ أصوات الحُبارى الّتي تطير على ارتفاعات منخفضة ، خطر ببالها خاطرٌ عجيب ؛ تسمّرتْ في مكانها كجذع شجرة ، وأغمضتْ عينيها ، وراحت تحلُم ، رأتْ نفسها وقد تحولّتْ إلى عريشة من الياسمين ، مدّت جذوعها بلين ، وبسطتْ أوراقها بلطف ، وفاحت رائحة عبق بها الجوّ ، وسرعان ما انجذب عددٌ من الطّيور المُغرّدة وحطّتْ على الأغصان اللّيّنة ، شعرتْ باهتزازة خفيفة في كتفيها ، لم تشكّ للحظة أنّ هذه الطّيور تحطّ فوقَ كتفَيها . لمعَ في خيالها طيفُ ابنتها الصّغرى بتول ، وقفتْ قُبالتَها تفصل بينهما مسافةٌ قصيرةٌ ، زادتْها بسمتُها فرحًا وسرورًا ، تنادتْ أعدادٌ أخرى من الطّيور لتحطّ حول قدمَي صغيرتها ، ظلّت الطّيور تتوافَد حتّى ملأت الجوّ ، وحجبت ما بينها وبين صغيرتها ، راحت الأصوات تتعالَى ، تحولّتْ إلى غربان في لحظة خاطفة ، تبدلّ الغناء نعيقًا ، والنّشيد زعيقًا ، شعرتْ بشيءٍ ما مدبّب الطّرف سقطَ فوق رأسها ، وخزها بلطف ، فأفاقت من أحلامها ، فتحتْ عينَيها ، تدحرجتْ حبّة الصّنوبر من رأسها إلى كتفها ، ثمّ سقطتْ عند قدمَيها ، بدت الطّريق أمامها طويلة ، والأشجار على هيئتها الخاشعة ، نظرتْ خلفها فلم ترَ إلاّ الأشجار نفسَها تنحني بالخشوع نفسه . . . نفضتْ رأسَها ، وتابعت المسير باتّجاه البيت .

حين اقتربت من الوصول ، حانت منها التفاتة إلى قمّة الجبل ، بدت الكنيسة الأثريّة مثل قلعةٍ حصينة مُسوّرة بالأشجار الضّخمة ،

وحدها القُبّة الّتي تتوسّط البهو الفسيح ظهرتْ بكامل أُبّهتها ، وفي مركز هذه القبّة ارتفع الصّليب حاملاً المسيح ممدود الذّراعين . هيئته الّتي تحفظها منذ ثلاثين عامًا لم تُفارق مخيّلتها ؛ كان يمدّ ذراعيه كما لو كان يرحّب بالعالَم كلّه ، في كلّ مرّة يتمثّل لها ، تسمعه يقول : «أهلاً بكم أيّها العُصاة في مملكتي ، إنّني أفتح أبوابها من أجلكم في كلّ حين ؛ لا تخافوا أقبلوا نحوي فإنّما رُفعتُ على هذه الخشبة من أجل أن أفتح لكم قلبي قبل ذراعَيّ» . ظلّتْ يداه ممدودتَين طَوال ثلاثة عقود ، وفي كلّ مرّة يأكلها العجب في أنّه لم يتعبْ من بسطهما على هذا النّحو ، وأنّه لم يفعل ولو مرّة واحدة أنْ يريحهما فيُنزلهما إلى جانبه ، وتهتف : «كم أنتَ ودودٌ أيّها الرّبّ» .

عشرات الأمتار فقط تفصلها عن بيتها الّذي يقع ضمن مجموعة من البيوت في هذه القرية المسيحيّة الّتي هجرها أكثرُ أهلها لصالح المدينة ، كانت تظنّ أنّ الشّيطان ناداهم لكي يتركوا مزرعة الرّبّ ، ويتحوّلوا إلى منافي الشّيطان ، منذ زواجها من وهيب ، والأخير يُقنعها بأنّ الرّبّ موجودٌ في القرية والمدينة على السّواء ، وأنّه يرحّب بهم هنا كما يرحّب بهم هنالك ؛ ويهتف :

– لقد كبُرَ أولادنا يا مريم ، وهذه القرية لا تُطعم خبزًا .

– إنّها هي الّتي تُطعم خبزًا ، انظر إلى الرّبّ هناك في الأعالي ، (وتشير إلى قمّة الجبل حيثُ الكنيسة) ، إنّه منذ أن صُلب وهو يُطعِم أتباعه الخُبز الحقيقيّ ، أتريد أن تأكل من يد الشّيطان في المدينة؟!!

– ولكنّ الحياة تغيّرت يا امرأة .

– لم تتغيّر في شيء ، وكلمات الله خالدة ، لا تُغيّرها الأزمنة .

– وأولادنا الّذين صاروا على أبواب الجامعة؟! إنهم يبحثون عن

حياة أخرى غير تلك الّتي عشناها نحن ؛ زماننا غيرُ زمانهم يا مريم .

– أولادُنا؟! ليذهبوا إلى الجامعات ويتعلّموا كما يشاؤون ، ولكنْ ليعودوا إلى هنا ؛ هنا حيثُ البركة تحلّ في هذا المكان كما يحلّ الماء في الينبوع يا وهيب .

– أنت عنيدةٌ يا امرأة .

– أنا لا أُجبِرُ أحدًا ، لو قطّعوني إرْبًا إرْبًا فلن أغادر هذه الأرض المُقدّسة ، أتنكرُ يا وهيب أنّ المسيح مرّ بهذه الأرض ، ومرّغ قدَمَيه بهذا التّراب ، وعمّد جسده الطّاهر بذلك الماء (وتُشير جهة الغرب) .

– سيذهبون يا مريم ، سيذهبون . . . سلوى ووائل ، وحتّى بَتول ، سيذهبون ويتركوننا هنا وحدنا .

– وليكنْ . . . لهم أن يختاروا حياتهم ؛ أمّا أنا فقد اخترتُ .

كان ذلك قبل أن يتناقص عدد قاطني القرية ، بعد أن ترك أهل الزّراعة حِرفتهم ، وحوّلتْهم الآلة الحديثة إلى مُستهلكين . ولكنّ القرية الّتي فقدتْ أبناءَها الّذين نبتوا من جلدها ، وشربوا من مائها ، وأكلوا من قمحها ، وناموا على حصيرها ، كانت كذلك مأوى المُشرّدين العابرين ، الّذين يتعبون من مهنة اللّصوص ، ويملّون من نَهشِ لُحوم الآخرين ، فيأوون إلى الجبل ، حيثُ بيت الرّبّ كما قال لهم أحد التّائبين ذات مرّة ، بعد أنْ كان قائلاً : «الرّبّ هناك في الأعالي يُناديكم ؛ إنّه لا يفرّق بين أولئك الّذين يحملون الحنْطة ليقدّموها للفقراء ، أو أولئك الّذي يحملون البَلْطة ليحصلوا على تلك الحنطة من الأغنياء» . بالطّبع لم يكنْ يصدّقه أحدٌ ، كانوا يعتقدون أنّ الشّيطان قد رَكِبَهم وأنّ الأمر قد انتهى ، إلى أن جاء اليوم الّذي مرّ بهم وهم يجلسون تحت ظلّ شجرة سنديانة عِملاقة رجلٌ غريب لم يروه من

قبل ، وأقسموا أنّهم لم يروه بعد الحادثة أيضًا . كان هذا الرّجل يحمل بين يديه قرطاسًا ، اقتربَ منهم فيما هم يسكرون ويغنّون ، ويُنادون بعضهم بكلماتٍ بذيئة ، وطاف بهم واحِدًا واحِدًا يمسح على رؤوسهم ويبتسم في وجوههم ، ثمّ أخذ من قربةٍ تتدلّى على جانبه مِزهرًا ورشّ به الماء على رؤوسهم ، وتلا عليهم بعضَ الآيات من الكتاب المُقدّس . وكأنّما أفاقوا من سَكرتهم ، وشعروا بأنّ الضّيق الّذي يُحكم قبضته على قلوبهم قد صعد من هناك واختفى ، وأنّ أرواحهم قد أصبحتْ خفيفة حملتْ أجسادَهم في حركةٍ متمايلة ، وانقادت خلف هذا الرّجل الغريب الّذي عبر بهم الدّروب التّرابيّة المحفوفة بالصّخور والشّوك حتّى أوصلهم إلى بيت الرّبّ ؛ وهناك وجدوا راحتهم الأبديّة ، وانتهى عهد الشّرّ بالنّسبة لهم .

بالطّبع لم يُصدّق أحدٌ ممّن رُويتْ لهم هذه الحادثة ، وظلّوا يقولون : إمّا أنّه حُلْمٌ أراد به أحد العُصاة أن يُسلّي رِفاقه ، وإمّا أنّها حكايةٌ اخترعتْها مريم الّتي تُتقن صياغة الحكايا والأمثولات ، أمّا الرّجل الّذي رشّ الماء على رؤوسهم فظلّ سِراً غامضًا ، حتّى إنّ مريم نفسها تمنّت أنْ تراه من جديد ولو في أحلامها ؛ أحلامها الّتي صار عددها بعدد حصى القرية . لقد قال لها زوجها ذات مرّة : «أظنّ أنّني أستطيع أن أعدّ النّجوم في ليلة باردة صافية ، لكنّني بالتّأكيد لا أستطيع أن أعدّ أحلامَكِ الّتي لا تنتهي!! من أيّ شيءٍ أنتِ يا امرأة!! أأنْزلكِ الرّبّ من الأعالي لتفوهي بالأحلام ، ولِتصوغي منها الأمثولات!!» .

حيّتْ جارتها الّتي كانت قد عادتْ من توّها حاملةً بعضَ الأغراض بين يديها استعداداً لطبخ وجبة الغداء . مدّتْ يدها مُصافحةً ، قالتْ لها الجارة :

- الأولاد طيّبون؟!

- أحبابُ الله لا خوفٌ عليهم . (ردّت مريم) .

دَلَفتْ من الفتحة الّتي تنتصف الجدار المكوّن من الحجارة الحمراء ذات الثّقوب المحمّلة بأتربة المزارع ، متراكمةً ومرصوفًا بعضُها فوقَ بعض ، كان بابًا بلا بوّابة ، ظلّتْ تقول إنّ عين الله تحرسه كلّما قالت لها الجارات ألا تخشينَ من أن يستسهل اللّصوص الدّخول إلى بيتك ، ثمّ تُردِف : «وما الّذي عندي ممّا يُغري اللّصوص ، ليس في البيت غير كلمة الله ، وأتمنّى لو يدخلون فتَسقطَ على قلوبهم» .

في الفناء من الدّاخل ، بدتْ بتول وهي تَرتحِلُ ظهر أبيها ، وهو يُهملج بها مثل حِصان جامح ، ومن فوقه راحت الصّغيرة تُكركر مع قفزاتِ أبيها غيرِ المُنتظَمة ، وهي تُلصِق بطنها بظهره ، وتلفّ يديها الصّغيرتين حول صدره ، وهو يصهل بطريقةٍ مُضحكة . أمّا الرّائحة القادمة من المطبخ فسبقت رؤيتها للكائنَين البشريَّين السّعيدَين أمامها . وَلوَلَت المرأة وهي تصيح بزوجها آخذةً نَفَسًا عميقًا لتتأكّد من أنّ الرّائحة قادمةٌ من المطبخ : « أيّها التّعيس ، لقد سلبتْ هذه الصّغيرةُ عقلك ؛ ويلي منكَ ومنها» .

(٣)
القَنْطرة إلى الأبديّة لا تمرّ عبر الأفعال المَشينة

استراح تحت شجرة ممتدّة الظّلال ، أخذ غفوةً قصيرةً من عمله الشّاقّ الّذي بدأه منذ الصّباح الباكر في حرث الأرض استعدادًا لزرعها بالقمح والشّعير ، حقلان متجاوران ينبسطان على قمّة جبلٍ ينتهي في شموخه بينَ مجموعة جبالٍ تُحيطُ ببيت الرّبّ الّذي بُنِيَ قبل قرونٍ سحيقة ، دأب (ميمون) على زراعةِ هذين الحقلَين بالقمح والشّعير وأحيانًا العدس منذ سنواتٍ طويلة ، في الغفوة حَلُم أنّ غلّة الأرض هذه السّنة ستفوق السّنوات العشرين الماضية ، يعرف الحالمون أنّهم يستعيضون عن الحقائق الصّعبة الحدوث بإحداثها في النّوم ؛ النّوم الّذي لا يستغرق إلاّ بضعَ دقائق ، الدّقائق الّتي تُحوّل ما لا يُمكن القيام به في قرون ليُصبح ممكنًا في لحَظات ؛ ما أجمل أن يحلم الإنسان ؛ بل ما أجمل أن يستسلم الإنسان للأحلام حتّى ولو لم تتحقّقْ ، أحرامٌ على المرء أن يهنأ ولو مرّة واحدةً بحلمٍ لذيذ في بحرٍ من الطّيبات المُتتابعة!!

طرقَ سَمْعَه في الغفوة صوتُ صغيرٍ يبكي ، ابتسم في داخله وهتف : «ما دام حلمًا فَلِمَ لا يضحكُ هذا الصّبيّ بدلاً من أن يبكي . . .» . أراد أن يُتابعَ حلمه بِغَلّة الأرض ، لكنّ صوتَ بكاء الصّبيّ شَوَّش عليه رؤياه ، ونغّص عليه سعادته ، هتف من جديد :

«اللّعنة ؛ اسكُتْ أيّها الصّبيّ أريد أن أستمتع بحفيف السّنابل وهي تُواصل نُمُوّها حتّى تُطامِن السّماء» ، لكنّ صوتَ الصّبيّ الباكي علا أكثر ، فلعنَ نفسه هذه المرّة ، وهزّ رأسه واستيقظ منزعجًا . ظنّ أنّ الصّوت سوف ينتهي بانتهاء الحُلم ، فنفض رأسه وَهَمَّ بالقيام لكي يُكملَ يومه الشّاقّ ، ولكنّ الصّوت استمرّ في البكاء ، أصغى سمعه ليعرف مصدره ، أدار ظهره للوراء ، وأخفَضَ رأسه وانحنى ليمرّ من تحت الشّجرة ماضيًا إلى الموضع الّذي استطاع أن يُحدّده . ظلّ الصّوت يعلو أكثر وأكثرَ كلّما اقتربَ منه ، توقّفتْ دقّات قلبه للحظات ، واتّسعتْ حَدَقتا عَينَيه منَ الذّهول الّذي استحوذ عليه وهو يرى قطعةَ لحم ملفوفة بخرقة بيضاء يَصدُر عنها كلّ هذا البكاء ، تجمّدَ في مكانه حتّى يبس كتمثال ؛ حرّرتْه من جموده الآنيّ صرخةٌ انفجرتْ من أعماقه ، فتحرّك باتّجاه قطعة اللحم الباكيَة ، كانت القطعة تَرتعِدُ وهي تتحرّك لحركة القدَمين الصّغيرتَين اللّتَين بَدَتَا مثل كُرتَين حمراوَين ، هتفَ بعد أن ابتلع ريقه ، واستوعبَ المشهد : «يا يسوع . . . يا يسوع» . أسرع نحو الطّفل ؛ «إنّه لقيط ؛ هذا المِسكين ، ما أقسَى القلب الّذي رمى بكَ ها هنا» قال ذلك وهو يأخذه بين يديه ويُجلسه في حضنه ، ويتأمّله بدهشةٍ بالغة . كانتْ عينا الصّغير تبرُقان حينَ وقعتا على هذا البشريّ الّذي حَمَله قبل قليل . تلفّت (ميمون) حوله ليتأكّد من أنّ أحدًا موجودٌ في الجِوار ، لعلّه يعرف معه من أين جاء هذا الطّفل اللّقيط ، لكنّ عينَيه لم تقعا إلاّ على الحقل المحروث الممتدّ الّذي يتهيّأ لاستقبال البذار . جاءه خاطرٌ عجيبٌ : «كلّ المخلوقات حَبٌّ نتجَ عن بَذْر ؛ بعضُ البَذْرِ طيّبٌ وبعضُه خبيثٌ» . نظر باتّجاه الطّفل ثمّ حوّل نظره إلى الأرض المُنبسطة أمامه : «البشر يفعلون ذلك ، يزرعون بذرةً طيّبة

وخبيثة ، أمّا هذه الأرض فلا تُنتجُ إلاّ البذرة الطّيّبة» .

لم ينتظر حتّى يُتِمّ عمله ، مسح وجه الطّفل بما تيسّر لديه من ماء ، وقطر في فمه بعض القَطَرات ، وركب بغلته وعاد بالطّفل إلى البيت . لم يُحوّل نظره عن الطّفل المسكين طَوال الطّريق ، بقيتْ عينا الرّضيع معلّقتَين به ، وأمّا وجهه فلم يتحوّل عن العُبوس .

- لن نستطيع أن نربّي هذا الطّفل . (هتفتْ زوجته وهي ترمق الصّغير باشمئزاز) .

- ولمَ لا؟!

- إنّه ابنُ حرام .

- لكنّ يسوع ألقى به بين أيدينا لكي يكون قَنْطَرتنا إلى الأبديّة .

- القَنْطرة إلى الأبديّة لا تمرّ عبر الأفعال المَشينة أيّها الأبله .

- بحقّ الرّبّ . . . املئي قلبك بالحبّ ولو مرّة واحدة أيّتها الصّخرة الصّمّاء .

- أنا صخرةٌ صمّاء أيّها العُود الأعوج . أقسم بالّذي تُؤمن به ، لو مرّتْ عليه ليلةٌ واحِدةٌ في بيتنا فلن يَطلُع عليه النّهار .

- وماذا نفعل به ؛ انظري إليه ؛ إنّه لا يكفّ عن البكاء ؛ لا بُدّ أنّه جائع .

- أن يموت خيرٌ من أن نؤويه في بيتنا ؛ انظر أنتَ إليه ؛ ألا ترى عينيه كيف تَلمَعان ببريق مُخيف ؛ لولا أنّني مؤمن بذلك الّذي في الأعالي لقلتُ إنّ الشّيطان هُوَ مَنْ تحمله بين يديك مُتجسّدًا في هيئة طفل . . . ألا ترى . . . ألا تشعر؟!

- أرجوكِ يا عزيزتي!!

- أنا الّتي أرجوك ؛ خُذْ هذا الطّفل إلى الدّير ، وهناك هم يعرفون

كيف يتدبّرون أمره . . . هيّا اخْرُجْ . . . أُخْرُجْ أيّها البائس .

لعنَ النّساء في طريقه إلى الدّير ألف مرّة ، كانت (سَعديّة) سبب نحسه الّذي لم يُفارقْه منذ أن اقترنَ بها ؛ هكذا أقنع نفسه سريعًا ، وهو يواصل طريقه إلى الدّير يتقطّع من الغيظ والحنق ، حتى إنّه كاد يبكي لولا أنْ خشيَ ملامة النّاس في الطّريق . كلّ نقاش بينه وبين سعديّة كانَ ينتهي إلى لعنات مُتتابعة تسقط على رأسه الّذي غزاه الشّيب فتزيده اشتعالاً . تذكّر أوّل مرّة رآها فيها حينَ كانت ترعى بقطيع من الغنم في شعف الجبل الّذي دأب على زرعه بالحبوب ؛ كانت تبدو في نظره يومئذ ملاكًا هبطَ من السّماء ، وبعثه روحُ القُدُس بنفسه إليه ؛ تلك الفتاة الّتي تشدّ إزارها على وسطها ، وتُرسلُ شعرها كسنابل ذهبيّة يلعبُ بها هواء الجبل المُنعش ، وتحنو على ناي بينَ أصابعها تُتقنُ العزف عليه بأنغام شجيّة ، وتُردفُ اللّحن الشّجيّ بصوت قادم من الغيب . . . تلك الفتّاة كانت أكثر من مجرّد فتاة أحلام بالنّسبة له ؛ لقد انخلع قلبه يومئذ لرؤيتها وعاد بلا قلب فقد تركه يذوب بين أصابعها الّتي راحت تنتقل بخفّة ومهارة بين ثقوب النّاي الحزين .

تنهّد في الطّريق وهو يغوص في هذه الذّكريات حتّى اكتوى بحرّ أنفاسه ، لكنّه تابعَ طريقه إلى الدّير مُرغَمًا ، كلّما فكّر في أن يغيّر رأيه ويعصي زوجته انفلتتْ من حين إلى آخر نظرةٌ منه إلى الوراء ليتأكّد من أنّها لا تتبعه ولا تُرسلُ أحدًا ليُراقبه ؛ وحينَ لا يجد إلاّ نفسه واللّقيط والطّريق يُدقّق النّظر في الأشجار البعيدة ، ويُحدّ نظره من بين أغصانها ومن خلف أجمتها الضّبابيّة كمن يتوقّع أنّ عيونًا كثيرةً خلف هذه الأكمات تُراقبه وتنقل أخباره إلى زوجته ، بل وتنقل حتّى هواجسه الّتي جاهَدَ في أن يُخفيها عن نفسه حتّى لا تفضَحه!!

عاودته الذّكريات من جديد ، رآها بفستان العُرس ، كانت ملاكًا رحيمًا فما الّذي حوّلها إلى شيطانٍ رجيم (هتف في نفسه والحسرة تبلعه) . كنت أظنّ أنّها بوّابتي إلى السّعادة ، قبل أن أكتشف أنّها الوادي الّذي قادَني إلى الجحيم ، كنتُ أريد أن أُنجب منها البنين والبنات قبل أن أكتشف أنّها عقيم . . . صَمَتَ . . . وعَقور كذلك . أراد لشتيمتها في الكلمة الأخيرة ، لكنّه تراجع فجأة وتمنّى لو ابتلع الكلمة قبل أن يتلفّظ بها ، بل تمنّى أنّه لو استطاع أن يلمّ حروفها المتناثرة من الفضاء ثمّ يُعيدها إلى جوفه من جديد .

وللحظة فكّر بأمنيته العتيقة ، تخيّل أنّه يضمّ هذه الأمنية بين يديه ، ويطبع عليها قُبلةَ الرّجاء ، ثمّ يُرسِلها إلى السّماء السّابعة لكي تتحقّق : «موتي يا امرأتي اللّعينة ، موتي لكي أتمكّن من الزّواج بأخرى وأرى حياتي معها . . . موتي أيّتها العجوز الشّمطاء . . . موتي» . لكنّ الأمنية قبل أن تُجاوز يديه المُرتجِفتَين ارتدّت إلى صدره مثل سكّين ذابح حين تراءى له طيفُها الشّيطاني وهو يقهقه في وجهه بجنون ، وسخر من أمنياته الطّفوليّة التي سرعان ما تذوب مثل المِلح في الماء .

تابع طريقه إلى الدّير ، أحسّ أنّه طويلٌ جداً ، وشاقّ ، ويصعد عبر الجبال في طرق مُتعرّجة وخطيرة أحيانًا ، كان سوط مراقبتها الخفيّ يلسعه في ظهره ، لوهلة ظنّ أنّه درب الآلام الّذي قطعه المسيح ، وتمنّى على الحقيقة أن يتلقّاه أحدٌ ما في قِمّة هذا الجبل عند الكاتدرائيّة العالية ويقوم بصلبه هناك لكي يرتاح من شقائه الأبديّ ، ومن الشّيطان الّذي ينام إلى جانبه في كلّ يوم ، لكنّ المسيح نفسه ظهر له في تلك اللّحظة ، ابتسم في وجهه ، وشدّ من أزره ، وباركه بالكلمات الطّيّبات ، وحثّه على الصّبر ، سَمِعه يقول : «لو لم يصبر نوح لما نجّاه الله من

الطّوفان . لو لم يصبر إبراهيمُ لما وُلِد له إسحق . ولو لم يصبر سليمان لما آتاه الله الحُكم على الإنس والجانّ . اصبر يا بُنيّ ؛ فإن كلّ غاية مهما كانت عظيمة لا يُمكن أنْ تصل إليها إلاّ إذا مررتَ بطريق الصّبر» .

كانت هذه الكلمة (طريق الصّبر) هي آخر ما سَمِعه قبل أن تهيج بغلته ، راحت البغلة ترفس الأرض بشدّة بحوافرها ، وتصيح كمن يستغيث ، وتدور حول نفسها بحركات مضطربة ؛ لم يَدْرِ ما الّذي تراءى للبغلة في تلك اللّحظة حتّى يُجنّ جنونها!! ما الّذي شاهدَتْه حتّى تفقدَ صوابَها!! لم يستغرق الأمر بضعَ دقائق بعد ذلك الهياج حتّى عثرتْ به بغلته وسقط هو واللّقيط من فوق ظهرها ، وذهب في غيبوبةٍ عميقة . أحسّ أنّه سقط في بئر لا قَرار لها بعد آخر حرفٍ هتف به المسيح على سَمْعه (طريق الصّبر) ، ظلّ يسقط في البئر الفارغة ، وهو ينظر إلى الأعلى إلى فوهة البئر ويصرخ مستنجدًا ، ظهرتْ له صورة المسيح من جديد على باب البئر ، وهو ينحني فيتناثر شعره الذّهبي ، ويمدّ يده إليه في الأسفل لكي يُمسِكَ به قبل أن يُتابع سُقوطه العميق ، لكنّ يد المسيح لم تصل إليه ، ظلّ يسقط ويسقط ، وهو يصرخ ويصرخ : «أنقذني يا يسوع . . . أنقذني يا يسوع . . . أنقذني وسأعيش طوال حياتي عبدًا لكَ إنْ أنقذتني . . . باركني بكلمةٍ تَقِيني من الموت وسأدين لكَ بحياتي كلّها إنْ فعلت ؛ لن ألعنَ زوجتي بعد اليوم ، ولن أشتمها حتّى لو في السّرّ . . . لقد كنتَ على حقّ يا يسوع . . . النّساء هنّ جدارُنا العالي إنْ لم نتكئ عليه فإمّا أن نتكئ على الهواء أو على الشّيطان والأوّل سقوط والثّاني جحيم . . . أنقذني يا يسوع . . . أنقذني . . . أرجوووووك» . ذهبتْ صرخاته أدراج الرّياح ، أحسّ أنّه ارتطم بقعر البئر العميقة ذات المياه الضّحلة ، وانخمد صوته فجأة ، ولم يعدْ موجودًا .

أفاق على وجه نسائيّ لطيف يتزيّن بابتسامة هادئة ، همّ بأن ينهضَ من ضَجعته فلم يقدر ، ازدادتْ ابتسامةُ الفتاة العشرينيّة في وجهه من جديد ، وأشارتْ له بأنْ يهدأ . لمعتْ عيناه فجأة . سقط في وريهما الشّيطان فاستيقظتْ فيه الشّهوة ، تمنّى لو أنّ هذه الفتاة السّاحرة زوجته بدل تلك العجوز ، صفعته التّعاليم الدّينيّة على مؤخّرة رأسه فتراجعتْ رغباته وانسلّتْ من تحت أقدامه . أدار رأسه يمينًا وشمالاً ليعرفَ أينَ هو ، لم يكنْ من شيءٍ يُعينه على معرفة مكانه ، صعدتْ الحروف المتيبّسة من أسفل حلقه ، صبّ عليها من ماء توقه المعرفيّ ، فتابعتْ صعودها إلى شفتيه ، تمكّن في النّهاية من أن يُشكّل السّؤال على وجهه الصّحيح :

- أينَ أنا؟!
- في الكنيسة . (أجابتْه الفتاة الجميلة)
- في الكنيسة؟!
- نعم .
- لم أرَ هذا الجزء من الكنيسة من قبل!!
- إنّه مشفى داخل الكنيسة ، ونحن الرّاهبات اللّواتي يقُمن على خدمة المرضى الّذين يَأْوون إلى هنا من القرى والبلدات المُحيطة .

لعنَ نفسه من جديد ، لم يكنْ يعرف أنّ هذه الكنيسة الّتي عايشها كلّ هذه الأعوام فيها مثل هذا المشفى ، بل لم يكنْ يُدرِك أنّ فيها مثل هؤلاء الفاتنات اللّواتي يسجد لهنّ في الجسم كلّ شيء . تذكّر اللّقيط الّذي كان يحمله خلفه على بغلته ، فهتفَ فجأة :

- والصّغير . . . أينَ الصّغير؟!
- إنّه بخير ؛ لا تقلق . . . لقد تولاّه جناح المُرضِعات .

- وسعديّة؟!

- مَنْ سعديّة؟!

- زوجتي .

- لم تأتِ .

بعد أسبوع بَرِئَ من أوجاعه ، وعاد إلى منزله في صباح ربيعيّ مُشمِس ، على الباب كانت البغلة أوّل المُستقبلين له ؛ استقبلتْه بالهَمْلجة ، ورفعتْ إحدى قوائمها ، ثمّ دارتْ نصف دورةٍ إلى اليسار قبل أن تُعدّلها من جديد ، ثمّ تمدّ عنقها إلى الأعلى مُرحّبة به ، ومشتاقةً إلى صحبته الطّويلة . أمّا زوجته فلم تُبارِح مكانها في الفرن الخارجيّ الّذي كانت تخبز فيه الخبز للجارات ، اللّواتي غالبًا ما يأتين بالعجين من كلّ دار ، وتتولّى هي عمليّة الخَبْز على أن تأخذ من كلّ جارةٍ رغيفَين نظيرَ قِيامِها بالأمر . عندما حانت التفاتةٌ منها إلى الوراء على إثر صوت البغلة ، تململتْ قليلاً في مكانها ، ثمّ تناولتْ عودًا يابسًا من الحطب ، ووضعته تحت رُكبتها وشدّت على طرفيه قبل أن يُطقطق منكسرًا ، جمعتْ العُودَين ، ورمتهما بتذمّر إلى النّار المُوقدَة في الفرن . نفضتْ يديها ، قبل أن تقف على قدمَيها ، وتُرسِل نظرةً حادّة إلى زوجها العائد للتّوّ :

- أخيرًا عُدت . (قالتْ ذلك بلهجةٍ غير ودودة) .

- نعم عدتُ يا امرأة ؛ لم أركِ هناك (وأشار إلى الجبل الّذي تستقرّ فوقه الكنيسة) . ألم تعرفي ما حدث؟! (وأشار إلى رأسه حيثُ العُصابة ما زالتْ تلفّ رأسه) .

- عرفتُ . . . بالطّبع عرفت .

- ولِمَ لَمْ تأتي ؛ على الأقلّ اطمئنّي على هذا الكائن الّذي كان

يرقد ميّتًا هناك .

- أطمئنّ عليه (قالتْ ذلك بتأفّف) ؛ والبيت؟! مَنْ يطمئنّ عليه . . . كيف كان لنا أن نتدبّر أمر الطّعام يا فصيح؟! ذهبتَ وتركتَني وحدي أقومُ بكلّ شيء!!

لم يُرِدْ أن يستمرّ معها في جِدالٍ عقيم يعرف في النّهاية أنّه الخاسر الأكبر فيه ، فلجأ إلى طريقته التّقليديّة في تخفيف الاحتقان المتعاظم في صدره ، والبركان الثّائر في أعماقه ؛ لعنَ امرأته من جديد في سرّه ، فظهر له المسيح مرّة أخرى ، نظر إليه نظرةَ رجاءٍ مع ابتسامة عريضة أن يسمح له هذه المرّة أن يلعنها أضعاف ما كانَ يلعنها من قبلُ ، فابتسم . مضى في طريقه إلى الدّاخل وهو يلهج باللّعنات المتواصلات حتّى رمى نفسه على فراشه البالي .

(٤)

وَيْلٌ لهؤلاء الّذين يَخدعهُم بَريقُ الدُّنيا عن مَعرفة الهَدف مِن حياتهم فيها

بين هذه الجُدران السّميكة الّتي قُطعتْ من الصّخور ، وقُدّت من الحجارة الكبيرة العِملاقة تحت قاعدة الكنيسة المَهيبة ينهضُ عالَمٌ سُفليٌّ آخر لا يشي به العالَم الفوقيّ البادي للنّاظرين والعابِرين!! عالَمٌ مُغلَق ، لم يدخل إليه إلاّ الخاصّة ، وبعضُ الّذين رماهم القَدَر هنا لسببٍ أو آخر ، سببٌ أقلّه الموت ، أو الطّريق المُفضِية إلى الموت ؛ أو ما بينهما!!

عُهِدَ بالطّفل إلى الرّاهبات الشّابّات اللّواتي يعملْن في خدمة الرّبّ ؛ أوّل من تلهّفتْ إلى حَمْله (هيلينا) ، تلقّفتْه من بين يدي الأسقُف الشّابّ (أبرام) ، قال لها : «عَثَر عليه أحدُ جوّالتنا في المنطقة الجنوبيّة من الكنيسة ، هذا المسكين ، ومعه أحد مُزارعي القرية ، لعلّه أبوه ، لم نتحقّق من الأمر بعدُ ، ولكنّ هذا المفترض أنّه أبوه فاقدٌ للوعي ، وحتّى نعرف الحقيقة أرجو أن تقومي على رعايته بما يُرضي الرّبّ» . ردّت : «سمعًا وطاعةً يا أبت» . وحملتْه جَذلى بين يديها تطوفُ به الأرجاء وهي تُتمتم بعبارات الشّكر للرّبّ أنْ منحها هذا الطّفل . طَوال حياتها بعد أن تفرّغتْ للخدمة هنا كانت تحلم بأنْ تُصبحَ أمًا ، أمًا تحمل بين ذراعَيها ولدًا ؛ ولدًا ولو كان ابنًا للطّريق!! ضَمّتْه إلى

صدرها قبل أن تشعر بأنّها ضمّتْ جمرةً مُلتهبة ، تعوّدتْ بالرّب ممّا شعرتْ به ، وأبعدت الطّفل الّذي بدا أنّه يُراقبها بعَينَين زرقاوَين صافيتَين ، ولكنْ حادّتَين خاليتَين من البراءة أو معنى الطّفولة ، ضحكتْ وهي تراه يُحدّق بها بهذه الطّريقة ، وطبعتْ قُبلةً على خدّه الأيمن ؛ بدا أنّه لم يتقبّلها إذْ تجعّدتْ جبهته للتّوّ جرّاء تلك القُبلة ، لكنّ شغف هيلينا به ازداد ، وتعجّبها كذلك ، فقرصتْه قرصةً خفيفةً على الخدّ الآخر وأطلقتْ ضحكةً عالية وهي تهتف : أيّها الشّقيّ . . . أنا أمّك . . . فلا تكنْ عاقًّا من البداية . ثمّ جثتْ على رُكبتَيها أمام المذبح ورفعت الصّغير عاليًا بين يدَيها ، وحنتْ رأسها إلى الأسفل في خضوع تامّ وهتفتْ : «أيّها الرّبّ ، أيّها المُمَجّد في أعاليه ، امنحني القوّة من أجلِ ابنك ، املأْ ثَديي بالحليب لأسقيه ، وقلبي بالصّبر لأعتني به ، وعقلي بالحِكمة لأعلّمه» . ثمّ بالغتْ في الانحناء وهي جاثية حتّى كاد وجهها أنْ يُلامس الأرض ، وحتّى كاد الصّغير أن يتربّع على عنقها . ثمّ وقفتْ وهي تبكي فرحًا أو شوقًا .

في اللّيل ، امتلأ ثَديُها بالحليب ، استلقتْ على سرير المُرضعات ، وألقمتِ الطّفل ثديها ، فهزّ رأسه ، وأماله إلى الخلف ، ضغطتْ على الحلَمة لينسكب الحليب فيشمّ رائحته فيجذبه إليها ، لكنّه ظلّ مُمعنًا في تأبّيه ، أحاطتْ رأسه الصغيرة من الخلف بباطن كفّها وقرّبتْه من جديد فأبى مرّة ثانية ، وبدأ يبكي . تعجّبتْ من الأمر ، لكنّها سرعان ما تذكّرتْ أنّها ليستْ أمّه . أزاحتْه برفق ، ثمّ قامتْ تُصلّي من جديد ، وتبتهل كي يتقبّلها الصّغيرُ المُشاكس . عادتْ إلى فِراشها ، أرختْ جسدها المُتعَب على السرير ، وسرعان ما غطّتْ في نوم عميق . في منتصف اللّيل استيقظتْ ، مدّتْ يدها كمن تذكّرتْ شيئًا . تحسّستِ

المكان جيّدًا في الظّلام فلم تَعثُرْ عليه ، هبّتْ من نومها فَزِعةً ، وقامت تصرخ . تلمّست الحائط الصّخريّ السميك ، وعثرتْ على زرّ الكهرباء ، أضاءته ، وأجالتْ نَظَرات مُلتاعةً في الغرفة تبحثُ عن صغيرها . . .
في تلك اللّحظة استيقظتْ بقيّةُ الرّهبات على الصّرخات الّتي شقّت سكون المكان وظُلمته ، وبدّدت الهدوء الّذي كُنّ ينعمنَ به في تلك اللّيلة . هُرعتْ إليها إحدى الرّاهبات :
- ما الّذي حدث؟! ما بكِ؟! لِمَ تصرخينَ هكذا؟!
- وائل؟! أينَ وائل؟!
- وائل!! مَنْ وائل . . . آه تقصدين الرّضيع الّذي عَهِدَ به إليكِ الأب؟!
- نعم .
- ما باله؟!
- لقد اختفى!!
إنّه هنا ؛ هتفتْ إحدى الرّاهبات الّتي بدتْ أنّها منزعجةً من هذا الهياج المُفاجئ في منتصف اللّيل ؛ «إنّه هنا ، تعالَي خُذيه ، وحرّرينا من هذه الهيعة الّتي أوقعتنا فيها» .
- ما الّذي أوصله إليك؟! (هتفتْ بها هيلينا مُغضَبة) .
- لا أدري!! لقد وجدتُه بجانبي وأنتَ تصرخين كالبلهاء .
- لا تدرين!! هه . . . لا بُدّ أنّكِ سَرَقته لتحظَي به وحدك .
- سرقتُه!! ما الّذي تقولينه؟! أنا . . . أنا لم أتحرّك من مكاني ، ولم أبرحْ فِراشي
- ومَنْ إذًا وضعه في حجرك أيّتها الكاذبة؟! هل قفز من هنا وسار على قدميه مزهوًا حتّى وصل إليكِ؟! (قالتْ ذلك باستهزاء واستنكار)

- ربّما له كرامات المسيح ، وبشارات الرّبّ (ردّتْ باستهزاء مُضاعف) ، ومَنْ يدري قد يُكلّمنا في المهد اليوم أو غدًا!!
- أنت وَقِحَة . . . فعلاً مكان الرّبّ قد يضمّ الشّياطين أيضًا .
- إنْ كَنتُ شيطانةً ، فأنتِ إبليس بذاته . (أجابتْها متصنّعةً الهدوء ، وهي تنفجر من الدّاخل غيظًا) .
كاد أن يتطوّر الشّجار إلى عراك بالأيدي ، لولا أنّ دانيال وصل إليه صوتهنّ ، فاستيقظَ فَزِعًا ، ثمّ تَسلّلَ إلى غُرفِهنّ ، طرق الباب ، وفتحه نصف فتحة ، وهتفَ بهنّ :
- الأبُ في رَقدتِه يا أخواتي ، وشِجاركنّ قد يُوقظه . وإذا استيقظ حدثتْ الطّوامّ .
- إنّها لِصّة هذه الّتي تدّعي خدمة الرّبّ (أجابتْه هيلينا بصوتٍ مزماريّ خرجَ من بين أسنانها المُصطكّة غيظًا ، وهي تُشير إلى غريمتها) .
- أرجو أن ينتهي الأمر عند هذا ، اكفُفْنَ عن الصّراخ الآن وأجّلْنَ حلّ قضاياكنّ إلى الغد ، دَعُوا الأسقُف ينعم بنوم هادئ ، أرجوكنّ .
- تعالَي خُذيه ولْتنته المُشكلة . (هتفتْ بهيلينا)
- هاتيه أيّتها اللّصّة . . . هاتيه ، لا أدري إلى متى يُمكن لي أن أحتمل!!
أخذتْهُ مُغضَبةً ، وعادتْ به إلى سريرها ، مَسحتْ شَعَراته المتناثرات كَوَبرٍ فوق رأسه ، وطبعتْ قبلةً خفيفة على جبهته ، وهَمَستْ في أذنه بصوتٍ خفيض : «أنا أمّك . . . لا تذهبْ وتتركني مرّة أخرى ، وإلاّ زعلتُ منكَ» .
قرّبتْه من جديد إلى صدرها ، وألقمتْه ثديها ، تلقّفه الرّضيع هذه المرّة بلهفةٍ وراح يعبّ من الحليب الدّافئ الّذي راح يتدفّق كأنّه انحبس

طويلاً قبلَ ذلك . في حَمْأة الشّفتَين المحمومَتَين اللّتَين راحتا تَعُبّان الحليب من صدرها هتفتْ هيلينا : «وائل . . . لا تكُنْ . . .» ثمّ انتبهتْ إلى أنّه تدعوه (وائل) مرّة أخرى دون أن تدري من أينَ جاءتْ بهذا الاسم ، لكنّها رأتْه مُناسبًا حتّى ولو لم تُفكّر به من قبلُ ، خطر ببالها أنّ أسماءنا تأتي معنا ، لا أحدَ يُسمّيك ، اسمُكَ يكونُ لصيقًا بجسدك منذ خروجكَ من الأحشاء ، فقط يأتي أحد الأقرباء لينزعه عن هذا الجسد ويُقدّمه إلى النّاس ، فيُعرَف به من لحظتها ؛ الأسماء لا تتغيّر ، إنْ تغيّرتْ فهي لم تكنْ لصاحِبها في البداية ، الاسم الّذي تغيّر هو اسمٌ ضلّ طريقه عن صاحبه ، ثمّ لما وجده عادَ إليه من جديد!!

تسلّمتِ الأمّ في اليوم التّالي من مكتب الرّعاية في الكنيسة كلّ ما يخصّ الطفل من ملابس ، وحفاظات ، وأوانٍ ، ولُعَب ، وبعض الأطعمة المُساعِدة . وأتتْها بعد ذلك بثلاثة أيّام برقيّةٌ من المجلس الأعلى للكنائس في الفاتيكان تشكرها على قَبولها للطّفل ، باركَها الأب وقال لها في برقيّته تلك : «مُباركةٌ اليد الّتي تغسل ، والصّدر الّذي يُطعم ، والقلب الّذي يحنو . كوني له كما كانت مريم ليسوع» .

قبّلت البرقيّة ودسّتْها في ثوب مِخدّتها ، وظلّتْ لشهر تبدأ بها صلاتها كلّما همّتْ بأنْ تُرضع الصّغير .

بعد أسبوع تكلّم الأب المفترض :

– مَنْ أنتَ أيّها الجليل؟! (سأله أبرام)

– أنا ميمون ، قادمٌ من الجنوب .

– وماذا كنتَ تعمل أيّها الطّيّب؟!

– أنا مُزارعٌ أعمل في الحقول الجنوبيّة .

– ومَنْ هذا الطّفل الّذي وجدناه مُلقًى إلى جانبك .

– الطّفل؟! آه الطّفل . . . قصّته طويلةٌ أيّها الأسقُف .

– قُلْ . . . تكلّمْ ؛ فإنّ الآباء كلّهم هُنا يُصغون لك .

دأبتْ هيلينا على أن تخرج بالصّغير في أوقاتِ الضّحى إلى الحديقة الغربيّة من الكاتدرائيّة ، وتطوف به بين الأشجار العالية الّتي تُحيط بالسّور الخارجيّ المُرتفع ، وأحيانًا تجلس قريبًا من حافّة نافورة تتوسّط مساحةً مُسيّجةً بالياسَمين . كانت النّافورة الّتي يزيد عمرها عن خمسمئة عام مصنوعةً من الرّخام الحجريّ الأبيض على هيئة وردة متفتّحة البَتَلات ، وقد عُهِدَ حديثًا إلى مهندس زراعيّ أمْرُ الاهتمام بها والقيام على شؤونها . حول هذه النّافورة الأثريّة تمتدّ مساحةٌ مربّعة بطول ثلاثة أمتار ، ينتصب على زاويتَيها المُتناظِرتَين تمثالان ؛ أحدها للسّيّد المسيح في أبهى هيئة ، ينسدل شعره النّاعم الكثّ حتّى يُغطّي كتفيه ، ويلبس رداءً أخضر يانعًا . والآخر للسّيّدة مريم العذراء وهي تشخصُ ببصرها إلى السّماء ، وتُقابِل بين كفَّيها مَمدودتَي الأصابع في هيئة مناجاة حقيقيّة . أمّا الزّاويتان المُتناظِرتان الأُخريان فقد انتصب فوقهما عمودان حجريّان قديمان مَعقوفان من الأعلى يحملان مصباحَين حديثَين ، إذا كان اللّيل وأُضيئا وانعكس ضوؤهما مع المياه المتدفّقة في المساحة المُربّعة على تمثالي المسيح والعذراء شعرتَ بأنّ هواء المكان يلفّ قلبكَ بالطّمأنينة والسّكينة . وإذا أمعنتَ النّظر إلى المسيح خُيّل إليكَ أنّه يُخاطِبك ، ونظرةٌ أخرى إلى العذراء سيخيّل إليكَ أنّها تُناجيك وتُلاطفك في الحديث . جلسة في المساء مع غروب الشّمس في إحدى الأماسي الصّيفيّة الهادئة مع نسمات عليلة تأتي بها الأشجار العالية ستتأكّد من أنّك في الجنّة ، أوّ أنّ قطعةً من هذه الجنّة أُهبِطَتْ إلى الأرض لتكون ملاذكَ الأخير من أخباث الدّنيا .

خلف الإطار المربّع الّذي يحوي البركة الصّغيرة الّتي تُحيط بالنّافورة الأثريّة تُوجد بعض المقاعد الخشبيّة الّتي نُضّدتْ بشكلٍ فنّيّ على هيئة قوسٍ عند كلّ ضِلع من أضلاع مربّع النّافورة، وكلّ مقعدٍ من هذه المقاعد الّتي تبدو كذلك على هيئة نصف دائرة تُتيح لاثنين على الأقلّ أن يجلسا ويتناجَيا في ظلّ القمر أو في صُحبة الرّوح.

هناك على أحد هذه المقاعد المتقوّسة دأبتْ هيلينا على الجلوسِ في الأضحيات، وغالبًا ما كانت تبدأ مناغاتها للصّغير، ووشوشاتها الحميمة له إلى أن تأتي (مريم) فتُشاركها الجلسة، (مريم) اليتيمة الّتي كانت مثلها تعمل في خدمة الرّبّ منذ أن بلغت الرّابعة عشرة من عمرها، فلمّا صار عمرها ثمانية عشر عامًا، ذهبتْ إلى كنيسةٍ في المدينة فتعلّمتْ هناك اللاّهوت، وعِلم الأديان، على يد مجموعةٍ من القَساوسة المُتخصّصين.

انقطعتْ بعدها تبحثُ في علم الأديان المُقارَن على نفسها، وفضّلتْ أن تعود إلى قريتها لأنّها كما كانت تقول دائمًا: «هنا يتجلّى الرّبُّ بالحِكمة. وهناك يتجلّى الشّيطان بالحُمْق». «مَنْ يبيع بالنّسمة الصّافية هنا الدُّخان الأسودَ هناك»، وتتابع: «ويْلٌ لهؤلاء الّذين يخدعهم بريق الدُّنيا عن معرفة الهدف من حياتهم فيها». من أجل هذا آثرتْ أن تعيش في القرية بين الطّبيعة السّاحرة، والصّفاء العميق، والهُدوء الأخّاذ. كانت تقول: «كلّ هذه الأجواء الّتي هنا تُساعدني على أن أرى دربي بشكلٍ أوضح». وحينَ قال لها القسّ ذات مرّة: «لقد مهرتِ في معرفة الرّبّ، ويُمكننا أن نوفّر لكِ وظيفةً في هذه المدينة تدرّ عليكِ لبنًا وعسلاً. وعطايا الرّبّ هنا كثيرة. وستكونين مصدر فخرٍ للمجلس الأعلى، وأظنّ أنّه لن يبخل عليكِ بالأموال

الطّائلة ما دمتِ تعملين على تحقيق أهدافه... إذا بقيتِ معنا ودَعوتِ لهيبة الرّبّ هنا، فإنّ الأموال ستجري أنهارًا من تحت قدمَيك».

وكالعادة كانت عنيدةً وحادّةً في كلّ قراراتها: «إنّ أنهار البركة الّتي سيُجريها الرّبّ من تحت قدَمَيّ هناك خيرٌ لي من كلّ كنوز الدّنيا هنا».

فهزّ كبير القساوسة رأسه بأسف، ويتمنّى لو أنّه يستطيع إقناعها يومًا ما قبل أن تحصل على الشّهادة وتتخرّج من هنا، وتغادرهم إلى غير رجعة!!

تناولت (مريم) وائل من يد هيلينا، ومدّدتْهُ في حضنها، وتأمّلتْه طويلاً؛ بدا لها أنّ فيه شيئًا غريبًا؛ زرقةَ عينيه الصّافيتَين، وحدقةَ بؤبُئه الّتي تتحرّك يمنةً ويسرة بسرعة، والتّجاعيد الّتي تعلو جبهته تلك الّتي لا يُمكن الاقتناع بأنّها لطفلٍ ما زال في أشهره الأولى، كان حاجبُ عينه ما زال يتعافَى من أثر الجُرح الّذي أصابه لحظة سقُوطه مع ميمون عن ظهر البغلة. لكنّه رُزِقَ الحَدْب من هيلينا، والحبّ الكبير منها، وهذا يكفيه كما قالتْ مريم.

- ألنْ تتزوّجي يا أختاه؟! (سألتْها هيلينا)

- ربّما... (تصمتُ ثمّ تضحك وتُرسل نظرها في البعيد)

- آه.. يبدو أنّ السّنّارة قد صادتْ! (تغمزها هيلينا)

- وارد.. وارد يا هيلينا... كلّ شيءٍ وارد.

- ومَنْ سعيد الحظّ هذا!!

- لا أدري إنْ كان حظُّه سعيدًا معي أم لا. أنا أؤمن أنّ حياة كلّ واحد منّا هي غابةٌ غامضة، يجد الإنسانُ فيها نفسه مدفوعًا لأنْ يكتشفها من جهة، ولأنْ يتعايشَ مع وحوشها من جهةٍ أخرى.

- وفي النّهاية؟!

- قد يصل وقد لا يصل!!
- ولكنْ من كان الرّبّ معه فسيصل بالتّأكيد .
- صحيح ، ولكنْ مَنْ يستطيع أن يتأكّد أنّه في معيّة الرّبّ ، مَنْ!!

وتأخذ هيلينا الطّفل من بين يَدَي مريم من جديد ، تقوم من مقعدهما المُشترك ، وتقترب من الزّاوية الّتي يقف فيها تمثال المسيح ، تميل بجسدها على التّمثال وهي ما زالتْ تحتضن الصّغير ، وتبتسم :

- سيجمعنا الرّبّ على هذه الهيئة هناك في الأعالي .

فتجيبها مريم مُستغربةً :

- على هذه الهيئة!! ألا تريدين للصّغير أن يكبُر .
- حتّى لو كَبُر فسيبقى صغيري الوحيد ، وحبّة قلبي الأثيرة .
- وأنا؟!
- ما أنتِ؟!
- ألنْ يكون لي صغيري أيضًا!!
- سيكون إذا فتحْتِ قلبكِ . . . سيكون يا أختاه . (وتبتسم ، وتغيب في أجمة بعض الأشجار القريبة)

كانت مريم تقول دائمًا : «إنّ قلبي لا ينفتح إلاّ للرّب ، وحده الّذي يستحقّ أن أهبه هذه المُضغة المملوءة بحبّه . أمّا أولئك البشر فهم فانون وسيذهبون بنا إلى الفناء» . كان هذا فيما مضى ، لكنّها اليوم ربّما تغيّرتْ ، ومن ذا الّذي لا يتغيّر!! نحن نتغيّر بسرعة أحيانًا مثلما تتغيّر السّحب في السّماء وهي تركض لاهثةً وراء مصيرها في الفضاء المُطلَق!! مَنْ يستطيع أن يصدّ قلبه عن رياح التّغيير ، حتّى ولو بنى حوله ألفَ جدارٍ وجدار!! كلّ هذه الجُدُر قد تنهار في لحظة ؛ في لحظة؟! نعم في لحظة ، ومَنْ يفعل بها ذلك؟! ليسَ المِعولَ الحادّ ، ولا

الفأس المُتعطّشة ، ولا المطرقة الحديديّة ؛ بل إنّ وردةً حانيةً في لحظة عابرة لها قدرةٌ على أن تغيّر أعظم الثّابتين وتُزحزح أكبر الجامدين ، وردةً حرّى يُمكن لها أن تهدم ألفَ جدار على القلب وتبني بعد ذلك حوله ألفَ غمامةٍ من عشق ، وألفَ رقّة من هُيام ، وألفَ هالةٍ من ولع .

هذا ما حدث مع مريم أوّل مرّة قابلتْ فيها (وهيب) . كان ذلك بعد عام واحد من انتهائها من دراسة اللاّهوت ، حينَ اتّصل بها القسّ من كنيسة المدينة ، وأخبرها أنّ مجموعةً من المؤمنين قادمةً من إيطاليا وتودّ أن تتعرّف على الأماكن الّتي زارها المسيح أو باركها ، ومن ضمن مُخطّطات زيارتهم أن يزوروا القرية الّتي تعيش فيها ، ويلتقوا بالأسقف في كنيستها . وقال لها : إنّها هي خيرُ من يدلّهم على ذلك ، وأفضل مَنْ يكونُ مرشدًا سياحيًا لهم في تلك الأماكن . فوافقتْ على الفور خاصّة أنّ هذا العمل يخدم الرّبّ ويقرّب النّاس إلى معرفته ، وقد يُعتق الرّبّ أحدهم فيعمل لخدمته كما عملتْ هيَ .

نادَى الأب أبرام على هيلينا : «يا أختاه ، لديّ ما أقوله لك» .

تركت هيلينا (وائل) بين يدي مريم ، فحملته فانتبذتْ به مكانًا قصيًا ، ابتعدتْ ما استطاعت عن الشّبابيك المزروعة في جدران الكنيسة ، وآوت إلى ربوةٍ في آخر السّور القصيّ ، ظلّتْ تمشي وهي تحمل الصّغير بين يديها حتّى ارتقتْ فوق الرّبوة الصّغيرة الّتي تُطامن السّور ، ومن هناك بدا لها المنظر الرّهيب . لم تكن المرّة الأولى ، بالطّبع لم تكنِ المرّة الأولى ؛ فقد عاشتْ في هذا المكان أربع سنوات على الأقلّ من قبل ، وخبرتْ كلّ شبرٍ فيه ، لكنّها مع هذه الإطلالة في هذا الضّحى ، وفي حضرة هذا الصّغير بدا لها المنظر كما لو أنّه يظهر لها أوّل مرّة قادمًا من الغيب ، كانت قمم الجليل حيثُ تجوّل المسيح تضحك لها ، والشّمس

الّتي لم تُصعَدْ من حرارتها بعدُ بدتْ أيضًا تضحكُ لها ، وحتّى هذا الصّغير الّذي اعتادتْ على بُكائه وعُبُوسه راح يضحك لها في تلك اللّحظة وقد عبرتْ وجهه نَسَماتٌ رائقات قادمات من البلاد المُقدّسة .

جلستْ على الرّبوة الدّاخليّة هذه ، وراحتْ تتأمّل الصّغير من جديد ، ووَدّتْ لو أنّها تحظى برعايته ، أو تشرُف بتعليمه اللاهوت عندما يشبّ ، وراحتْ تحضنه عميقًا وتهمس في أذنه بالصّلوات .

(٥)
أصلِحوا قلوبكُمْ تُبصِروا دُرُوبَكم

قريبًا ستُطوَى الأرض ، وتمتدّ الممرّات الوَعِرة لتُصبح مُنبسطة ، وتنمو الورود على الجانبَين ، وتتّسع الدّروب ، وتصدح المُغنّيات الفقيرات بالكلمة الخالدة ، وستقرّ القلوب المَخوفة ، وتهدأ النّفوس المُضطربة ، وتبتسم الشّفاه الحزينة . وعن قريبٍ ستأتيكم كلمة الله ؛ أمّا أنا فَصَوْتُه ؛ صَوتُه الّذي يدلّ عليه ، ولكنّني لستُه ؛ لن أجعل نار الكبرياء تُطفِئ نور الحقيقة ، وتعمّي عليها . ما من واحدٍ منّا إلا وجاء ليخلّص البشر من هذه الفانية ويعبر بهم إلى الباقية . حفّزنا الشّيطان لنقوم من صمتنا ونبشّر الصّابرين على شهواته بقرب العافية ؛ أيّها المؤمنون إنّما الرّسالة واحدة والرّبّ واحد ، والحياة ليست هذه الّتي تظنّون أنّكم تحيَونها ؛ إنّها جسر ستمرّون عليه مطمئنّين إنْ صبرتُم ، فإنْ لم تفعلوا وعمّتْكمُ الظّلُمات من كلّ جانب ، فسيُنادي مُنادٍ في البرّيّة : «أصلِحوا قلوبكم تُبصِروا دروبَكم» .

وصل الوفدُ القادم من إيطاليا إلى القرية المُباركة في الثامنة صباحًا قادمًا من المدينة . انتظرتْهم مريم عند محطّة الباصات الّتي تقع في مدخل القرية . صعدتْ إلى الباص السّياحيّ ، وطافتْ على الرّكّاب تُسلّم عليهم واحدًا واحدًا باسم الرّبّ . ثمّ أشارت للسّائق أن ينطلق ، فمضى في طريقه صاعدًا طُرُقًا مُتعرّجة وضيّقة ليصل إلى الكاتدرائيّة

الشّهيرة ، ومن خلف الباص انطلقتْ سيّارةُ شرطةٍ تبرقُ أضواؤها في وسط النّهار ، وتُلازِم الباص كأنّها كلبٌ يتبعُ سيّده .

بعد أقلّ من ساعة كان الباص اللاّهث قد وصل إلى مُبتغاه . نزلوا من الأبوابِ كالطّيور الهائمة ، المُسرعة إلى الورْد ، قالوا لهم في البلاد البعيدة الباردة : «هناك أرضُ الله والدّفْء ، احْمُوا قلوبكم من الصّقيع بتعميدها بالتّراب المُقدّس» . تلفّتوا حولهم يملؤون عيونهم من جَمال المكان ، وراحوا يتناثرون أمام الكنيسة مثل بتلاتِ وردةٍ لعبتْ بها ريحُ الصّبا .

قادتْهم مريم من البّوابة الخارجيّة إلى البَهْو الفسيح ، على البّوابة الدّاخليّة تلقّفهم الأب أبرام ومُساعده دانيال ، وعددٌ من قساوسة الكنائس القريبة ، وراهبات الدّير ، واحتفظ (زئيف) بموقعه المُطلّ على الرّائحين والغادين في الإطار العُلويّ . انحنى كلّ الزائرين في حضرة الأسقف ، وقبّلوا يده ، بينما راح هو يرشّ عليهم من الماء المُقدّس الّذي جُهّز بشكلٍ خاصٍّ لهذه المناسبة بعد أن جيء به من نهر الأردنّ . طافتْ بهم مريم في أرجاء الكنيسة الشّاهقة الّتي ترتفع على أقواس حجريّة موغلة في القِدم ، ثمّ بدأتْ بتعريفهم بالقدّيسين القُدامى الّذين تنتشر صُورهم على الجدران الدّاخليّة المُزخرفة ، وعرّفتْ ببعض القدّيسين الجُدُد الّذين اعتمدهم الفاتيكان في آخر قرنَين من الزّمان .

انتهى المطاف بالعيون التّائقة والقلوب المتشوّقة إلى قاعة المواعظ ، حيثُ وقف الأسقف على المنصّة الّتي ظلّ يقف عليها لعقود مُتتابعة فيما بعد دون أن يزول عن موقعه ، أو تُغيّر السّنون والظّروف من طبيعة مَهمّته ، وكان يلقى تكريمًا ماليًا لكلّ موعظة يُلقيها هناك من المجلس الأعلى ، وتختلف قيمة التّكريم باختلافِ المناسبة أو طبيعة النّاس

الّذين يستمعون إلى مواعظه ؛ واليوم بدا أنّ كلّ كلمةٍ ستخرج من فيه أمام هذا الوفد النّادر القادم من وراء البحار ستعدل وزنها ذهبًا ، كلّ كلمةٍ بقطعة ؛ ولذلك انتظر هذه اللّحظة بصبرٍ فارغٍ ، بعد أنْ لوّعتْه مريم بكثرة شروحاتها للرّسومات وأصحابها قبل أن تدلفَ بهم إلى هنا ، إلى هذه القاعة حيثُ هو سيّدها الأوّل بلا منازع .

بدا الأسقف (أبرام) مهيبًا ، وهو يلبسُ ثوبًا أبيضَ فضفاضًا ، مُطرّزًا بالصّلبان على الصّدر والأكمام ، بدا الصّليب الّذي على الصّدر أقلّ وضوحًا من صاحبَيه ، مُغطّى بثوبٍ من الحرير له فتحةٌ في العنق ويتدلّى حتّى يصل إلى قدَميه ، إذا اقتربْتَ قليلاً من الأسقف وعاينتَ الكتابات الّتي على قماشِ الذّراعَين ، فستجد على الكُمّ الأيمن منقوشًا العبارة : «رَفَعَتْني يَمينُ الربّ وصَنعتْ قُوّتي» ، وعلى الكُمّ الأيسر : «يداكَ جَبَلتاني فَأَفْهِمْني لكي أتعلّم وصاياك» . أمّا وسط الأسقف فكان يلفّه حزامٌ عريضٌ من الكتّان ، وقد تدلّى فوق صدر الأسقف صليبٌ كبيرٌ من الذّهب حتّى كاد أن يُلامسَ الحزام ، وفوق رأسه تمركز التّاج الحليبيّ مُزيّنًا بصليبٍ صغيرٍ في طرفه الأعلى . أصلحَ الأسقفُ من هِندامه وركز يده على عصا الرّعاية الّتي يوقفها بباطن كفّه على مقربة من يمينه ، كانت العصا تنتهي بحيّتَين معدنيّتَين تفترقان بشكلٍ متعامد من رأس العصا . على يمين الأسقف كان أحد مرافقي الوفد يقف مُطرقًا في الأرض ضامًّا يديه على أسفل بطنه وعاقدًا إيّاهُما في هدوء ، وقف هذا المرافق لكي يُترجم الموعظة إلى الإيطاليّة . تنحنح الأب الكهل ، ونظر عميقًا في الوجوه ، ثمّ سال الكلام على شفتَيه : «المُتَعَبّدون لله يَهَبون ذواتهم للرّبّ دونَ مُقابل . ولا يأسَفون على ما بَذلوا من أنفسهم وأجسادهم ، ولا يَلتفتون إلى الوراء . يُمجّدون

المسيح ، ويُواسُونَ قلبه الجريح . ويُكفِّرون بحبِّه عَمَّن لا يُحبّون . لا يَهابون في الدّنيا الوَعْر من الأمور ولا الصَّعْبَ من المَهامّ من أجله . ولا يُسوِّغون لعصيان الرَّبِّ حُجَجًا . حُبُّهم شهادة ، وسَعْيهم عبادة ، ورِزقهم رِفادَة ، ويُعطيهم الرَّبّ فوقَ ذلك زيادَة . إذا حَزَبهم أمرٌ لجؤوا إلى الله فأزال عنهم الضّر ، ودفع عنهم الشّرّ . يعرفون أنّهم ضُعفاء فيَستَقْوون به ، وأنّهم ضالّون فيهتدون إليه ، وأنّهم جائعون فيُطعمهم ، وأنّهم عُراة فيَكسُوهم ، وأنّهم عُصاة فيغفر لهم ، وأنّهم بُغاة فيدلّهم سبيل العدل» .

صمت الأسقف قليلاً فلم يُسمَع لأحد نَأْمة ، كانت العيون كلّها كأنّما شُدّت بخيوط من حبّ فتعلّقتْ به وبكلماته . ظلّوا على هيئتهم التّمثالية قبل أن يسكب عليهم ماء السّؤال الحارّ فيحرّكهم قليلاً : «وماذا يريد منكم الرّبّ مُقابل ذلك؟!» . هبطَ السّؤال على ناصية جباهم الخاشعة فزحزحها ، وعلى تُرْقُوَة قلوبهم فأمالها . سَرَتْ بينهم همهماتٌ في محاولة للإجابة عن سؤال الأب ، لكنّهم عادوا إلى هُمودهم ثانية . تنحنح الواعظ الجليل مرّة أخرى ، ليكفيهم مؤونة الجواب : «أن تُقدّسوا اسمه ، وتستمعوا بقلوبكم إلى كلمته ، وأنْ تنشروا رسالته ؛ رسالة المحبّة والسّلام ، وأن تحضروا آحادَه ، وتؤدّوا صلواته ، وإذا زاركم زائرٌ وقتَ الصلاة فتعتذرون له ولا تعتذرون للربّ ، لأنّ الزائر يأتي في وقت آخر ؛ أمّا نفحة الرّحمة من الربّ فقد لا تأتي إذا لم تعرّضْ نفسَكَ لها في كلّ صلاة» .

انطلق بهم الباص جهةَ الغرب ، عَبَرَ قُرىً متعدّدة تعرف مريم أكثرها ، وطرقًا صعبةً كانت أيضًا قد سلكتْها من قبل ، إلى أنْ توقّف الباص أخيرًا على قمّة جبلٍ بدا لمن يعرف الجغرافيا أنّه أقرب إلى فلسطين من تلك الزّاوية .

«أتعرفون كم روحُ رسولٍ مرّتْ من هنا يا إخوتي ، كم قدّيس عفّرتْ قدماه بتراب هذه الأرض يا أحبّتي . هذه الأرض الّتي أقول لكم عنها ليستْ كأيّ أرض . . . إنّها الأرض الّتي وقف عليها يوحنّا المعمدان ، ووعظَ تلاميذه وبشّر بقدوم المسيح ، وقال لهم أنا الصّوت وهو الكلمة . وسيأتيكم مثل فَلَق الصّبح ، وإنْ أنا فارقتُكم فسيبقى صوتي يدلّ عليه . لا تخونوا ولا تغدروا . ولا تلقَوا بأنبيائكم إلى النّار ، ولا تُسلموهم إلى القتلة ، وكونوا عِباد الله إخوانًا . لا تَظلِمون ولا تُظلمون» .

ثمّ تصمتُ صمتًا عميقًا وتمسح الدّمعات الحرّى الّتي تسيل على خدّيها ، وتتابع : «أتعرفون : لقد مرّ من هنا ، وعلى هذه النّاصية وقف ، وفوق تلك التّلّة أشرف ، وإلى تلك البقاع المُنبسطة في الأسفل نظر ، وفي ذلك الماء تعمّد» . ثمّ تُشير إلى النّهر الّذي كان لحظتَها يتهادَى من بعيد كأنّما قد سمع كلام مريم فطرب له قلبُه ، ورقّ له جَنانه فراح يسيل طروبًا ، مُتهاديًا بين السّهوب والأشجار الثّكلى . أمّا هم فكانوا يلتفّون حولها مثل حَواريّين يلتفّون بنبيّ .

في المساء كان لا بُدّ أن يعودوا إلى «غُصن الزّيتون» وهو فندق القرية الّذي دأبَ على استقبال الحُجّاج القادمين من أوروبّا إلى هذه الدّيار المُقدّسة . أرشدت السّائق إلى الفندق المُهيّأ لاستقبالهم والمبيت فيه . كانت الشّمس تودّع آخر لحظات النّهار ، وهم يدلفون باتّجاه المدخل البلاطيّ الطّويل الّذي يُفضي إلى بوّابة الفندق البيضاء ، على جانبي تلك البّوابة كان غُصنان من الزّيتون بأوراق خُضْر بهيجة ينتشان على العمودَين الحجريَّين المُقامَين لهذا الغرض . استقبلهم (وهيب) بوجهه الضّحوك ، ورحّب بهم مادًّا يديه ليُصافحهم ، ويُشير

إليهم أن يأخذوا مقاعدهم للحظات ، ويتركوا أمتعتهم قبل أن يأتي الخدم ليحملوها إلى الغُرَف المُعَدّة . تقدّمتْ مريم إلى وهيب ، لتقول له :

- هؤلاء ضيوف الرّبّ ، فكُنْ خيرَ نزيلٍ لهم .

التفت إليها فلم يعرفْها في البداية ، نظر فيها شاكًا مُستَطلِعًا ، شعر بأنّه رأى هذا الوجه من قبلُ ، أمّا هي فعرفتْ أنّه وقع في حيرةٍ من أمره ، فأنقذتْه على الفور :

- أنا مريم ؛ مريم الّتي كانت تأتي هنا مع الوفود القادمة من أجل الحجّ إلى المغطس .

ظلّ ساكِتًا ، وحدّقَ فيها من جديد ، وراح يتذكّر . . . لكنّها ساعدتْه من جديد .

- ألم تعرفْني بعدُ يا وهيب ، أنا الفتاة الّتي كانت تسير دائِمًا إلى جانب الأسقف أبرام في مواعظه مع الحُجّاج الّذين يأتون بعد جولتهم السّياحيّة المُقدّسة إلى هنا .

- آآآآه . . . مريم . . . تذكّرتُ . . . نعم تذكّرتُ . . . مرّ زمنٌ طويلٌ على تلك الأيّام . (صمتَ قليلاً وضحك ، ثمّ تابع) : لقد كنت صغيرةً . . . واليوم . . .

- لا بُدّ للهِلال أن يصير بَدْرًا (قاطَعَتْه)

- لقد صِرْتِ شَمْسًا يا مريم لا بدرًا فحسب . لكنْ قولي لي منذ ما يقربُ من خمس سنوات لم أركِ!!

- لقد ذهبتُ لدراسة اللاّهوت ، وعدتُ قبل عامٍ . وهذه أوّل زيارةٍ لي في مرافقة هذا الوفد .

- يااااااه . . . حقًا مرّتْ الأعوام بلمح البرق ، ما أخبارُ الأسقُف أبرام .

- بخير ، تركناه في الكاتدرائيّة صباحَ هذا اليوم .

- وأنتِ؟!

- بخير . . . ها أنذا كما تراني .

- أراكِ قد كبرتِ وصرتِ فاتنةً .

- الفِتنة إنْ لم تكنْ في القلب نجا منها الإنسان .

- اسمحي لي أن أنحني أمام هذا الجَمال الطّاغي يا قدّيستي . (انحنى حتّى عانقتْ رُكبته الأرض . . . أمّا هي فتلفّتتْ مَدهوشةً حولها من هذه الحركة المُباغِتة . نهض ، نظرَ في عينَيها الصّافِيَتين ، وغرق في بحرهما كأنّه سُرِقَ من نفسه) .

تلعثَمَتْ ، وقفت الكلمات في حلقها ، حاولتْ أن تشرح للزّائرين برنامج الغد ، فلم تُجاوز الحروف تُرقَوتَها . أخذها الموقف ، وغلبَتْها رياح الحبّ ، ولفّتْها غمائمُ العاشقين . وقلبُها ؛ شيءٌ ما وَقَر فيه لم تكنْ تعرفه من قبلُ ؛ قلبُها الّذي وهبَتْه للربّ ؛ تزحزح عنه الرّبّ قليلاً لصالح بشريّ بدا أنّه سيسلب عمّا قليلٍ لا قلبَها فحسبُ ؛ بل وعقلها ، بل وكلّ كيانِها .

عادتْ وقد تركتْ جزءاً منها هناك ، سارعتْ إلى الكاتدرائيّة قبل أن تدلُف إلى القرية ، قصدتْ مباشرةً إلى الجزء الغربيّ الخاصّ بالراهبات ، وهبطتْ إليهنّ الدّرج مُسرِعةً ، وقفتْ أخواتُها المُؤمِناتُ مأخوذاتٍ بطريقة دخولها الخاطِفَة ، تفحّصَتْهُنّ بلمح البرق ، ثمّ اندفعتْ من بينهنّ إلى (هيلينا) ، حضَنَتْها بقوّة ، ودفنتْ رأسَها هناك ، ثمّ انفجرتْ بالبُكاء دُفعةً واحِدةً!!

(٦)
إلى البئرِ حيثُ الماءُ الّذي أحيا القلوب

«هنا يا أبي موطنُ آبائك من الشُّهداء . هنا سالتْ دماءُ القدّيسين في سبيل الخلاص . وهنا باركَ الرّبُّ هذه البقعة من الأرض . وهنا سنموت كما قالتْ أُمُّك مريم . لن نغادر هذا التّراب الخالد حتّى لو لم يبقَ هنا سوانا . المحيا هنا والممات هنا . وعلى الرّبِّ أن يقبلنا في حبّه شُهداء كما فعل يسوع وكما فعل من قبله يوحنّا ، وكما سنفعل نحن لو تطلّب الأمر» . قال ذلك وهيب لأثيرته (بتول) . كانت يدُها الصّغيرة تغوص في كفّه المضمومة بحنوّ الأب الشّفوق عليها .

قرفص على الأرض ونظر في عينيها وابتسم : «أنتِ غاليَتي ، لن يستطيع أحدٌ في الأرض أن يحرمني منكِ ، ستظلّين نوري في العتمة ، وسراجي في الظُّلمة» . ثمّ أخذ كفّها الأيمنَ وألصقَ باطنَه بظاهرِ خدِّه وشدّ عليه فتسرّبتْ سيّالات الحُبّ إلى جسده فاقشعرّ ، ثمّ نقل باطنَ كفّها الصّغيرة إلى فمه وقبّله بشغف ، ثمّ أخذ نَفَسًا عميقًا ، أغمضَ عينَيه ، وضمّها إليه من جديد فغاصتْ في صَدْرِه : «أيُّ مَلاكٍ أنتِ» هتف ، «وأيّ رَبٍّ أهداكِ لي!!» أردف .

مَشَيا في الطّريق التّرابيّة المحفوفة بالأشجار ، منبسطة كصفحة ، ملتوية كأفعى ، وظِلال الأشجار تُلقي بالفَيء على التّراب فتخفّف من حرارة الجوّ القائظ ، وتحجب شيئًا من أشعّة الشّمس الحارقة . انحنى .

التقطَ عودًا . قَضَم طرفه . راقَبَتْه الصّغيرة بتعجّب . لم يُمهلها لتسأله سؤالها البريء . قال : ربّما مسّتْه قدمُ المسيح . لكنّها هذه المرّة لم تُمهله هي ، فهتفت :

- مَن المسيح يا أبي؟!
- الرّبّ يا بُنيّتي .
- وما الرّبّ؟!
- الّذي يَهَبُنا الخُبز .
- هل يسكن معنا في القرية؟!
- إنّه يسكن في كلّ مكان ؛ حتّى إنّه يسكن في قلوبنا يا بُنيّتي .
- في قلوبنا!! إذًا هل أستطيع أنْ أراه؟!
- يومًا ما يا صغيرتي . . . يومًا يا يا حبيبتي .
- متى؟! أنا أريد أن أراه الآن .
- لا يا بُنيّتي ؛ ليس الآن ؛ ربّما عندما تَكبرين .

ويُتابعان السّير ، خاطرٌ ما داهَمَه في غمرة مَشْيِهما : «ماذا لو فقدتُها يومًا؟! لا يُمكنني أن أحتمل ذلك ؛ سأُجَنّ ربّما ، أو سأقتل نفسي ، أو . . .» صمتَ خاطرُه برهةً قبل أن يستكمله هامسًا في نفسه : «يا ربّ لا تَفْجَعْني بفقدها مهما كانت حكمتك ؛ دَعْني ألمسْ حكمَتَك في أيّ شيءٍ إلا في فَقْدها . وإذا قرّرتَ ذلك لغايةٍ أو لأخرى فلْتَأْخُذني إليكَ قبل أن أشهدَ ذلك اليوم» . شدّ على يدها حالما أنهى هواجسه المُتشائمة . قطَعَتْ عليه صَمْتَه قائلةً :

- لماذا ليس الآن يا أبي .

وَجَمَ قبل أن يعرف ماذا تقصد من وراء سؤالها ، ثمّ استعاد وعيه :

- لأنّه لا يظهر إلاّ للّذين يسيرون إليه .

- دَعْنا نَسِرْ إليه إذًا .
- ها نحن يا صغيرتي . . . ها نحن نغذّ إليه الخُطا .
- وسنراه؟!
- ربّما .
- وهل هو مثلنا؟!
- نعم .
- الرّبّ مثلَنا!! (هتفتْ متعجّبةً)

ظلّتْ تساؤلاتها الطّفوليّة تشدّه إليها ، شيءٌ ما في هذه الصّغيرة يجعله في كلّ لحظة يزداد بها تعلّقًا . تسلّلتْ كفُّها الصّغيرة من بين أصابعه وهَوَتْ إلى جانبها ، حنتْ ظهرها إلى الوراء قليلاً ، وتعثّرتْ . «تعبتُ يا أبي» . انحنى أمامها ، تناول الماء من الحقيبة الّتي يحملها على ظهره ، سكبَ دفقةً منه في يده ، وراح يمسح به وجهها الّذي بدا عليه الإرهاق ، ثمّ تناول الغطاء الغاطس وملأه بالماء وقرّبه من شفتيها ، وأماله فتلقّفتْه الصّغيرة بعطش ، وشربتْ كُلَّ ما فيه ، أعاد الكرّة مرّة أخرى ، وهتف بها : «آسف يا صغيرتي ، يجب أن نصل إلى قمّة الجبل ، إلى البئر حيثُ الماء الّذي أحيا القلوب ، سنشرب من ذلك الماء» . «أنا متعبةٌ يا أبي ولا أقوى على السّير» . «لا تخافي يا أميرتي ، لن تسيري خُطوةً واحدة ، سأحملك على كَتِفَيّ» . جثا على رُكبَتَيه ، وأحنى عُنُقَه ، وَقَوّسَ ظَهْرَه ، وطلبَ منها أن ترتحله . بشقاوة صغيرة تنتظر هذه اللحظة منذ زمن ، قفزت (بتول) على ظهره ، وزحفتْ حتّى بلغتْ عنقه . نَهَضَ من جُثُوّه ، أمسكَ كَفَّيْها ، وأنزل رجلَيها على صدره ، وراح يمشي بها جذلان ، وهو يصيح بفرح طفوليّ : «مَنْ يشتري . . .؟! مَنْ يشتري . . .؟!» .

استراحا على السّفح . كان شهر آذار ، الشّهر الأكثر ثرثرةً بين الشّهور ، الشّهر الأكرم في الجَمال ، شهرُ الرّبيع يُفصِحُ عن نفسه . حينَ نظرا إلى المسافة المقطوعة من القرية باتّجاه القمّة بدتْ لهم الطّريق جنّةً خضراء وارفة الظّلال . كانت الأرضُ تكتسي بكلّ حُلّة زاهية . مساحاتٌ ممتدّة تلوّنت بالورود البيضاء والحمراء والصّفراء على قاعدة من عشب أخضر ضمّ كلّ بديع من كلّ لون ، لم يكنْ من أحد ليشكَّ بأنّ المشهدَ ما هو إلاّ لوحةٌ فائقةُ الجمال رَسَمَها فنّانٌ في يده ريشةُ محترف . قال لها وهو يُنزلها من فوق كتفيه ، ويحملها بين يديه كقطّة ، ويودعها على الأرض بلُطف : «انتظريني هنا يا أميرتي . . . سأعود بعد قليل . . .» . طافَ في المكان يجمع باقةً من الورود تليقُ بأميرته الصّغيرة ، ضَمّ كلّ ما رآه جميلاً في باقة واحدة ، نسّقها بشكلٍ رائع ، ولفّها بخيطٍ من الكتّان أخذه من حقيبته ، وحملها بين يَدَيه حتّى جاءها ، أخفاها خلف ظهره عندما صار على مقربة منها . هبط على رُكبتيه ووزحف في المسافة القصيرة الّتي تفصلُ بينهما ، وظلّ عاقدًا يديه مع الباقة خلف ظهره ، حتّى إذا صار وجهُه في مقابل وجهها ، وحرّ أنفاسه اللاهثة يلفحُ بَشَرَتها الغضّةَ النّاعمة ، قال لها برجاء وانكسار كبيرَين : «هل تَقبَلين يا حبيبتي الهديّة الّتي سأقدّمها لكِ؟!» . «نعم» . «إذًا ها أنذا أقدّم لكِ هذه الباقة من الورود تعبيرًا عن حبّي الّذي لا ينتهي» . «شكرًا» . «ولكنْ هل تحبّينني؟!» . «نعم» . «كم تحبّينني؟!» . «بمقدار الأحلام الّتي تحلم بها أمّي» . فَاجَأَه الجواب . ضحكَ بشدّة ، وأرجع ظهره إلى الوراء لفرط سعادته ، استعاد هدوءه النّسبيّ ومدّ يديه بالباقة إليها : «تفضّلي يا أحلى بتول» . «شكرًا يا أحلى أب» .

تابَعا سَيرَهما صُعوداً باتّجاه قمّة الجبل . «أنا جائعةٌ يا أبي» «سنأكل هناك يا بُنَيّتي» . «ومَنْ سيُطعمنا؟!» . «مَعَنا خُبزٌ وجبنة وماء» . كانت الشّمسُ قد اقتربتْ من منتصف السّماء . والطّيور الّتي دأبتْ على أن تخفقَ بجناحَيها بين فترة وأخرى مُصدِرةً أصواتًا متعدّدة على جنبات الطّريق وهي تطير من بين أغصانِ شجرةِ عجوز كانت قد كفّتْ عن ذلك حينَ صارا على مقربة من القمّة . تظاهرتْ بالتّعب من جديد . قوّستْ ظهرها كالمعتاد وأسبلتْ ذراعيها على جانبيها ، وهتفتْ بصوتٍ مَمطوط ، تعرف ماذا يعني عند سامعه : «أبي . . . أبيييي» . نظر إليها ، وعرف ما تريد ، ابتسم ثمّ غمَزَها : «حاضِرْ أيّتها المُخادعة» . استقرّتْ فوق عنقه من جديد ، وراح يسير بهمّة إلى القمّة وهو يُغنّي .

وَصلا أخيرًا إلى المكان الأحبّ إلى قلب الأب . «هيّا يا بُنيّتي ؛ لنسترحْ قليلاً» قال لها ذلك وهي تنزل من بين كتفيه برجليها على الأرض . كانت القمّة الّتي تعلو هذا الجبل هي واحدةٌ من القمم الّتي تتربّع فوقَ سلسلة شبه دائريّة من الجبال الّتي تنتهي كلّها إلى وادٍ واحد غامض يُدعَى : «وادي الشّهداء» . يُقال إنّ (أريديسيوس) ارتكبَ مذبحةً بحقّ القِدّيسين الّذين كانوا يُلقون المواعظ ويُطالبون النّاس بتطهير أنفسهم ، وبتحريرها من العبوديّة للآخرين . وظنّ أنّ دعوة هؤلاء القِدّيسين إنّما هي تحريضٌ ضدّ مملكته ؛ فأمر بإلقاء القبض عليهم ، وكانوا يزيدون عن المئة ، وارتكب في حقّهم مذبحةً شنعاء ؛ إذْ أمرَ بنصفهم أنْ يعمل المنشار في أجسادهم من أعلى الرأس في منتصفه نازلاً إلى الأسفل فَيَقسمها إلى نصفَين ، وأمر بالجُزء الآخر أن تُقطَعَ رؤوسهم بالمِقصلة ؛ إذ تُوضَع أعناقهم على النّطع وتهوي بَلْطَة عِملاقةٌ حادّة من أعلى على أعناقهم لِتَحُزَّها ؛ فيتدحرج الرأسُ بعيدًا

عن الجسد ، وأمر (أريديسيوس) بعد ذلك بالرّؤوس وبالجُثث أن تُلقى في «وادي الذّئاب» ، الّذي صار اسمه فيما بعدُ «وادي الشّهداء» تكريمًا لهم .

قمّة جبل البئر تقع في القسم الشرقيّ من هذه الجِبال ، وفي مقابلها في الجزء الغربيّ كانت قمّة الجبل الّذي تتربّع فوقه الكاتدرائيّة التاريخيّة الّتي ظلّتْ مدار اهتمام الآباء الفاتيكانيّين منذ نشأتها قبل قرون سحيقة . قال الأب لابنته وهو يشير إلى الجهة الغربيّة : «انظري ؛ إنّه بيتُ الرّبّ ؛ ما رأيك؟!» . «إنّه جميل . هل يُمكننا زيارته؟!» . «بالطّبع يا أبتي . سنقوم بذلك من الآن فصاعدًا في صباحات الآحاد» . «حقًّا يا أبي؟!» . «حقًّا . والآن انظري إلى الجهة الأخرى . أريدك أن تُغمضي عينيك وتقولي لي ماذا تُشاهدين» . «أمم . . . أنا أشاهدُ الرّبّ يا أبي» . «الربّ؟!!! كيفَ تُشاهدينه يا صغيرتي» . «حمامةً يا أبي» . «الأب طار من بيته . . .!! لا . . . لا . . .» . ويضحك مسترسلاً . «لِمَ تضحك يا أبي؟! الرّبّ له جناحان . أنا أراه يا أبي» . «افتحي عينيك يا صغيرتي . يكفي هذا» . حملها وقرصَها على خدّها : «الرّبّ ليس له أجنحة . والآن دَعينا نتناول بعضَ الطّعام ، فقد متنا من الجوع!!» .

أعدّ لها مائدةَ الطّعام . بسطَ قِطعةً من القماش ، ونضّد فوقَها الجُبنَ والخبز ، ثمّ قام يبحثُ عن بعضِ الحشائش الصّالحة للأكل فوجد الخُبّيزة ، جمعَ بين يديها بعضَها ، وذهبَ بها إلى البئر ؛ البئر الّتي شهدت الكثير من الأحداث ، وستشهد المزيد منها في المستقبل . أنزل الدّلو ؛ هوى حتّى ارتطم بالقاع مُصدِرًا صوتًا تردّد صداه في أذنيه عاليًا ، رفع الدّلو حتّى استقرّ على فوّهة البئر ، أدناها من فمه وراح يعبّ

الماء عَذبًا زُلالاً قبل أن يَرُشَّ ما تبقّى منها على حشائش الخُبّيزة ، عاد بهذه الحشائش إلى بتول الّتي تنتظره ، وضعها على البساط ، وقام من جديد : «انتظريني قليلاً ؛ سآتي بماء البئر بدلاً من هذا الماء الّذي في المطَرة ؛ ماء البئر أعذب» .

أكلا ، وهما يتبادلان الحديث والضّحك ، قال لها الأب : «بماذا تحلمين عندما تكبرين؟!» . «أن أكون مثلكَ يا أبي» . «كيف؟!» «أحبَّ ابنتي» . ثمّ يضحكان . قامَ الأبُ فجمع رُزمةً من الحطب اليابس ، صنَع دائرةً من الحجارة ، وألقى كومة الحطب فيها ، دسَّ بعض الورق ، وسكبَ بعضَ الكحول عليه ، ثمّ أوقد فيه النّار ، فشبّتْ عاليةً في البداية ، ثمّ خفتتْ ببطء ، لكنّها سرعانَ ما راحتْ تتغذّى على الحطب اليابس الّذي راح يطرطق وهو يتهاوى تحت شَرَهِها المُتواصل ، ملأ الإبريق المَعدني بماء البئر ، ووضع أطرافه على بعض الحجارة فَهَوى ، أقامه وعدّل فكرته ؛ مدّ عُنُقَ عصًا طويلة من تحت يد الإبريق ، وركز طرفَي العصا على جهتَين متقابلَتَين من الحجارة فأصبح الإبريق مُعلّقًا كذبيحة ، ومن تحته راحتْ ألسنة اللّهب تنهشُ بطنه ، وتُغلي ما فيه . سكبَ فيه فنجانًا من السُّكّر ، وانتظر قليلاً حتّى غلا الماء ، فوضع الشّاي فوقه ، وفي غضون دقائق كان شاي الحطب قد صار جاهزًا . رفع الإبريق عن النّار وقرّبه إليْه وشمّ رائحته عن بُعد ، وهتف : «كأسٌ واحدةٌ من شاي الحطب على قمّة هذا الجبل تعدل كلّ نبيذ الدُّنيا» . ملأ كأسين منه ، وركزَ أحدَهما أمام بتول : «انتظري قليلاً يا حبيبتي حتّى يبرد ، وستشربين شايًا ألذّ من ذلك الّذي تصنعه أمّك» وضحك .

استلقيا تحت ظلّ شجرةٍ مُعمَّرة . كانت الأشجار هناك أقلّ من

الأشجار المنتشرة في السّفوح ، لكنّها أطول عمرًا من أخواتها . استلقتْ إلى جانبه في الظّلّ وراحا يتحدّثان ويضحكان . في غمرة تَأمُّله ، نفذ بصره من خلال أغصان الشّجرة فخطرتْ له فكرة .

قامَ يبحثُ في حقيبته عن حبلٍ من اللّيف متين . وجده . ذهب إلى الشّجرة أزال عن أغصانها بعضَ الشّوائب ، وربطَ طرفَي الحبل إلى غصنين قويّيْنْ ، أحكم شدّ العُقدة عند كلّ طرف . أمسكَ بالبساط ، طواه بشكلٍ مريح لكي يصلح مقعدًا للصّغيرة . ثبّته في أسفل التفافة الحبل المتدلّي ، وهيأه لحبيبته . ناداها بعد أن انتهى : «تعالَي . . . لقد صنعتُ لكِ أرجوحة» . نهضتْ نشيطةً من مكانها ، وركضتْ باتّجاهه . التقفها بين يديه ، وطاف بها عدّة دورات قبل أن يضُمّها ، ويهتف : «ستطيرين الآن في الفضاء» . وضعها على الأرجوحة ، وثبّتَ يديها على طرفَي الحبل النّازلَين من الأعلى ، ودفعها من الخلف ، فراحتْ تتأرجح في الهواء ، وهو يراقبها ، وكلّما وصلتْ إليه دفعها من جديد وهو يضحك كطفل!! أمّا هي فلم تكفّ عن الصّياح ابتهاجًا .

(٧)
الحبُّ إرادةُ اللهِ الّتي لا تُرَدّ

صارتْ تلتقيه ؛ في البداية كلّما وفدتْ مجموعةٌ جديدةٌ من الحُجّاج ؛ قادمة من أوروبّا أو من الصّين ، اختلفت المشارق والمغارب واتّفقتْ على الجغرافيا الّتي هنا لأنّها مُقدّسة . ثمّ بعد ذلك صار لكلّ لقاءٍ سببٌ ؛ سببٌ طبيعيٌّ أو مُصطنع . المهمّ أن يلتقيا .

لا أحدَ يعرف ماذا يحدث حينَ يهبط طائر الحُبّ على القلب . شيءٌ لا يُفسَّر . كلّ نظريّات العلم ، وكلّ أفكار الفلسفة لا تجد لهذه الحالة تفسيرًا . فقط تكتفي بأنْ تقول : هذا ما أراده الله . هذا ما قَسَمَه . أو هذا ما فَرَضَتْه الطّبيعة . وعلينا أن نرضى . لكنّ أحدًا لا يسأل : لماذا قَسَمَه بيننا نحن دون غيرنا؟! لماذا الآن؟! لماذا يأتي فجأة دون مُقدّمات؟! لماذا يهبط دون استئذان؟! وهل من المعقول أن تُوقظ طائرَهُ نظرةٌ واحدةٌ ؛ لمسةٌ واحدة ؛ همسةٌ واحدة ؛ كلمةٌ واحدة!! أيّ عجيب هذا الّذي ينهض في الوجدان لقاء موقف عابرٍ قد لا يكون يعني شيئًا البتّة لولا أنّ الله أراد . أفيكون الحبّ إرادة الله الّتي لا تُردّ؟! أفيكون قضاؤه الّذي لا يملك الإنسان منه مفراً ، ولا عنه مهربًا؟! ما أنتَ أيّها الحبّ؟! لقد حيّرتَ العقول ، وأذهلْتَ النّفوس؟! وهل الحبّ مُحتاجٌ إلى عقل ليجد له تفسيرًا!!! إنّه لا يحتاج إلى أكثر من قلب ليعذّبه تعذيبًا . توقّف قليلاً أيّها الحبّ : هل جئتَ للمحبّين بالعذاب ،

إذا فلمَ يأنسُ المُحِبُّ بك؟! ولِمَ يتمنّى أن يظلّ طائرك حاطًا على القلب لا يفارقه في صحو ولا منام ، ولا في ليلٍ ولا نهار؟! لِمَ تُعذّب وتظلّ مذنبًا؟! لِمَ تقتل وتظلّ مطلوبًا؟! لِمَ تجعلنا نسير مشدوهين مذهولين عن أنفسنا ونظلّ نهفو إليك ونتوق لأن تُلازِمَنا؟!!!

شبّ (وائل) في أحضان (هيلينا) ؛ أرضعتْهُ عامًا كاملاً قبل أن يذهب ما في صدرها ، وتواصل هي إرضاعه حليبًا صناعيًا ، وإطعامه ما يُمكن لطفلٍ في عمره أن يأكل . لكنّه ملك على هيلينا كلّ حياتها ، وصارتْ لا تتخيّل الحياةَ بدونه ، إذا نامتْ نام إلى جانبها ، وإذا استيقظتْ ظلّ في حضنها ، وإذا تلتِ الصّلوات وقفَ - إذا استطاع الوقوف - إلى جانبها يقلّدها فيما تفعل . وإذا لم يستطع الوقوف اضطجع إلى جانبِها ريثما تُتِمّ صَلاتَها .

لم تتركْ شيئًا يُمكن أن يُدخِلَ السّعادة إلى قلبه إلاّ وفعَلَتْه ؛ طلبت من الأسقف أن يأتيها بألعاب الأطفال من إيطاليا ، كلّ ما توصّلتْ إليه آلة الاختراع في ذلك البلد الأوروبّي جاءها مشحونًا في الطّائرة ووصل إلى هنا من أجل عينَي هذا المحبوب الّذي أولعَ به قلب (هيلينا) حتّى أصبح لها ابنًا حقيقيًا ، وأصبحتْ له أمًّا حقيقيّة . سألت الأسقف أبرام ذات مرّة :

- ألا يُمكن أن يُنسَبَ إليّ ، ويُسجّل في سِجِلاّت الميلاد في الدّولة ابنًا لي؟!

- لا يا أُخيّتي .

- ولِمَ أيّها الأب؟!

- لأنّه ليس ابنَكِ وهو دون أبٍ!!

- ولكنّ المسيح كان دونَ أبٍ ؛ أفلا يُمكن أن أكون له مريم ، ولكنْ مريم حقيقيّة لا بالتّبنّي؟!

- لا . . . لا . . .!!! (ويقول الأب ذلك بتأفّف مُنهِيًا هذا الحوار القصير) .

صعدتْ به الدّرجات من مقرّها هي وبقيّة الرّاهبات إلى السّطح ، كم مرّة صعدتْ به من هنا!! مئات المرّات لكي تجلس إلى ساحة النّافورة ، وتُمتّع ناظِرَيها به تحت أشعّة شمس الضُّحى ، وبين أشجار السّنديان العتيقة ، وعند خرير الماء المتدفّق كقدرٍ محتوم . هذه المرّة صار يمشي . انفجعتْ به وهي تُعلّمه المشي ، تهادَى في الخُطوتَين الأولَيَين وسقط في الثّالثة فسقطَ معها قلبُها . هوتْ عليه تحتضنه وتقبّله وتشمُّه ، وهي تلوم نفسها على أن تركتْه ولو لبِضع ثوان . بعد أيّام قلائل كان يمشي بشكلٍ مُريح . وصارتْ هي من بعدُ تتنزّه معه في الحديقة . صار رفيقًا حبيبًا لها .

صاحتْ بها مريم من بعيد : «هيلينا» . كانت في الطّرف الآخر من الحديقة . حينَ رأتْها حملتْ (وائل) بين يدَيها وهُرعت إلى رفيقتها . جلستَا على المقعد الّذي تقاسَمَتا الجُلوسَ عليه لسنوات :

- أجرّبْت الحُبّ؟! (تسأل مريم)

- بكلّ أطيافه . (تُجيبُها هيلينا)

- حقًّا؟! ومَنْ هو المحبوب الّذي ملأ عليكِ الطّيفَ كلّه؟!

- إنّه هنا ، معنا . (وتُشير إلى وائل) لا أتخيّل حياتي بدونه .

- أنا لم أقصدْ هذا النّوع يا عزيزتي . أنا أقصد الحبّ الّذي يحرّك القلب نحو الرّجل .

- ليسَ تمامًا . تعرفين نحن هنا محرومات من الرّجال إلاّ من الأسقف ومساعده وزئيف . (تستدرك) وهؤلاء لهم قلوبٌ أيضًا . لكنّهم لا يفتؤون من ترداد أنّهم وهبوا أنفسهم لخِدمة الرّبّ . وأنت ؛ أعرف أنّ

العشق قد زارك؟! (تسألها) .

- زارَني؟! لقد أصابني في الصّميم يا أُخَيَّتي . ولولا أنّني أخاف أن أجاوز الحدّ لقلتُ إنّه ذبحني من الوريد إلى الوريد .

- يا سلاااام . . . ومَنْ هو هذا المحظوظ؟!

- إنّه وهيب يا أختاه .

- وهيب!!! مَنْ وهيب هذا . . . أهو من رعايا الكنيسة؟!

- لا يا أخيّتي ؛ إنّه مالك الفُندق مع أخيه رُشدي . الفندق الّذي يأوي إليه الحُجّاج القادمون من خارج البلد .

- عجبًا؟! وهو ؛ هل وقع في قلبه الّذي وقع في قلبك .

- بلى يا أخيّتي؟!

- ولكنْ كيفَ ستعيشين حياةَ مُلاّك الفنادق!! هؤلاء المُشتَغلون بالدّنيا هم أبعدُ ما يكونون عن الرّبّ .

- لقد اشترطتُ عليه أنْ يتركَ حياته السّابقة ويعيشَ حياتي أنا إذا أراد أن يقترنَ بي .

- وهل وافق؟!

- بلى . وهذا ما حيّرني أكثر ، وزادني منه قربًا . لقد أقسمَ أن يترك الدُّنيا ، وكنوز قارون إنْ كان يملك كنوز قارون من أجل أن يعيشَ معي تحت سقف واحد .

- ومصالحه التّجاريّة؟!

- قال إنّه سيعهد بها إلى أخيه رُشدي ، وتأتيه حُصّته من الرّبح ، ونعيش بها معًا . على أن يتفرّغ معي لعبادة الرّبّ .

- وأنت . . . هل قبلْتِ بذلك؟!

تناهتْ إلى سَمْعِهِما ألحانٌ قادمةٌ من النّوافذ المُلوّنة المُحيطة

بجدران قاعة المواعظ القريبة منهما . كانت الرّاهبات يتدرّبنَ على تلاوة بعض الأناشيد الّتي سيصدَحْنَ بها في العيد . قطَعَ النّشيد عليهما حوارهما ، وراحا يُصغيان إلى الكلمات المنسابة من بين الأفواه الطّروبة الشّغوفة :

«لِيَتَحَنَّنِ اللهُ عَلَيْنا وَلْيُباركْنا . لِيُنِرْ بِوَجْهِه عَلَيْنا .
لِكَيْ يُعرَفَ في الأرضِ طَرِيقُكَ ، وَفي كُلِّ الأُمَمِ خَلاصُكَ .
يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ يا الله . يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ كُلُّهُمْ .
تَفْرَحُ وَتَبْتَهِجُ الأُمَمُ لأنكَ تَدِيْنُ الشُّعُوبَ بِالاسْتِقامَةِ ، وَأُمَمُ الأَرْضِ تَهْدِيْهِمْ .
يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ يا الله . يَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ كُلُّهُمْ .
الأرضُ أَعْطَتْ غَلَّتَها . يُباركُنا اللهُ إلهُنا .
يُباركنا الله ، وتَخْشاهُ كُلُّ أَقاصي الأرض» .

رَدَدَتا مع الجوقة : «لِيَتَحَنَّنِ اللهُ عَلَيْنا وَلْيُبارِكْنا» . ظلّتْ كُلُّ واحدة تُردّد المزمور وفي بال كلِّ واحدة حبيبٌ مُختلف . اتّفقت المقاصد واختلف المقصود . هيَ تطلبُ من الله الحَنان لكي يُقرّب إليها (وهيب) ويهديه إلى سبيل الرّبِّ . وهي تطلبُ هذا الحنان من الله لكي لا يُبعدها عن ابنها (وائل) الّذي لو كان حقًّا من أحشائها لَمَا أحبّتْهُ على هذا النّحو الجُنونيّ .

كم من المرّات جَلَستا على المقعد ذاته تَبُثُّ كلّ واحدة همّها للأخرى . «الأسرار أشواكٌ في الصّدر ، لا تنزعها إلاّ الكلمةُ الطّيّبة تسمعها من وَفيّ ، أو مسامرةٌ تخلو بها إلى رفيق ، أو مناجاةٌ تُفضي بها إلى مَنْ يُقدّر ويحفظُ الغَيْبة» . هكذا كانتا تتبادلان الأدوار . كلّ واحدة تنزع شوكَ الأخرى مِمّا تجد من الوَجد ، ومِمّا تُلاقي مِنَ العشق .

وكانتْ تعرف أنّها إذ تفعل ذلك فإنّما تفعله لكي ترتاح ؛ ترتاح من تلك القَطاة الّتي تتقافَزَ بين ضُلوعها ولا تترك لها فرصةً لهدأة البال .

سأزوركَ للمرّة الأخيرة يا (وهيب) قبل أن يجمعنا الرّباط المُقدّس الذي سيظلّ ملاكَنا الحارس إنْ عَصَفتْ بنا الأيّام ، وداهَمتْنا أزمنة الجدْب ، سأزوركَ لا لكَي أقول لكَ كم أحبّك ، بل لأقول لكَ إنّ الدّرب الّتي سنمشيها معًا ليستْ سهلةً أبدًا ، وإنّها إنْ لم تُعبَّد بالصّبر والابتهال فستكون شوكًا وصديدًا ومُرًّا وعلقمًا ؛ فهل أنتَ مُستعدٌّ لكي تتقبّل وعورة الحياة ، وتسيرها معي بالحبّ كما أفعل ، ونحن؟! نحن الّذين سنحوّل وَعْرها إلى سهلٍ منشرح ، وشوكها إلى وردٍ متفتّح ، ونارها إلى ظلٍّ ظليل . . . فهل أنتَ مستعدّ يا وهيب؟! هل أنتَ مُستعدّ؟!

(٨)

قد أكونُ خَسِرتُ مالي؛ ولكنّني رَبحتُ قلبي

لم تفرحْ هيلينا بعد فرحها بوائل أكثر من ذلك اليوم . يوم الزّفاف . لقد بدا أنّها هي الّتي تُزَفّ لا مريم . بعضُ الأرواح تتآلف حتى لا تعود الرّوح تعرف أختـهـا إنْ كـانت هِيَ أم سِواها . هكذا استـيـقظتْ في الصّباح الباكر وأيقظتْ أخواتها الرّاهبات ورُحْنَ يُعددْنَ العُدّة : «اليوم ستغنّي الطّيور في الآفاق ، وستشغو الشّياه في الجبال ، وستُزهِر الورود في الحـقـول ، وسـتـمـدّ الأشـجـار أغـصـانها إلى الأعلى بطربٍ وزهو . وأنتنّ!! مـا زلتُنّ نائمـات إلى هذا الوقت؟!! يا لَلربّ كـيـفَ ينظر إليكُنّ الآن وأختُكنّ تحتاج المُساعدة وأنتنّ غارقاتٌ في النّوم . النّوم الّذي ألقاه الشّيطان على عيونكنّ في اللّيل ؛ اللّيل الّذي لا يُريد له أن يطلع حتّى لا تفرَحْنَ لفرح أختكنّ الكُبرَى» .

هتفتْ بهنّ صارخةً : «أَفقْنَ أيّتها الكَسُولات . أفقْنَ واعْمَلْنَ شيئًا يُرضي الرّبّ . لن يفرح الرّبّ حين تترك الأُختُ أختَها لمصيرها . أَفِقْنَ فاليوم عيدٌ جديدٌ لنا!!» .

نَهَضْنَ فَزِعات على صوتِ هيلينا ، فَرَكْنَ أعينهنّ من أثر النُّعاس الطّويل . ثمّ وَقَفْنَ كجُنديّات ينتظِرْنَ الأوامر . أوكلتْ لكلّ واحدة منهنّ مَهمّة عليها أن تقوم بها خيرَ قِيام . هناك مَنْ جَهّزَتْ فُستان الزّفاف ورشّتْه بعطر الوَرد الممزوج بالماء المُقدّس . ومَنْ أعدّتْ الأمشاط والعُقود والمرايا وكرسيّ التّزيين . ومَنْ جَهّزت الأكاليل ورصّعتْ التّاج بالجواهر والحليّ . ومَـنْ رتّبـت المسـاحيق وأدوات التّـجـمـيل . ومَنْ وقـفتْ لتلقي النّظرة الأخيرة على العَروس الّتي أصبحتْ جاهزةً كـأجمل ما يكون .

وقفَ الأسقف ينظر إلى هذه السّمراء اليتيمة الّتي جاءتهم صبيّة في الرّابعة عشرة وها هي في أواسط العشرينيّات تبدو قمرًا بهيًا لا يملك الإنسان إلاّ أن ينحني أمـام ضِيـائه . ثمّ ها هو يُحوّل نظره إلى (وهيب) هذا الأربعـينيّ الغنيّ الّذي تركَ أمواله من أجل عـينَي هذه اليتيمة ، وغامَرَ بكلّ شيء لكي يفوز برضاها ، لقد قال له ذات مرّة : «قد أكون خسرتُ مالي أو بعضه ؛ ولكنّني ربحتُ قلبي ، وما من عاقلٍ يبيع قلبه ولو بكلّ أموال الكون» . فيبتسم الأسقف في وجهه ويجيب : «هي مالُك فحاول ألاّ تخسره مهما كانت الصّفقات حولك مُغريةً ومشبوهة» . فيردّ : «لا تَخَفْ يا أبي . ما استقرّ هنا (ويشير إلى قلبه) لا يمكن أن ينزعه أيّ كائن إلاّ بقدرة الله» . ثمّ يبتسمان ؛ الأب ابتسامة الإعجاب ، وهو ابتسامة الرّضى .

توافَـدَ المدعـوّون من أهل القـرية ، ومن وجـهـائهـا ، ومن القُـرى المجاورة ، والمعارف والأصدقاء من المدينة ، وحضر كلّ رهبان الكنيسة الّتي تعلّمت فيـها مريم اللاّهوت . واتّخـذ الحضور مواقعهم في تنظيم وترتيب ، وكلّهم شَغَفٌ في انتظار إتمام طقوس الزّواج المُقدّس .

وقف الأسقف وسطًا بين مريم ووهيب . وتهيّأ الجميع ليشهدوا حكايةَ حبٍّ عميق تنتهي بالزّواج ؛ قلّما يحدث هذا . لكنّه حدث . حدث لأنّ الله أراد ذلك . صمتَ الحضور بعد أن اكتمل عددُهم .

- لقد تقدّمْتَ أيّها الابنُ المبارك (وهيب) وحضرتَ لتقترنَ بـ

(مريم) بموجب السّنّة المسيحيّة ؛ فهل تريد أن تتّخذها زوجةً لكَ بزواجٍ شرعيٍّ ثابت ، غير قابلٍ للانفكاك من دون جبرٍ ولا إكراه وبرضاكَ التّامّ؟! (سأل الأسقف) .

– نعم . (أجاب وهيب)

– لقد تقدّمْتِ أيّتها الابنة المُباركة (مريم) وحضرتِ إلى هنا لتتّخذي (وهيب) زوجًا لك ؛ فهل تقبلين به زوجًا بموجب قوانين الكنيسة زواجًا غير قابلٍ للحلّ ولا للانفكاك؟!

– نعم . (أجابتْ مريم) .

– إذًا ؛ يشهد اللهُ عليكما ويُباركُكما ، ولْيسكبْ عليكما غزير إنعاماته الإلهيّة وأفضاله الرّبّانيّة ، ويُكثّرْ نسلكما ، ويُنجّحْ أموركما ، ويجعلْ هذا الاقتران واسطةً لخَلاصكما ، ويربطكما بوثائق المحبّة مدّةَ حياتكما بشفاعة العذراء وجميع القدّيسين . آمين .

فهتفَ جميعُ الحاضرين : (آمين . . . آمين) حتّى ارتجّت القاعة لهذا التّأمين . ثمّ أمرهم المُساعِد أن يَقفوا ليتلوا خلف الأسقف صلاةَ المُباركة . وقفوا في مشهدٍ مهيب ، وراحوا يردّدون خلف (أبرام) :

– أيّها المسيح السّماويّ باركْ هذين العَروسَين ، واجعلْهما راضيَيْن مرضيَّيْن ، وألهمهما إلى التّطويبات الهنيّة الّتي وَعَدْتَ بها مُحبّيكَ في إنجيلك ، وفرّحْهما في شَركة المحبّة كما فرّحْتَ الأبرار الّذين أرْضَوك ، واسكُبْ عليهما فيضَ بركتك ، واحفظهما بالعناية الإلهيّة .

كانت القاعة ترتجّ بين كلّ دعوة وأخرى ، بقول : (آمين) يرفع بها الحُضور أصواتهم . ثمّ أشار الأسقُف إلى هذا الحُضور بالجُلوس ، وكذلك للعَروسَين ؛ حيثُ لفّ كلٌّ منهما ذراعه بذراع الآخر ، ونزلا من عند المَذبَح ليجلسا في الصّفّ الأوّل من المقاعد . ثمّ بدأ الأسقف بتلاوة

وصاياه للعَروسَين ، ولكلّ مَنْ هو مُقبلٌ على الزّواج : «يا إخوة ؛ ليخضعْ بعضُكم لبعض بحبّ المسيح ؛ أيّتها النّساء اخضَعْنَ لأزواجكنّ كما لربّنا ؛ لأنّ الرّجل هو رأس المرأة كما أنّ المسيح هو رأس الكنيسة ؛ فكما أنّ الكنيسة تخضع للمسيح ، كذلك تخضع النّساء لرجالهنّ في كلّ شيء . أيّها الرّجال : أحبّوا نساءكم كما أحبَّ المسيحُ الكنيسة وبذل نفسه لأجلها ؛ ليُقدّسها ويُطهّرها بغُسْلِ الماء وبالكلمة ، ويُقيمها لنفسه لا دَنس فيها ولا غَضَن . أيّها الرّجال أحبّوا نساءكم كحُبّكم لأجسادكم ؛ فإنّ مَنْ يُحبّ امرأته يُحبّ نفسه ؛ إذ ليسَ أحدٌ يُبغضُ جسده قطّ ؛ بل يُقيتُه ويَعتني به ، ولا يتركه أبدًا» .

شيّعهما إلى بيت الزّوجيّة موكبٌ مَهيب من السّيّارت والخُيول ، مشتْ كوكبةٌ من الخيول المُطهّمة في المقدّمة ، وتلتْها قافلةٌ من السّيّارات المكشوفة خصّصها المجلس الأعلى لهذه المناسبة الثّمينة الغالية ، ثمّ جاءتْ كوكبةٌ أخرى من الخُيول المُهمْلجة في المؤخّرة ، وكانت القينات تصدح ، والمعازف تغنّي طَوال الطّريق ، وظلّ الموكب يتهادى في الطّريق الصّعبة حتّى ولجَ العَروسان إلى مخدعهما ، وبدأ حياةً جديدة .

هل يُمكن للشّمس والقمر أن يضمّها بيتٌ واحد غير السّماء!! هل يُمكن للورود أن تظلّ مزهرةً طوال أيّام السّنة كأنّ فصولها تحوّلتْ إلى فصلٍ واحدٍ هو الرّبيع!! هل يُمكن للرّوح ألاّ تعطش أبدًا كأنّما النّبع في القلب يروي الرّوح الظّمأى في كلّ حين!! نعم لم يكنْ هناك تعريفٌ للسّعادة أدقّ وأجمل وأوضح من هذا الّذي كان عليه (وهيب) و(مريم) . لكنْ منَ المستحيل أن يظلّ النّهرُ جاريًا في طريقٍ مستقيمة حتّى لو أراد ، إنّه سيضطرّ رغمًا عنه إلى أن يُحوّل مجراه ليتفادى الصّخور ،

والحصى ، وبعض المُعيقات ، إنّ اعوجاجه الظّاهريّ هو سرّ استمراره الخفيّ!!

***

في مساءِ يوم خريفيّ ، من عام رماديّ ، كانت الأوراق تتساقط على أرض الكنيسة ، وتأتيها بعضُ الرّياح فتدور بها في السّاحة كأنّما تَشغَلها عن نفسها بالذّوبان والامّحاء . في ذلك المساء نزل (دانيال) الدّرج المؤدّي إلى مهاجع الرّاهبات ، نادى على (هيلينا) فخرجتْ إليه . صعد معها إلى السّطح ، وفي ظلال الرّياح العاصفة ، قال لها :

– لقد كَبُر الولد ، وصار لزامًا علينا أن نبعث به إلى أسرة لتُعيله .

– مَنْ تقصد؟! (قالتْ ذلك والكلمات تخرج مرتجفةً من بين شفتيها المُرتعشتَين)

– وائل ؛ أقصد وائل .

– مستحيل . . . هذا ابني ولن أسلّمه لأحد .

– ستُسلّمينه ؛ هذه مشيئة الرّبّ .

– الرّبّ لا يُفرّق بين الأم وابنها .

– سيذهب إلى أمّ أخرى .

– أمّ أُخرى؟!!!! مَنْ تكون . . . قُلْ لي مَنْ تكون؟!

– سنبعث به إلى مريم ؛ فهي قادرةٌ على أنْ تتولاّه هيَ وزوجُها .

– مريم؟! واحَسرَتاه ؛ هل تحوّلتْ إلى لِصّة هي الأخرى تريد أن تسرق منّي ابني ؛ هذه الخائنة ، أنا الّتي وقفتُ إلى جانبها في زفافها ، تريد الآن أن تسلب منّي أعزّ ما في الوُجود على قلبي؟!! لا . . . لا . . . لن يكون . . . أُقسم بالرّبّ أنّ هذا لن يكون!!

– أنتِ بهذا تَعصين أمر الأسقف .

– لتذهبْ أنتَ والأسقف إلى الجحيم . لن أسلّمه للرّبّ حتّى لو جاء الرّبّ بنفسه إلى هنا!!

تركها ومضى . وهو يتوعّد ويُرغي ويُزبد . في اللّيل بعد أن هجع الجميع تأكّدتْ من أنّ (وائل) قد رُبطَتْ يده إلى يدها ، وقصّرتْ قطعة القماش الّتي تصل بينهما لتَشعُرَ بأيّة حركةٍ ولو كانت خفيفةً إنْ داهمها النّعاس وغَلَبها النّوم . نظرتْ في عينيه وهتفتْ بصوت دامس لكنّه حادّ : «أيقظني إنْ رأيتَ أيّ حركة يا حبيبي . يريدون أن يسرقوكَ منّي ؛ إيّاكَ أن تسمحَ لهم بذلك . سنعيشُ معًا وسنموت معًا . ولن نسمح لأيٍّ كان أنْ يقطع الرّباط القَدَريّ الّذي أوثقنا الله به» . قبّلتْهُ وضمّتْه إلى صدرها دون أن تُفلته ؛ كأنّما تريد أن يدخل إلى أحشائها فلا يخرج من هناك أبدًا ؛ كانت تريد أن تُذيبَه في ضُلوعها ، وتُغلق عليه تلك الضّلوع فيعيشان معًا كما لو كانا جسدًا واحدًا وروحًا واحدة!!

في الصّباح وُجِدَتْ جُثّة (هيلينا) تتدلّى من تحت العمود الّذي يرتكز على حافّة النّافورة ؛ النّافورة الّتي طالمًا جلستْ عندها هي ومريم . قيل إنّها انتحرتْ عندما استيقظتْ فوجدتْ حبيبها قد اختفى ، والحبل الّذي يربطها به قد قُصّ . سَرَتْ شائعات كثيرةٌ منذ ذلك الصّباح ، قالتْ إحداهنّ : «إلى جهنّم ؛ الرّبّ لا يقبل المُعترضين على مشيئته» . وقالتْ أخرى : «مسكينة لقد فقدتْ عقلها حينَ فقدتْ ابنها ففقدتْ به حياتَها» . وقالتْ ثالثة : «ليمجّدك الرّبّ في الأعالي لا يُمكن لمؤمنة مثلها أن تنتحر ؛ لا بُدّ من أنّ أحدًا قد قتَلها» . وقالتْ رابعة : «هل فعلها زئيف؟! أنا أعرف أنّه قد يفعل ما هو أسوأ من ذلك» . وقالتْ خامسة : «نعم ؛ لقد فعلها أحد الثّلاثة ، أما نظرتم إلى

رُسغَيها ، لقد كانت مُقيّدة ، وأثر حبال التّقييد ما زال ماثلاً هناك» .

قال (أبرام) وهو يتلو صلاة الوداع على روحها الطّاهرة : «ليقبلك الله في الأعالي . أشهد أنّكِ قد خدمتهِ طَوال حياتك . ولْتَرْتَحْ رُوحُكِ في كنَفهِ بعد طول تَعَب» .

(٩)
مائدةُ الله تدعو البرَّ والفاجرَ إلى خيْراتها

لم يَكُنْ قد تجاوز العامَين حينَ حلّ على الأسرة الجديدة الّتي تكوّنتْ من حمامَتين أُضيفَ إليهما عصفورٌ جديد . أصرّ الأسقف على أنْ يُسلّم (وائل) إلى مريم و(وهيب) ويقبله ابنًا بِكرًا لهما في طقوس احتفاليّة كرنفاليّة كبيرة . كان ذلك يوم الأحد ، بعد أسبوع واحدٍ فقط من إيداع جسد (هيلينا) الثّرى .

نادَى الأسقف على (مريم) ، واجتمعَ بها في القاعة عند المذبح : «لقدْ عَهدتُ إليكِ باتّخاذ (وائل) ابنًا فلا تَخذُلينا» . «سمعًا وطاعةً يا أبي ، ووفاءً لذكرى الرّاحلة . ولكنْ يا أبي ؛ لماذا انتحرتْ هيلينا؟!» . «يا ابنتي ؛ إنّه الشّيطان ، لقد جهّزَ نفسه من أجل إغواء البشريّة ، وهو مُتربّصٌ بكلّ واحد فينا ، إنّني أحذّركِ منه كما حَذّرتُها ؛ إنْ لم يكن الإنسانُ يَقظًا مُنتبِهًا فإنّه سوف يقع فريسةً سهلةً بينَ شِدقَي هذا الرّجيم ، إنّه قد ألقى شِباكَ الغواية أمام كلّ تقيّ ، ورمى فيها بأعذب الطّعوم وأشهاها ، وزيّن الخطيئة بالكلمة المعسولة ، إنّه يبدو للمفتونين أصدق من الرّبّ نفسه ، حين تسيل الكلمات الشّهيّة على لسانه بالوعود السّخيّة ؛ لطالما تفوّق على الرّبّ في نوعيّة الوعود الّتي يَعِد بها مَحروميه ، ولكنّه مُخادعٌ مُحترف ، وكذّابٌ أشِرٌ ؛ لا يَصدُق في وعدٍ واحدٍ ؛ مثل السّراب يظنّه الإنسان ماءً حتّى إذا جاءه لم يَجدْه شيئًا ،

ووقع في شرّ ظنونه ؛ ها أنذا يا مريم ؛ ها أنذا أحذّرك هذا الخبيثَ الّذي يبدو طيّبًا ، وهذا الغادر الّذي يبدو مُخلصًا ، وهذا الكذّاب الّذي يبدو صادقًا ؛ إيّاكِ أن تسمعي له لحظةً واحدةً في حياتك كُلّها» . «وكيفَ لي أنْ أعرف أنّ هذا الخاطر الّذي يأتيني ، ويأمرني أنْ أفعل الشّيءَ أنّه من الشّيطان أو من الله؟!» . «اعرضي قلبَكِ النّقيّ على هذا الأمر الّذي أُمِرتِ به ، وعلى هذا الخاطر الّذي وفد إليكِ ؛ وانظري هل ترتاحين له ، وتشعرين ببركته ؛ فإنّ الشيطان حتّى وإن كانت وعوده برّاقة إلاّ أنّها سرعان ما تملأ القلبَ بالخَبَث ، والرّوح بالصّدأ فيعرف الإنسانُ أنّها منه لإعراض القلب عنها ، مهما كانت لذيذةً شهيّةً أوّل الأمر . اجعلي قلبَكِ المخبار الصّادق الّذي يَميزُ الخبيث من الطّيّب يا بُنيّتي» . «سمعًا وطاعةً يا أبَتِ» . «يجب أن تذبحوا عجلاً أسود لطَرْد الأرواح الشّرّيرة ، قبل أن يدخل ابنكم البيت ؛ هذا من أجل ألاّ يُفكّر الشّيطان بأنْ يلبسه أو يَفتكَ بروحه الطّيّبة» . «ولكنْ أسود؟! إنه نذيرُ شؤم ؛ أيجب أن يكون أسود أيّها الرّحيم؟!» . «بلى يا أختاه» . «سمعًا وطاعةً يا أبتِ» .

في صباح الأحد ، تُليت الصّلوات ، ووُضعَ (وائل) في المَهد ، وأُنشدت مزامير البركة ، وسار موكب الثّلاثة ؛ الأب والأمّ والابن في الطّريق هابطين من قمّة جبل الكاتدرائيّة باتّجاه القرية حيثُ المأوى . في الطّريق ظلّ صدر (وهيب) منقبضًا ؛ شعر أنّه أُرغمَ على تبنّي هذا القادم الغريب ، وأنّ وراءَ الأسقُف ووراءَ إصراره على أن يعهد بالصّغير إليهما حكايةً . غير أنّ مشيئةَ السّماء تتحقّق في مشيئة الأب ؛ هكذا تعلّم في الدّين ، أو هكذا علّمَتْه مريم ، وعليه فإنّ أيّ مخالفة لهذه المشيئة ولو بالسّرّ أو في الخاطر فإنّها تستوجب لعنةً لا يُمكن طردها أو

الفرار منها . كَظَمَ غيظَه ، وأخفى خوفه ، واستتر وراء غشاء سميك من البهجة المُصطَنَعة ، وتابع السّير في الموكب الّذي بدا له جنائزيًا فيما بدا لزوجته كرنفاليًا احتفاليًا .

في القرية كان أخوه (رُشدي) قد أعدّ كلّ شيء لاستقبال الفرد الجديد في العائلة . كانت شوارع القرية وحواريها وطُرقها المُعبّدة والطّينيّة قد اكتست بالخُضرة اليانعة . ما من غُصنِ زيتونٍ أو ورق كرمة أو سَعفةِ نخلٍ أو فَرعِ صنوبرة إلاّ وتدلّى من فوق البوّابات العريضة الّتي تقف في واجهة المنازل . دَفَع رُشدي أيضًا من أجل الفرقة الّتي ستُغنّي في ساحة الجوز الّتي تقع في وسط القرية وتمتدّ مساحةً كاشفةً تُتيح لعددٍ غفير من أهل القرية أن يجتمعوا فيها ، وتسمح لإقامة عُروضٍ راقصةٍ ، ومشاهد احتفاليّة . بعدَ هذه الوقفة لساعةٍ من الزّمن في تلك السّاحة تابعَ الموكب مسيره باتّجاه منزل وهيب ، وعلى الباب المفتوح – كما أمرتْ مريم – كان العجل الأسود قد جُهّز للذّبح ، أمسكَ به قرويّان من قرنَيه ورجلاه مربوطتان ، وصاحَ أحدهم بالنّاس : «تعالَوا ، وعلّقوا خطاياكم في عنقه» . تقاطَرَ عددٌ غير قليلٍ من النّاس ، فعلّق بعضهم تمائم وتعاويذ ، وآخرون علّقوا أسنانًا لحيوانات نافقة ، وغيرهم علّق سلاسل معدنيّة قاتمة . . . ثُمّ أُمِر به فَذُبِح ، خارَ خُوارًا مُخيفًا ، وأثار الأرض برجليه فعلا الغُبار المكان وحجب بعض الوجوه قبل أن يَهمَدَ هُمُودَه الأبديّ ويُسلِم الرّوح للّذي بثّها فيه ؛ حينَها شعر الخاطئون بأنّ أرواحهم قد حلّقتْ ، وأنّهم تخفّفوا من أثقال ذنوبهم ، وأنّ الّذي كان يجثم على صُدورهم قد انزاح!!

في المساء جُمعَ اللّحم ، وطُبخَ ، وأنضج ، وتوافد عليه مَنْ كان جائعًا من مساكين القرية وفقرائها ، ومعظمهم كذلك . مائدةُ الله تدعو

البَرَّ والفاجرِ إلى خيراتها لا فرق ولا تمييز . أكلوا حتّى شبعوا ، وشكروا الرّبَّ على هذه الهبة ، وعلى هذا القدوم الميمون لهذا الذَّكَر إلى هذه العائلة السّعيدة .

وفدتْ (سلوى) من بعد وائل ؛ فصل بينهما في القُدُوم شهران ، لم يكد القرويّون ينسَون طعم اللحم حتّى عاد إليهم من جديد في كَبْشٍ أملح . وحين كانوا يلعقون ما تبقّى في أفواههم من طعام ارتفعتْ أكفّهم إلى السّماوات تدعو لهذه العائلة بالبركة وبالمزيد من الصّبيان والصبيّات .

كان قدوم (سلوى) قد خفّف من نشاط (مريم) الكنسيّ ؛ فاستعاضتْ عنه بالتّعمّق في علم اللاّهوت ، ودراسة الأديان المقارنة . وحثّتْ زوجها على أن يحذو حَذْوها ويأخذ عنها العلم الّذي يُفيد الإنسانَ في آخرته كما كانت تقول له . وبالطّبع لم يكنْ بمقدوره أن يعصي لها أمرًا فقد كان كلامُها يقع في القلب انشراحًا أو طاعةً ، ما من كلمةٍ من كلمات (مريم) سقطت على الأرض ، كان قلبُه أرضَ كلمتها ، تقع هناك فيُؤمن بها ويُسارع إلى العمل بمقتضاها . لم يكنْ حُبًّا فحسب ؛ فهذا لا شكّ فيه ، بل كان إلى جانب ذلك إيمانًا بدورها العظيم في خدمة الرّبّ ، ورسالتها الكبيرة في التّبشير بقدوم المسيح المُخلّص . وعلى هذه التّعاليم نشأ أبناؤهم . لم تُضعْ مريم لحظةً واحدة من حياتها كانت تستطيع فيه أن تبثّ فكرةً مُقدّسة ، أو بِشارةً مُحبّبة إلاّ واستثمرتْها في صالحها وصالح عائلتها . أمّا يُتمها وفقدان أبويها فقد ذهبَ الشّعور بمرارته أدراج الرّياح وهي تجد الوفاء من زوجها والحبّ والإخلاص والتّفاني في خدمة الرّبّ!!

كَبُر الطّفلان ، ووجدا تربةً خصبةً للمناكفة فيما بينهما ، كان

(وائل) ولدًا شقيًّا ، كثير الصّراخ حادّ المزاج ، لا يسمع لأحد ، ولا يلتفت لتوجيه أيٍّ كان . وكانت (سلوى) هادئةً تقف الدّمعة في عينيها جاهزةً عند أوّل حادثة للانهمال . لم يكنْ أحدٌ أسرعَ منها في البكاء . تبكي لأيّ سبب ولأتفه أمر . لكنّ بكاءها كان أكثره استضعافًا طلبًا للشّفقة من الأبوين ، وتنفيذ رغباتها .

كثيرًا ما كان وائل يُسارع إلى شَعر أخته فيجرّها من شعرها ويسحبها على البلاط ، فتبدأ بالصُّراخ متألّمة ، وكلّما ازداد بُكاؤها شعرَ بلذّة في داخله وكأنّما زيادةُ بكائها حافزٌ يدفعه إلى مزيد من شدّ شعرها وتمزيقه ، وحينَ يصل أحدُ الأبوَين تكونُ قبضةٌ من شَعر سلوى قد استقرّتْ في يد وائل . وينظر الأخير إليها وهو يُقهقه فتردعه أمّه فيزداد قهقهةً ، فتنهره وتطلب منه أن يكفّ ، فتتحولّ قهقهاته إلى بُكاءٍ جارح .

لم ينشأ أيّ نوع من علاقة الوُدّ بين الاثنَين ، وجاهدَ الأبوان في تطبيع العلاقة بينهما بإحضار ألعابٍ مُشتَركَة لا يُمكن القيام بها إلاّ إذا لَعِبَها الاثنان معًا ، لكنّ ذلك لم يُلطّف الجوّ بينهما ، وكانت الألعاب غالبًا ما تنتهي إلى التحطيم من قبل الأخ . وكثيرًا ما كانت الأمّ تعثر على ألعابٍ أُحضرتْ حديثًا ووُجِدت تحت شجرة التّوت وقد حُطّمتْ بالأحجار ، وبُعثرتْ في السّاحة .

ومرّة في عام وائل السّابع أفاقت الأمّ على صُراخ فجائعيّ يصدر عن (سلوى) ذات الأعوام الخمسة ، فهُرعتْ إلى السّاحة لتجد ابنتها جاثيةً على الأرض تصرخ وهي تتلوّى من الألم ، وكان وائل ما زال يُمسكُ حجرًا كبيرًا بين يديه ، ويصيح بأخته : «أينَ خبّأتِ الكرة أيّتها اللّعينة . . . قولي أينَ خبّأتِها» . ولمّا شاهدَ أمّه تركض نحوه انهار

بالبُكاء وهو يشكو لها : «لقد سرقت كُرتي يا أمّي . . لقد سرقتْ كُرتي» . استمرّ صُراخ البنت ، فحُملتْ إلى مشفى القرية ، وهناك حُوّلتْ إلى مستشفى المدينة ليجدوا أنّ يدها اليُمنى يظهر في الصّورة أنّها أُصيبتْ بثلاثة كُسور ، وأنّ عمليّة جِراحيّة مُستعجَلة يجب أن تُجرَى لها!!

استدعى الأمر شهرَين لكي تتعافَى سلوى من الكُسور الّتي أصيبَتْ بها ، ومع كلّ محاولات الأمّ إخفاء هواجِسها في داخلها ، وتفسير ما يحدث على أنّه إنّما يحدثُ من طفل ؛ إلاّ أنّها لم تصبِرْ على الأمر بعد ذلك ، وبدأتْ تُساوِرها الشّكوك في نفسيّة هذا الولد الّذي تَبَنّياه ، وهل هو مُبارَكٌ أم ملعون . غير أنّه على الحالَين لا يُمكن التّراجع وقد صار في عُرفِ كلّ أهل القرية والمدينة والعالَم أنّه ابنهما البِكْر ، وأنّهم قدّموا القرابين من أجل أن يكون مَقدمه إلى بيتهم مَقدمًا ميمونًا ، وأنّهم رَجَوُا الرّبّ أن يمنحهم البركة بحلوله ، وأن يُلقي بهذه البركة على البيت بوجوده فيه!!

– إنّه ينظُر كرجل ، ويضرب كفتى ، ويُخاصِم كحقود . (قالت مريم للأسقُف) .

– عمّديه من جديد ، وأسقِيه ماء الرّبّ .

– لقد فعلْنا يا أبتاه . بل لقد ذبحنا عِجلاً من أجل أن نطرد الأرواح الشّريرة من كلّ ما يُحيط به ، لكنّ تصرُّفاته تزداد في كلّ يوم غرابةً .

– اصبري عليه قليلاً يا أختاه . لا تنسَي أنّه ما زال طفلاً ، ولا يُمكن الحُكم عليه في مثل هذه السّنّ .

– أشكّ في أنّ روح طِفلٍ هِيَ الّتي تسكنُ جسده!!

– هل تريدين أن نعهد به إلى أسرةٍ أخرى!! هذا غيرُ ممكن ، لقد صار واعيًا الآن ومن المستحيل أنْ نُلحقَ نسبه بعائلةٍ أخرى ، وقد شبّ وهو يعرف أنّك أمّه وأنّ (وهيب) أبوه . أتعرفين مدى الألم الّذي ستتسبّبين به له لو فعلنا ذلك؟!

– ولكنْ يا أبتي!!

– لقد وَعدْتِ منذ اليوم الأوّل أن تَرعَيه حقّ الرّعاية ، أتريدين أن تُطيعي الشّيطان وتنكثي عهدكِ مع الرّبّ .

– لا . . . لا . . . معاذ الله يا أبتي . لي رجاء أخير .

– قولي يا مريم ، قولي .

– أُتلُ صلاةً صادقةً من أجلنا .

(١٠)

حينَ تعرفونَ اللهَ حقَّ المعرفةِ اشكروه لأنّه منحكم هذهِ الفرصةَ النادرةَ

انظر كيف تتوالد الأشياء . لا شيءَ يبقى إلاّ كلمة الله . حاضرةً رغم كلّ ما يغيب ، باقيةً رغم كلّ ما يزول ، ثابتةً رغم كلّ ما يتغيّر . هذه الأرض كم مرّ عليها من أناس . أقاموا هنا زمنًا مَقدورًا ثمّ رَحلوا ، ونحن مُقيمون اليوم وسنرحل غدًا ، وسيأتي مِنْ بَعدنا مَنْ سيُقيم ثمّ سيَعتريه الرّحيل مثل مَنْ سبقه ومَنْ سيلحقه . الدّنيا كلّها إلى تَحوّل وتَبدُّل ، حتّى النّهار يعتريه الرّحيل فيأتي اللّيل ، واللّيل بدوره يملّ البقاء فيرحل ليسمح للنّهار بالقُدوم . هذا التّعاقبُ جعل من الرّحيل سمةً لكلّ شيء . وحدها كلمة الله لا تحول ولا تتبدّل ، وتتكيّف مع كلّ العصور والأزمنة ، وتتآلف مع كلّ البِقاع والأمكنة .

«هل القريةُ بخير؟!» . سألتْ مريم . «بلى» أجاب وهيب . «إذًا نحن بخير» أردفتْ . إذا كان المكان على ما يُرام فإنّ ساكِنيه كذلك . ولذا لا تخشَ شيئًا يا حبيبتي ، ستتحسّن الأحوال ، وتهدأ الأمور ، ويكبر الأولاد ، ويُصبح كلّ شيء ذكرى ؛ ذكرى تعبر حجرات الفؤاد ؛ الفؤاد الّذي يُصيبه الحنين إلى الماضي كلّما عاوده نَفْحٌ من نَسَماتِها . وسيكبرون . وسأُذكّرك .

راحَ يجدلُ لها ضفائرها خُصلةً خُصلة . طلبَ ذات مرّة عندما رأى

شعرها يطول على هذه النّاحية من مريم أن تعلّمه جَدْلَ الضّفائر . لكنّها قالتْ له إنّه لا وقتَ لديها لتعلّمه ما لا فائدةَ منه . فتعلّم ذلك وحده . ومنذ أنْ بلغت (بتول) الثّالثة من عُمرها وإلى اليوم وهو يجدل لها ضفائرها ، يجلس أكثر من ساعتَين وهو يفعل ذلك مُستمتعًا . وحينَ ينتهي يكون قد جهّز التّاج الّذي سيضعه فوق رأسها لِتبدو كأنّها ملكةٌ من مَلكات الإغريق . في كلّ مرّة كان يشتري لها تاجًا جديدًا . وفي مرّات عديدة كان يطلب من أحد أخوَيها اللّذين يسكنان في المدينة لإتمام الدّراسة الجامعيّة ذلك : «لا تنسَيا تاج بتول عندما تأتيان في عطلة نهاية الأسبوع ، أريده جميلاً ومُختلفًا» . فيتذمّران ؛ «أنها كبيرة» ، لكنّهما لا يستطيعان الرّفض .

الآنَ أنتِ أميرتي ، وتستطيعين أن تطلُبي منّي ما تشائين ، أنا عبدٌ عندكِ وأنتِ سيّدتي ، يحني رأسه ، ويُرجع يده خلف ظهره ويهتف : «تحت أمركِ أيّتها الملكةُ السّماويّة» . وتضحك وهي تطلبُ الشّيءَ الّذي اعتادتْ أن تطلبه لزمنٍ ليس بالقصير : «رَكّبْني عَ اكتافَك بابا» . «حاضر أيّتها الأميرة ، ها هو خادمُكِ المُطيع يجثو لكي ترتحليه ، فهيّا» . ويحملها على أكتافه ويطوف بها ساحةَ البيت وهو أكثرُ جذلاً من تلك الصّغيرة الّتي راحتْ تُغنّي وقد أخذتْها الحماسة .

«هيّا بنا يا صغيرتي إلى الجبل . هذه المرّة سأحملك كلّ الطّريق فلا تخافي من طول المسافة» . «وأنتَ ألا تتعب؟!» . «حينَ أتعبُ سأُنزلك لنرتاح قليلاً ثمّ نواصل مسيرنا المُقدّس يا حبيبتي» . ويبدآن الرّحلة المُمتعة لكليهما . حينَ صار آخر بيت في القرية خلف ظهرهما . طلبَ منها أن يلعبا لعبةً سهلة . سأسمّي أنا شجرةً وستُسمّين أنتِ شجرةً ، حتّى يُسمّي كلّ واحدٍ منّا عشر شجرات ، وفي رحلة العودة

على كلّ واحد أن يتذكّر أسماء الشّجرات العشر الّتي سمّاها الآخر ؛ اتّفقنا؟! فتُجيب : اتّفقنا . في المساء ، في رحلة العودة يتذكّر دونها ليس أسماء الشّجرات الّتي اخترعتْهنّ الصّغيرة فحسب ، بل كلّ همسةٍ همَسَتها أو ألقتْ بها في أذنه!!

- هذه الطّيور مَنْ خلقها؟!
- الله .
- وهذه الزّهور مَنْ لَوّنها؟!
- إنّه الله .
- وهذه الأشجار مَنْ غَرَسَها؟!
- إنّه الله . . . إنّه الله يا عزيزتي .
- حقًّا؟! الله فعل كلّ هذا؟! لا بُدّ أنّه عظيم . أريد أن أراه . أرجوكَ يا أبي أريد أن أراه .
- عندما تكبرين يا ابنتي . . . عندما تكبرين .
- أنا كبيرة ؛ أريدُ أن أراه الآن .
- تعالَي معي يا صغيرتي إلى الجبل ، ربّما نراه هناك ؛ مَن يدري؟! ربّما!!

ويُتابع مسيره وهو يتهادَى بها صاعدًا المنعرجات للوصول إلى القمّة . هناك حيثُ اعتادا لسنواتٍ طويلة أن يجلسا ويشربا من ماء البئر ويصنعا الشّاي على حطب الأغصان اليابسة . ويتبادلا الحديثَ في أمورٍ شتّى .

قال لزوجته مرّة : «أحيانًا أفكّر أنّ الله لو لم يرزقني (بتول) لكانت حياتي جحيمًا» . فتردّ : «ولكنّ وائل وسلوى في حياتك أيضًا» . «بلى ، لهما مكانتهما في القلب بلا شكّ ؛ لكنّ (بتول) شيءٌ

مختلف . شيءٌ لا أبالغ إنْ قلتِ إنّها الوحيدة الّتي تُعطِي جدوى من وجودي في الحياة . إنّ الشّمس لا يُمكن أن تشرق على يوم تغيب فيه هذه الحبيبة ، إنّهما شمسان لا يُشرقان إلاّ معًا ، وبدونهما تتحوّل الحياة إلى ظلام دامس لا يرى فيه الإنسان موطئ قدمه!!

- ستُقتلك هذه الصّغيرة .
- نعم ، ها هو الله يفعل ذلك ، إنّه يُمعن في غرسِ محبّتها في قلبي .
- عليكَ أن تعتاد غيابها .
- إذًا عليّ أن أعتاد الموت قبل أن أفعل ذلك .
- وغدًا ، عندما تدرس في الجامعة؟!
- سأرحل معها إلى هناك .
- وتتركني وحدي!!!
- أووووه . . . دائمًا تَضَعينني في مُقارناتٍ صعبة . سنرحل جميعًا معها .
- وتتركُ بيتَ الرّبّ ؛ لا بُدّ أنّكَ جُننت .
- نعم ، جننتُ . أبٌ مجنونٌ بحبّ ابنته ؛ ماذا في ذلك؟!

ودائمًا يظلّ النّقاشُ مَفتوحًا ولا ينتهي ، ويؤول الأمر في النّهاية إلى كفّتَي ميزان ، حبّ الرّبّ وخِدمته في كفّة ، وحبّ بتول والهُيام بها في كفّة أخرى . والخِيار عند (وهيب) سهل ومعروف ، فلا شكّ أنّ كفّة بتول سترجَح ، ولكنّ المشكلة في غضب الرّبّ الّذي سيحلّ به وبالعائلة إنْ فعل ذلك كما ظلّتْ تُحذّره مريم!!

***

اشترى بدلةً جديدة لهذه المناسبة الغالية ؛ لقد أنهت (بتول) الثّانويّة العامّة ، ومساء هذا اليوم ستُلقي في حفل التخرّج كلمةَ المتفوّقين . أصلح ياقةَ قميصه وأسدلها على ربطة العنق الّتي بدتْ صليبًا فوق قميصه الأبيض أكثر من كونها مجرّد ربطة ، وبدا الأب السّتّينيّ كما لو كان شابًا وقد شذّب شواربه وحلق لحيته وسرّح شعره بطريقة حديثة ، ورشّ عُطرًا فوّاحًا تناهى شذاه إلى الغُرَف الأخرى في البيت الّذي يمتلئ سعادةً بهذه الفتاة المُدلّلة . وعلى غير عادة الأبناء المُدلّلين لم يمنعها دلالُها من أن تتفوّق في دراستها ، وتُدخِل الرّضى والفخر إلى قلب والِدَيها . نظر الأب في المرآة مزهُوًا بنفسه ، وراح يُغنّي وهو يمسح على شعرات رأسه الّتي لم تنجح محاولاته المُتكرّرة السّابقة في إخفاء الشّيب الّذي غزاها واشتعل بين جَنَباتها . دار نصف دورة ليتأكّد من أنّ هندامه في أبهى هيئة . وصاح كمن وجد شيئًا ثمينًا : «أنا جاهز» .

تعلّمتْ بتول في مدارسَ مسيحيّة بمناهج وطنيّة ، لكنّها عرفتْ مبادئ المسيحيّة من حصّة الدّين المقرّرة خمس مرّات في الأسبوع ، إضافةً إلى أنّها ابنة اثنين من رعايا الكنيسةَ المُخلصين ، وممّن نذروا أنفسهم لخِدمة مصالحها في التّبشير بالدّين . وفي الأيّام الثّلاثة الّتي سبقتْ تخرّجها جلستْ إلى والدتها تنتقي الكلمات الّتي ستقولها أمام أكثر من ستّين خرّيجة في الثّانويّة العامّة بالإضافة إلى أهاليهم وأقاربهم ورُعاة الكنيسة .

بدتْ تحت الضّوء المُسلّط عليها من الأعلى ملاكًا هبطَ من الأعالي ، وأوقفَ الزّمن ليبوح للبشر بخبر السّماء ، ويُبشّرهم ثمّ يُنذرهم ؛ لأنّ كلّ شيءٍ إلى زوال ، ولا بُدّ من اليقظة قبل أن يجرف

الطّوفان في طريقه كلّ ما يجد . هكذا ربّما بدتْ لأمّها أو لأبيها أو لسلوى أو لرشدي ، لكنّ أيًا من الأسقف ومساعده ووائل بالضّرورة لم يشعر بشيءٍ من ذلك ، وربّما كان هذا شعور الكثيرين ممّن ألقوا بأجسادهم على مقاعد القاعة المُدرّجة وأرهفوا أسماعهم إلى ما سيُقال .

مشتْ من أوّل القاعة بكبرياءَ وفخر ، تتهادى في روب التّخرّج ، وترفل فيه حسناء ناضجة قد أوتيتْ من كلّ شيءٍ سببًا ، حتّى إذا توسّطتْ المسرح ، ووقفتْ خلف الميكروفون الّذي انتظر قدومها هو الآخر بشغف ليسمع إلى حِكمتها ويطرب بترانيمها وواجهت الجمهور ، بدأ الكلام يَشِفّ عن قائله ، ويبوح بمكنون مُتكلّمه :

«باسم الرّبّ أحيّيكم . مساءٌ بهيّ بوجودكم . وفرحةٌ تملأ قلوبكم بما أنجزتم ؛ فالعاملون المُثابرون يجدون جزاء ما يعملون من الرّبّ خيرًا وزيادة . وستنتشرون من هنا إلى مدن أخرى ، أو إلى أنحاء العالَم ، فاحملوا دِفْءَ قلوبكم لتَقوا النّاس من بَرْد ذُنوبهم . واحملوا مشاعل إيمانكم لتُضيئوا للنّاس ظلامَ دروبهم . فإنّه لأمر ما اختاركم الرّبّ لتكونوا اليوم هنا ، إنّكم رُسُله إلى النّاس ، إنّكم حَواريّوه ، لكنّ أحدًا منكم لن يخون ، ولن يُسلّمَ معلّمه إلى عدوّه ، املؤوا بالإخلاص من أجل الخلاص أرواحَكم . وحينَ تعرفون الله حقّ المَعْرِفَة اشكروه لأنّه منحكم هذه الفرصةَ النّادرة الّتي لا يمنحها لأيّ أحد . وإنْ عرفه أحدٌ منّا يومًا فلا يبخلْ على صديقه بهذه المعرفة ، فإنّ العلم بكَتْمه يموت ، ونشره يحيا ، وهل مِنْ عاقلٍ يُفضّل الموتَ على الحياة!! سِيروا يرعَ الرّبّ خُطاكم ، ويمهّدْ لكم دروبكم ، ولا تَنسَوا ما خُلقتم من أجله . والسّلام» .

ضجّت القاعة بالتّصفيق ، إلاّ أبوها الّذي وقف مذهولاً وراح يمسح دموعه بأطراف أصابعه لشدّة حبّه لابنته وإعجابه بها . في ساحة المدرسة بعد التّخرّج تلاقَى الأهل والأصدقاء ، أخذوا صُورًا تذكاريّة لبعضهم . وضَحِكوا كثيرًا وأكلوا وشربوا أكثر .

في طريق العودة ، ظلّتْ بتول ساهمةَ الطّرف تنظر من خلال زجاج السّيّارة إلى الأشجار الّتي تهربُ في الاتّجاه المُعاكِس . شيءٌ ما في أعماقها يتفاعل ولا يُريد أن يهدأ ، إنّ الفكرة إذا ملأتْ كيان الإنسان عذّبتْه ، وظلّتْ تحوم في وِجدانه كأنّها نحلةٌ إنْ لم تجد منفذًا لسعتْ فأوجعتْ :

– لقد كنتِ الرّوعة بذاتها في الحفل يا أميرتي .

– . . . . .

– ما الأمر يا عزيزتي .

– ما زلتُ أبحثُ عن الله يا أبي .

– إنّه في قلبِك ؛ ألم تشعري به؟!

– كلاّ . إنّ حقيقة الله ما زالتْ تُعذّبني . أتوق إلى أن يهدأ عقلي الّذي لا يكفّ عن التّفكير في المسألة .

– ولكنّ الأمر بَيِّنٌ لا يحتاج إلى كثيرِ تفكير .

– بل يحتاج يا أبي . بل يحتاج . أكثر الكلام – إنْ لم يكن كلّه – الّذي قلتُه على منصّة التّخريج أحسستُ أنّه مصنوع ؛ وأنّ عجينةَ الكلمات في التّعاليم دائمًا جاهزة ، والّذي يختلف هو التّشكيل ، مرّة تجيء ممطوطة ، ومرّة مبعوجة ، ومرّة مُعوجّة .

– ما الّذي تقصدينه يا صغيرتي؟!

– لا شيءَ يا أبي . . . لا شيء . . . فقط أردتُ أنْ أعبّر لك عن

شعوري الحقيقيّ تُجاه كثيرٍ ممّا نقوله أو نفعله .

– لا عليكِ يا حبيبتي .

– عِدْني يا أبي أن تفتح قلبَكَ لي في كلّ مرّةٍ آتيكَ فيها ، وأبوح لكَ بما يضطربُ في أعماقي من أفكار .

– أَعِدُكِ يا ابنتي . أَعِدُكِ . والآن أصبحتْ أبوابُ الجامعة مُشرَعَةً أمامك فدعي الماضي بكلّ ما فيه وانظري إلى المستقبل .

(١١)
اللهُ الّذي لهُ مُطلقُ القُدْرَةِ لَنْ يَكُونَ بَشَرًا!!

إنّه الصّيف ، الفصل الّذي تنضجُ فيه عناقيد العنب ، ويُثمر الخوخ والدُّرّاق والمشمش . وفي ظِلال هذه الأشجار يحلو السّمر والسّهر . ويطيب للنّفس أن تسرح بخيالها إلى الأفق ، وترتاح قليلاً من هذا اللّهاث الأبديّ المكتوب على الجنس البشريّ في محاولته العيش أو حتّى إدراك الحياة ؛ الحياة الّتي غالبًا ما تستعصي على الفهم ؛ الفهم الّذي يحتاج إلى وَحْي إلهيّ أحيانًا لكي يُصبح منطقيًا .

قضت (بتول) صيفها تذرع الطّرق الّتي اعتادتْ مع أبيها على أن تسلكها منذ أن كانت في الثّالثة . وهذه العطلة الصّيفيّة فرصةٌ سانحة لاستعادة الذّكريات ، ولكنْ هذه المرّة وحدها فقد باتتْ تحفظ الدّروب الصّاعدات إلى القمم ذِراعًا بذراع وشِبرًا بشبر .

انتظرتْ حتّى خفّفت الشّمسُ من غلوائها ، وانكسرتْ في الأفق متنازلةً عن عرشها السّماويّ ، وحملتْ عِدّة المسير ، وانطلقتْ . . . إلى قمّة جبل البئر . حيثُ القمّة الأقرب إلى قلبها فهناك تعرّفتْ مع أبيها معنى أن يُصبح التّراب جزءاً منك ، وكأنّ الأمر بات تأكيدًا لأوّل الخلق ؛ للتّكوين ، حيثُ كوّن الله آدم من تراب الأرض ؛ فإلى التّراب نعود وإليه نَحنُ ، ولربّما لشدّة حبّنا لا تكون لنا في نهاية المطاف أمنيةٌ أكبر من أن نُغيَّبَ في جوفه!!

وقفتْ على هضبة صغيرة في الثلث الأوّل من هذه الهضاب الّتي تمضي إلى القمّة وودّعت الشّمسَ بيدَيها . هيَ كذلك جزءٌ منّا ، مَنْ يمضي نصفَ حياته في صُحبتها ولا يقول لها حينَ تؤدّي مَهمّتها في نهاية كلّ نهار : «شكرًا أيّتها الشّمس ؛ شكرًا لأنّكِ مَنَحْتِنا الدّفء ، والخير ، والخِصب ، ونعذر غيابَكِ المؤقّت لأنّكِ تعبتِ معنا طَوال هذا اليوم وحُقّ لكِ أن ترتاحي» . لكنّها انتبهتْ إلى نفسها قليلاً وهي تشكر الشّمس : «مَنْ نشكر الموجود أم المُوجِد؟!» سألتْ نفسَها . وسرعان ما أجابتْ ؛ فقد كان الجوابُ سهلاً : «بل المُوجِد؟!» . ثمّ أردفتْ : «ولكن مَن المُوجِد؟!» . وسرعان كذلك ما أجابت : «الله . . . الله» . فقد بدا الجواب سَهلاً أيضًا . ولكنْ ما كُنْهُ هذا الله الّذي أوجد هذه الشّمس ؛ إنّه ليس يسوع بالتّأكيد إذ ليس له قُدرة على تكوير الشّمس ولا على إمدادها بالإشعاع ، فَلِمَ نتوجّه إليه إذًا على أنّه الله ؛ صمتتْ كمن شعرتْ بأنّ أحدًا يقرأ أفكارها وتلفّتتْ حولها مَخوفةً ، بدا لها يسوع يقف على مقربة منها وحينَ التقتْ عيناهما ابتسم في وجهها ابتسامةً لطيفة ، شعرتْ أنّه إنسانٌ ودود ، وأنّه قريبٌ جداً منها ، وأنّه يُمكن أن يكون يومًا ما صديقًا ، حينَ دلفت الكلمة الأخيرة (صديقًا) إلى خاطرها كان قد اختفى ، مثل نور لمع ثمّ انطفأ بهدوء . همستْ في داخلها : «الله الّذي له مُطلَق القُدرة لَن يكون بشرًا . . . بالضّرورة لن يكون بشرًا» . ثمّ تابعت الصّعود .

توقّفتْ بعد فترة عند شجرة لِزّاب عالية ، أنزلت الحقيبة عن ظهرها ، وجلستْ تحتها ، أسندت ظهرها إلى الجِذْع العريض ، ووجهتْ طرفها إلى الغرب ، حيثُ كان الأفق قد بدأ ينفتح أمامَ ناظرَيها ، تناولتْ قارورة الماء ؛ وعبّتْ منها ، في منتصف شُرْبها هاجَمَتْها بعضُ

الهواجس : «مَنْ يملكُ أن يُجمّد الماء في فمي قبل أن يسيل إلى جوفي فيصبح حجرًا لا يُمكن ابتلاعه؟!» أجابها خاطرها حالاً : «الله» الله . . الله . . . كلّ هواجسها وتساؤلاتها تُفضي إلى إجابة واحدة ؛ هي : «الله» . ولكنْ من جديد : «من يكون الله؟!» هذا الّذي جاء بنا إلى الحياة لنعبده كما يريد لا كما نريد ؛ فماذا يريد إذًا؟! وإذا كان يريد أن يدلّني عليه ؛ فَلِمَ يُوقعني في هذه الحيرة . أنزلتْ قارورة الماء من فيها ، وغرقتْ في بحر حيرتها . ثمّ نهضتْ وهي تقول : «سيدلّني عليه ؛ لا بُدّ أنّه يَسمعُني الآن ، وسيعرف كيف يأخذ بيدي لأراه» .

واصلتِ المسير صاعدة باتّجاه البئر ، في الثلث الأخير من هذا الارتقاء الجسديّ الّذي شعرتْ معه بارتقاءٍ روحيّ ارتاحتْ قليلاً على ظهر صخرة مكشوفة للسّماء . بدا أنّ القبّة السّماويّة الّتي صار لونُها كُحليًا تكاد تُظلّلُها كخيمة ، وهي أقرب إليها من نفسها ، تخيّلت أنّ الله سيتجلّى لها كما تجلّى لموسى ويقول : «إنّني أنا الله ربُّ العالَمين» لكنّها نفضتْ رأسَها ، وضَحكَتْ من هذا الخاطر العَجيب الّذي تملّكها . عَدّتْ عشرَ نجمات ، وَسَمّتْهنّ بأسماء غريبة ، وهتفتْ في نفسها : «لعبةٌ قديمةٌ تعلّمْتُها من أبي ، لو كان موجودًا هذه اللّيلة معي لَحفظَها» ، ثمّ أردفتْ : «يا لَلأبِ الحنون!!» . عبرَ سربٌ من الغربان وهو ينعق (غاق . . . غاااق) في تلك اللحظة المساحةَ الخالية وغاب في أجَمَة الأشجار الّتي تمتدّ من طرف هذه السّاحة مسافاتٍ كبيرة . قطع سربُ الغربان عليها أفكارها ، تذكّرتِ الغُراب القاتل . تساءَلتْ : «إنْ كان قد قتلَ أخاه فكيفَ أنجبَ من بعده كُلَّ هذه الغِربان» . سَمعَتْ غرابًا من بعيد يهتفُ قبل أن يغيب في كُتلة الأشجار المتشابكة : «أنجبها الشّيطان ؛ ألا تَرَين أنّه منذ لك العهد والغربان كلّها سوداء ؛

والله لم يأتِ غرابٌ ولو واحدٌ بلون مُغايِر!!» . ضحكتْ من إجابة الغراب ، وقامتْ من مكانها لتتابع الصّعود ، بينما كان آخر الغربان قد اختفى ، واختفى معه نعيقُه المُزعج ، وعادت الطّبيعة إلى هدوئها السّاحر .

وصلت القمّة وأنفاسُها تتقطّع . ركعتْ واضعةً يديها على رُكبَتَيها وراحتْ تلتقط أنفاسَها ، قامتْ فاعتدلتْ وظلّتْ تتقدّم حتّى وصلتِ البئر ، صَعِدتْ درجَتَيه الصّغيرَتَين لتتمكّن من الإشراف على فوّهته ، أمالتْ جسدها الرّشيق لترى قاعه ، كان الماء يتراقص في ذلك القاع ، ويتمايل على ضوء القمر الّذي اشتدّ ضياؤه في تلك اللحظة ، وألقى نفسه على زُجاج السّطح فبدا جذلانَ مسرورًا ، تراجعتْ إلى الوراء قليلاً ، تناولتْ حصاةً صغيرةً من الأرض ؛ أرادتْ أن تزيد من تراقُصِ الماء ، ألقتِ الحصاة في البئر فازداد اضطرابُ الماء ، وتكسّرت مرآته ، غاب القمر فجأة من مشهد الانعكاس ، وحلّتْ محلّه صورتان لسدوم وعمورة ، تراجعتْ مذعورةً ؛ تذكّرتْ ما قاله لها أبوها عنهما فانخلع قلبها ، استجمعتْ شجاعتها من جديد ، وألقتْ نظرةً هيّابة على سطح الماء في القاع ، بدت الفتاتان عجوزَين بَشعتَين ، قد تساقطتْ أسنانهما ، وتناثرتْ شعورهما ، وهما تعويان ككلبتَين . تراجعتْ من جديد ، وفكّرت : «سرقتا من الإنسان الخير ، فسرقَ الله منهما شبابهما ، الخالدون في شبابهم هم الّذين يَهبون للحقّ أنفسهم ، ولا يبيعونها للشّيطان كما فَعَلتا» . تمنّتْ من الله ألاّ يُطيل بقاءَهما في قعر البئر ، نظرتْ من جديد ؛ فعاد القمر إلى بهائه يحتلّ مرآة الماء . سحبتْ حبل الدّلو ، وأمسكتْ به ثمّ قذفته بما تستطيع من قوّة إلى القاع ليمتلئ بالماء . شعرتْ بانجذاب الحبل فعرفتْ أنّ الدلو قد

امتلأتْ ، سحبتْها بهدوء حتّى صارتْ بين يَدَيها ، أخذتْها بعيدًا عن فم البئر ، وتوجّهتْ إلى الغرب ، ورفعتْ يديْها بالدّلو وسَكَبَتْ نصفه على جَسَدها فارتعشتْ . صاحتْ كمن تستغيث : «يا ربّ هذا الماء المُقدّس ، دُلّني عليك ، وألهِمْني حِكمتك ، ولا تَدَعْ للشّيطان فُرجةً في قلبي» . تمثّل لها طيفُ يسوع من جديد ، ابتسم ، وأشار إلى السّماء ، رأتْه يَصعدُ ويَصعدُ ويَصعد ، تابعتْه بعينَيها وهي مشدوهة ، وشعرتْ أنّه أخذ معه روحها ، وأنّه لم يبقَ لها على الأرض إلاّ جسدُها البالي . ظلّ يسوع يواصل صُعُوده عابرًا السّحب والغيوم ، والنّجوم والكواكب ، والمجرّات والأجرام حتّى غاب في لجّة السّماء . أعادتْ رأسها المشدود إلى وضعه الطّبيعي ، فأحسّتْ أنّ روحها عادتْ إليها من جديد ، وغابتْ في تلافيف جسدها . شعرتْ بالخوف والاطمئنان في الوقت نفسه ، داهمتْها آلاف المشاعر المتناقضة ؛ وبين الشّكّ واليقين ، والإيمان والنّكران ، والرّاحة والعذاب ، هتفتْ في نفسها : «سَيَدُلُّني عليه ، سيفعل ، أعرف أنّ ذلك سيكونُ قريبًا» . وانهارتْ على الأرض ، وذهبتْ في نوم عميق .

أفاقتْ منْ رقدتها ، تلمّستِ الأرضَ من حولها . استغرق الأمر بضع ثوانٍ لتعرف أينَ هي ، بدا لها القمر وقد أتمّ قوسه السّماويّة في أقصى الغرب يبتسم لها ، مع أنّه كان شاحبًا ، وقد بدأ شُعاعُه الفضّيّ اللامع يخفُت ويحلّ محلّه اللّون الأبيض تدريجيًّا .

كان نصف الدّلو ما زال مملوءاً ، ويستقرّ إلى جانبها . لم تشأْ أن تُغادرَ القمّة قبل أن تشرب الشّاي كما دأبتْ على ذلك لسنوات مع أبيها . هبّتْ نشيطةً وراحتْ تجمع الحطب اليابس ، وفي دقائق ، كانت النّار الّتي تشتعل تحت إبريق الشّاي تبدو للنّاظرين إليها من الوادي

مثل نار موسى على الطّور!!

تناولت الإبريق بعد أنْ غلا . سكبتْ منه ما ملأ الكأس . قرّبت الكأس إلى فمها ، وراحت ترتشف منها بتلذّذ . كان الجوع قد قرص معدتها . تذكّرتْ . مدّتْ يدها إلى الحقيبة وأخرجتْ فطائر السّبانخ . أكلتْها بشهيّة وأتبعتْها ما تبقّى من رَشَفات في الكأس . في دقيقتَين كانت الفطيرة والكأس قد انتهيا وصارا في مَعدتها . فكّرت : «أهكذا تنتهي الأشياء في لَمحات!! أيُّ فناء هذا الّذي يُصيبُ الموجودات ؛ لا شيء يبقَى» . ثمّ همستْ : «أفتكونُ أجسادُنا لُقمةً سائغةً للأرض تلتهمها في مَعدتها حينَ نموت وتنتهي صلاحيّة وجودنا فوقها!!» .

نهضَتْ لتعود . كانت نَسَمات الهواء قد صارتْ باردة . هبطتْ . في منتصف هبوطها ، عادتْ إليها نفسُها من جديد لتُحادثها : «ما من كائنٍ يبقى في الأعالي إلاّ الله ، ها أنتِ تعودين إلى بطن الوادي ، القمّة تُلقي بموجوداتها إلى القاع ، مهما حاول القاع أن يحرّض من لفظَه إلى القمّة كي يُحافظَ على موقعه» . ظلّتْ تهبطُ وهي تغذّ السّير إلى القرية ؛ خافتْ أن يطلع الفجر ويصحو والِداها فيكتشفا غيابها الطّويل . دلفت من البوّابة المفتوحة ، كان أبوها يسترق النّظر من نافذة غرفة نومه ، محاولاً ألاّ تراه . تنهّد طويلاً وهو يراها بكامل بهائها تدخل المنزل ، تنفّس الصُّعداء ، واندسّ في فِراشه ، ولم يشأ أن يسألها ، ولا أن يلفتَ انتباه أمّها . فقط هتف في نفسه : «ما الّذي أصابَ هذه الصّغيرة!!» .

مضتْ أيّامٌ استعادَ فيها الأبُ هدوؤه من القلق الّذي أحاط به في تلك اللّيلة الّتي رأى فيها صغيرته تعود إلى البيت وحدها بعد أن مضى أكثر الظّلام . وعادَ نهر المودّة يسيل في القلب ، وكثيرًا ما جَلَسا تحت

عريشة العنب يتسامران، وتنضمّ إليهما الأمّ بعد أن تكون قد أنهت
تلاوة تسبيحات اللّيل. ويتبادلان الأحاديث على بساطٍ من الرّضى.

جهّزتْ نفسَها هذه المرّة، لتصعد قمّة الجبل الكَنَسيّ. انتظرتْ
هُجُوع الأبوَين. وشدّتْ همّتها باتّجاه الطّرق الصّغيرة الّتي يُفضي
تتابُعها إلى ما تريد. كان اللّيل قد سكَن، والهدوء قد لفّ القرية
بأكملها. والبيوت قد أطفأت مصابيحها، ونامَ أهلوها. ولم يبقَ إلّا
قليلٌ من البيوت المُضاءة، حين أشرفتْ على القرية من إحدى التّلال
الصّغيرة بدت القرية جنّيةً نائمة مُمدّدة على سفح الجبل المُقابل، وقد
أبقتْ بعضَ عيونها تلمع في جُنح الظّلام. تابعت السّير إلى بيت
الرّبّ الّذي لبثتْ فيه أمّها من عُمُرها سنين. كانت القبّة الّتي تكتسي
بالصّليب في أعلاها هي الّتي تظهر في البداية، وكلّما صعدتْ أكثر،
واقتربتْ من الموضع تبدّتْ لها أجزاء أخرى من الكنيسة. هذه المرّة لم
تأتِ بالشّاي معها؛ تعرف أنّ قمّة جبل البئر بعيدة، وفي ليلةٍ واحدة
عليها أن تزور إحدى القمّتَين فحسب. عندما صار المبنى التّاريخيّ
على بعد عشرات الدّقائق منها، تنفّستْ عميقًا، وأخذتْ قسطًا من
الرّاحة، وأرسلتْ طَرْفها في السّهول البعيدة المنبسطة جهة الغرب على
أغوارٍ عميقة، بدتْ كفًّا تُمهّدُ للوصول إلى فلسطين، يقطع الكفَّ شرخٌ
أخضرُ صُنِعَ من بلّور يتهادى على طول الكفّ الممدودة؛ إنّه نهر
الأردنّ، الّذي يظهر ويغيب، ويقترب ويبتعد من المكان، ويتلوّى
كأفعى فِضّية أصاب الخَضِرانُ بطنَها.

تابعتْ سيرها بعد ذلك حتّى وقفتْ وقفة الهائب أمام البيت
المُبَجّل. كان اللّيل قد انتصف. والنّوافذ الملوّنة ينعكس ضوؤها القادم
من القاعة فَيغطّي مساحةً ناعمةً من الأرض كأنّما يرشّ عليها ظلاله

الهادئة. تساءلتْ فيما إذا كان الرّهبان والرّاهبات يؤدّون تسابيح اللّيل!!
وصلت البوّابة الحديديّة، وسرعان ما ألفتْ نفسها داخل السّاحة
الواسعة، دارتْ حتّى وصلت النّافورة، خفق قلبُها جَزَعًا حينَ رأتْ
تمثالَي المسيح والعذراء على جانبَي النّافورة، حانتْ منها التفاتةٌ باتّجاه
العمود الّذي يرتكز على إحدى زوايا محيط النّافورة فانقبض قلبُها
أكثر، تذكّرتْ قصّة هيلينا الّتي حدّثتْها أمّها عنها. سَمعتْ صوتًا
خفيضًا، أرهفتْ سمعها لتتبيّن مصدره، فخُيّل إليها أنّه قادمٌ من قاعة
الصّلوات، لكنّها سرعان ما اكتشفتْ أنّه أقرب من ذلك؛ أصاختْ
سمعها من جديد؛ إنّه قريبٌ جدًّا لدرجة أنّها ظنّتْ أنّه خارجٌ منها هي
نفسها. أحسّتْ أنّها بدأتْ تُهلوس. نفضتْ رأسَها. وطردت الوساوس
بعض الصّلوات. وصمتتْ لتتبيّن المصدر من جديد، نعم كان قريبًا
إنّه صادرٌ من العمود الّذي لا يبعد عنها أكثر من مترين. حدّقت النّظر
فيه فخُيّل إليها أنّها ترى جُثّةً مشنوقةً تتدلّى من تحته. كانت الجثّة
تتكلّم بكلمات غير مفهومة. أصابها الهلع. وتجمّد الدّم في عروقها.
لكنّ فضولها لسماع الكلمات كان أكبر من خوفها، فتغلّبت على
الأخير لتعرف الأوّل. أنصتتْ من جديد حتّى كادتْ تسمع دقّات
قلبها تخفق بشدّة، أمالتْ رأسها جهة الجثّة المترائية لها، سمعتْها
تقول: «أنا لم أنتحرْ. لقد قتلوني بعد أن خطفوا ابني منّي». تشجّعتْ
وسألتْ: «من هؤلاء الّذين قتلوك؟!». لكنّها لم تسمعْ ردًّا. صمتتْ
صمتَ القبور لتسمع شيئًا جديدًا. لكنّها لم تسمع غير خرير الماء
الهادئ الّذي يتدفّق من فم النّافورة. نظرت إلى العمود، فلم تُشاهد
أيّ شيءٍ يتدلّى من تحته؛ كانت الجثّة قد اختفتْ!!
أكملتْ مشيها في السّاحة، ودارتْ حتّى وصلتْ الجزء الشّرقيّ

من الكنيسة ، تبدّتْ لها ثلاث شجرات عتيقات يرتفعن عاليًا في منتصف الجدار الشّرقيّ حتى يَكَدْنَ يُغطّينه بالكامل مع كلّ ارتفاعه الكبير . كانت الشّجرات مائلات في هيئة متعانقة كأنّما يُخبّين شيئًا تحتـهنّ . وصلتْ إلى الأولى الّتي تشكّل رأس المُثلّث بينهنّ ، مدّتْ يدها وتلّمستْ جِذعها المُوغِلِ في القدم ، همستْ : «كم من نبيّ فعل مـا أفعل ، وكم من قِـدّيس وقفَ مـثلمـا أقف ، وفكّر بمثل مـا أفكر» سرحتْ بخواطرها وهي تتخيّل وفودًا من المؤمنين يصطفّون في طوابير طويلة ، يتقدّم كلّ واحدٍ من هذه الجاميع فينحني أمام المسيح ، ويقبّل يده ، وفي المقابل يهبه المسيح بركته ، ويُلقـمه في فـمه قطعةَ خبز مغموسةً بالماء المُقدّس ، ثمّ يمضي ، ويأتي دور الّذي خلفه ، وفي كلّ مرّة يهتف به المسيح : «خُبزُنا كفافنا» .

استمرّ الهذيان التّخيّلي لدى بتول ، فاشتطّتْ بعيدًا . رأتْ أبواب الجنّة تُفتَح والمسيح قائمٌ على أكبر هذه الأبواب . وكلّما اقترب أحدُ التّائقين للدّخول ، مدّ المسيح يده ، فإن مدّ اليُمنى كانت البُشرى فدخل الجنّة ، وإنْ مدّ اليُسرى كانت الحسرةُ والنّدامة فأقصِيَ عن الدّخول . اقتربتْ أكثر من الباب الأكبر لتجرّبَ حَظّها . أصابها الرّعب للحظات حين توقّعتْ أن المسيح سيَمُدُّ يُسراه ، أغمضتْ عينيها حتّى لا ترى . نعم لم تَرَ لكنّها سمـعتْ . سمـعتْ صوتًا عـميـقًا يصرخ مُستنجدًا . فتحتْ عينَيها ، ولعنت الشّيطان ، ظنّت أنّ الصّرخة صاح بها الشّيطان ليُبعِدها عن يد المسيح . لكنّ الصّرخة عادتْ لتعلو من جديد . كـان صراخًا بشريًا مُستغيثًا : آآآآه . . . آآآآآه . . . ظنّتْ أنّها تحلم ، لكنّ الصّوت لم يُمهلْها كثيرًا لتعرف أنّها الحقيقة وأنّها لا تحلُم ، عـاد الصّوت إلى الظّهور مرّة ثالثة ، كـان يبـدو قـادمًا من تحت الأرض

البشريّ يُعَذَّبُ بقسـاوة . ركضتْ مفزوعةً ، تجاوزتْ البوّابة الحـديديّة ، وانطلقتْ باتّجاه القـرية . ظلّ ذئب الخوف يُطارِدها من خلفـها حـتّى التصقتْ على البيت . دخلتِ البيتَ لاهثةً لا تلوي على شيء!!

(١٢)
مَنْ باعَ قَلَمَهُ خانَ وَطَنَه

«لقد جُنّت ابنتُنا يا مريم!! لم تعدْ تلك الّتي نعرفها . ما الّذي يحدثُ لها؟!» . «لا تقلق يا وهيب ، مجرّد أيّام وينتهي كلّ ذلك» . «كيف؟!» . «الجامعة ستُذهلُها عمّا هي فيه . أجواء القرية هنا تجعل الحليم حيرانَ . دَعْكَ من الرّجم بالغيب ، واتْركْ لها شيئًا من الحرّيّة لتستمتع بما هي فيه . وستكشف لكَ الأيّامُ صِدقَ ما أتوقّعه» .

يومًا ما ستصيرون رمادًا . انظروا إلى ما حولكم يا إخوتي ؛ هذه الأسماء كانت لنا عندما كنّا نحجز حيّزًا فوقَ هذه الأرض ، وحينَ نغيبُ في جوفها سوفَ تغيبُ هي أيضًا معنا . لا تتركوا أسماءَكم تتعفّنُ من بعدكم ، احموها لتحميكم ؛ احموها بالسّيرة العَطِرة ، بالكلمة الطّيّبة ، بالعمل الصّالح ، بمحبّة الآخرين ، وإيّاكم أن تلطّخوها بالكُره أو بالحقد أو بالحسد ؛ إنّما ذلكم الشّيطان يُعلّم أولياءه كلّ هذه المكاره ؛ أمّا المؤمنون فيُحسنون حتّى لو أساء النّاس ، ويصدقون حتّى لو كَذبوا ، ويَفُون حتّى لو غَدَروا!!

ماذا تبقّى لكم هنا مِنْ بعدكم؟! أنتم الّذين تُقرّرون . انظروا إلى ما حولكم يا إخوتي ؛ ها هي الكِلاب تتهارش ، وها هي الذّئاب تتقاتل ، وها هي الثّعالب تتعارك ، وها هي الجِراء يعضّ بعضُها بعضًا ، وها هي

الأسماكُ يأكلُ بعضُها بعضًا ؛ والكلّ إلى مطحنة الفناء صائر ، وإلى مقبرة الحياة ماض ؛ فَلِمَ إذًا أتيتم إلى الدّنيا؟! أَلكَي تفعلوا ما تفعل هذه الدّواب ؛ تتهارشون فيما بينكم وتتعاركون ثمّ تَزُولون كأنْ لم تكونوا؟! لا والحقّ ؛ إنّما أتيتم لتعرفوا هذا الحقّ؟! وهذا الحقّ لا يكشفُ لكم حُجُبَه إلاّ إذا أحببتموه ، ولا يُمكن أن تُحبّوه إلاّ إذا أحببتم عياله فتحاببتم فيما بينكم!!

يا لَهذا الجسد المسكين ؛ كلّ ما يقع تحت طائلته من مَأكل ومَشرب ومَسكن ومَلبس ومَركب ليسَ له ، إنّه هو عَرَضٌ يضعه الله بين يديه ، فإذا سلبه منه ظلّ حيران لا يدري ما يفعل . فازهدوا في العَرض ، ولا تزهدوا في الجوهر ؛ إنّما العَرَض مثل التّراب العالِق في الكفّ ؛ لا فائدة منه ؛ وكلّنا يرغب أن يتخلّص منه ، أمّا الجوهر فإنّه هناك ؛ في القلب المؤمن ، والرّوح المطمئنّة . إنّما يكفي المرتحلَ جُرعةُ ماء صافية وكِسرةُ خبز صالحة .

اختارتْ كلّيّة الصّحافة . قالتْ إنّها الأقربُ إلى طبيعتها الجريئة ، وروحها المُتسائلة ، والحقيقةُ الّتي تبحثُ عنها . ولم يكنْ لأحدٍ أن يعترض على رَغَباتِ الفتاة المُدلّلة . وها هي تُسجّل في السّنة الأولى في كلّيّة الصّحافة بالجامعة ، وتستعدّ لخوضِ بحر جديد ، ومُعاينة تجربة جديدة ، ومستقبلٍ مثل الأفق ؛ واسعٌ لكنّه غامضٌ .

رافقها أبوها في كلّ أيّامها الأولى في الجامعة ، حيثُ اختار معها الموادّ ، ونسّق مَعها أوقات الدّوام ، وناقَشها في أبعد من ذلك ؛ في ساعات الدّراسة والاستراحة والنّوم والأكل . وتوقّفا قليلاً عند مسألة السّكن :

– مستعدٌّ أن أوصلكِ كلّ يوم إلى الجامعة وأعودُ بك .

- ليسَ إلى هذا الحدّ يا أبي . لا تُتعبْ نفسَكَ .
- ليسَ من تعبٍ عليّ يا حبيبتي .
- لكنّكَ لم تفعلْ هذا مع وائل وسلوى .
- لقد كَبُرا يا صغيرتي ، وأنتِ ما زلتِ في نظري طفلتي المُدلّلة ، ولا أريد أن أحرمَ ناظرَيّ من رؤيتكِ كلّ يوم .
- لا تخفْ ؛ فأنا لم أعدْ صغيرة . وسأبحثُ هنا في المدينة عن سكنٍ مُناسِب .
- إذًا نبحثُ عنه معًا . لن أتركَكِ حتّى أطمئنّ على كلّ شيءٍ يخُصّكِ .

كان سكنَ طالباتٍ ضخمًا . اتّخذتْ مع عدد من رفيقاتها شقّةً ، وشاركتْها فيها ثلاثٌ من زميلاتها في تخصّصات مُختلفة . وعادَ الأبُ أدراجه إلى القرية وهو يحسّ أنه قد ترك قلبه هناكَ . ظلّتْ عيناه تذرفان الدّمعَ طَوال الطّريق كأنّما فقدها إلى الأبد . وحينَ دخل البيت احتضنتْه مريم ، وراحتْ تُهدّئ من رَوْعه وهو ينشج مثل طفلٍ صغير . أمّا هي فراحتْ تحسب المصائب الّتي ستتوالى بسبب هذا الحبّ الجنونيّ ، ولم تشأ أن تفكّر أكثر في الكوارث الّتي سَيَجُرُّها على البيت وسُكّانه . قال لها بصوتٍ مُتقطّع وهو في غمرة نحيبه : « أتمنّى لو كان بمقدوري أن أتحوّل إلى طيفٍ وأحرسَها طوال الوقت . ليتني أكون ملاكها الحارس الّذي لا يُفارقها في صحوٍ ولا منام» . «هَوّنْ عليكَ يا رجل أنتَ تقتل نفسكَ وتقتلها بهذه الطّريقة . اتركها لكي ترى طريقها وحياتها . لا أدري لماذا تصرّ على أن تظلّ في نظركَ صغيرةً يا رجل!!» . «إنّها كذلك يا مريم ، إنّها كذلك ما زالتْ صغيرتي ، وستظلّ صغيرة» . «لقد جُننتَ يا وهيب . . . حقّا جُنِنْتَ» . «إنّه ليس جنونًا يا مريم ، بل

الرّحمة . الرّحمة . ماذا أفعل إذا جعل الله محبّتها مغموسةً بلحمي ، معجونةً بدمي!!» .

ها هي البوّابة العالية تفتح ذراعَيها لها من بعيد ؛ إنّه العالَم المختلف الّذي تَلِجُه بتول هذه المرّة . خطتْ بخُطُوات متفائلة قاطعةً الشّارع الّذي يفصل بين سَكَنها والجامعة ، قاصِدَةً كلّيّة الصّحافة ، لتنتهي إلى أوّل قاعة ستدخلها في أوّل محاضرة لها في عمرها الآنيّ . تذكّرتْ بوّابة الكنيسة وهي تقف تحت بوّابة الجامعة ، وعنّتْ ببالها قاعة المواعظ حين صارتْ على مقربة من قاعة المُحاضرات .

بدتْ مجموعات الطّلاّب وهي سائرة في أسرابٍ وأفواج مثل أولئك الحُجّاج الّذين كانت تلتقيهم مع أمّها بين فترةٍ وأخرى . فكّرتْ : «إذا كان كلّ هؤلاء سيُصبحون عُلماء في المستقبل فلا بُدّ أنّ دولتنا ستُصبح عُظمَى» . استدركتْ : «هذا إذا كانوا جادّين في طَلَبهم العلم ، وإذا كان العلم الّذي يُعطَى لهم مُنتجًا ولا يبقَى في حدوده النّظريّة» . تابعتْ مسيرها وهي تعرف أنّ كثيرًا من أفكارها ستتسبّب لها مشاكل إنْ لم تعرف كيفَ تقولها ومتى تقولها .

ها هي كلّيّة الصّحافة بكامل أبّهتها تبدو وادعةً وقد ظلّلَتْها من الشّمس كلّيّةُ الآداب الّتي تقع إلى يمينها . تجاوزت الممرّ الّذي يفصل بين الكُلّيّتين ، وصارتْ في السّاحة الّتي تتصدّر كلّيّتها . كانت السّاحة مرصوفةً وواسعة ، وعلى أطرافها تناثرتْ بشكلٍ مُنتظم بعضُ المقاعد المُغطّاة بمظلاّت . شاهدتْ عددًا من الزّملاء - أو الّذين سيُصبحون عمّا قريب - زملاء لها يتّخذون من هذه المقاعد مجالس لهم ، إمّا لمراجعة بعض المعلومات قبل الدّخول إلى المُحاضَرات أو الامتحانات ، وإمّا لمناقشة أمرٍ ما ، وإمّا لمجرّد الحديث وتزجية الفراغ الحاصل بين

مُحاضرةٍ وأخرى . لم تكنْ تدري بعدُ أنّ أحد هذه المقاعد سيشهد عمّا قريبٍ زخمًا نقاشيًا بينها وبين صالح أحيانًا ، ومُراد أحيانًا أخرى .

على يمين مدخل الكلّيّة الخارجيّ لفت انتباهَها حجرٌ ذكّرها (بحجر رشيد) الّذي قرأتْ عنه في مادّة التّاريخ ، كان هذا الحجر شبه بيضويّ وقد نُقشَتْ عليه ثلاث عبارات بصورةٍ هندسيّة فنّيّة : «السّلطة الرّابعة تُقدّم الحقيقة على الجماهيريّة» . وفي الوسط : «الصّحافة فروسيّة ، والكلمة الحُرّة تتفوّق على السّيف» . وفي النّهاية : «مَنْ باع قلمه خان وَطنَه» . ابتسمتْ وهي تقرأ العبارة الأخيرة ، وتمنّتْ ألاّ يكثُر هؤلاء من هذا الصّنف ، وألاّ تلتقيهم في حياتها .

القاعة (صح ١٠٢) إذًا هي أوّل قاعة تدخلها في أوّل أيّامها الدّراسيّة . لم يكنْ فيها أيّ شيءٍ يلفتُ الانتباه في البداية . اتّخذ الطّلاّب المُسجّلون في المادّة مقاعدهم قُبيل موعد المُحاضرة ينتظرون وصول الدّكتور . بدا الأمر روتينيًا يجري برتابة كأنّ دَفْعًا ذاتيًا هو مَنْ يُصرّفه حتّى ظهر الدّكتور فغيّر شيئًا من رتابة الجَرَيان بمنظره في البداية ؛ كتلةٌ شوكيّة على شكل قُبّة تعتلي قُمعَ الرأس ، ونظّارة ذات إطار أسود بعدسات واسعة ، وسيجارٌ غير مُشتعل حافظَ عليه في زاوية الفم طَوال الحصّة دون أن يُؤذي الطّلبة بدُخانه . وكلمات مخلوطة بين الإنكليزيّة والعربيّة ، وإنْ كان صاحبُها يبدو أنّه تدرّب على ألفاظها الإنجيلزيّة غير مرّة حتّى يرطنَ بها أمام الطُّلاّب الّذين كانوا طُيورًا من بِقاع شتّى ، ووروداً بألوان مختلفة . كَرِهتْ في داخلها هذا التّصنّع الّذي ظهر عليه أستاذهم ، واستاءتْ أن يحصل هذا معها في أوّل محاضرة ، ولكنّها هتفتْ : «حتّى الطّين تعتاد خَوْضَه إذا لم يكنْ من

طريق تبلّغك الغايةَ إلاّ من خلاله» . وأردفتْ : «أرجو ألا يَضطرّني الأمر إلى الاعتياد» .

– «إنّ الصّحافة عَالَمٌ يأخذ من كلّ عِلم بطرف ، فهي تنتمي إلى العلوم الطّبيعيّة والعلوم الاجتماعيّة . وهي لاَ تُخلي نفسها من الولوج إلى السّياسة والاقتصاد ، والتّحدّث عن اليوميّ والمُعتاد ، ومُخاطَبة الشّعبويّ والنُّخبَويّ» .

– هذا يعني أنّها بلا دين . (قال ذلك أحد الطّلبة مستأذنًا ومُتسائلاً) .

– دَعْنا نَقُلْ إنّها تعتنق جميع الأديان .

– الدّين إمّا أن يكون دينًا واضِحًا ، بيّن الرّسالة ، وإمّا أن يكون خليطًا فلا يكون دينًا .

– قلتَ لي ما اسمُك؟!

– صالح يا سيّدي . اسمي صالح .

– دَعْني أقلْ لكَ شيئًا ؛ الصّحافة والسّياسة يشتركان في كثير من الأمور ، فهما – على سبيل المثال – خادِعان ، متقلّبان ، ويُقدّمان المصلحة على الحقيقة .

– إذًا ؛ وما الشّعارات المنقوشة على حجر الصّحافة في المدخل هناك؟!

– دَعْكَ من الشّعارات ؛ الشّعارات أيضًا تنضمّ إلى هذا الثّالوث ؛ فهي مثل أختيها كاذِبة ومُراوِغة ، وكذلك مُنافقة .

– هذا هو اللاّدين .

– تمامًا ، ومع ذلك قد تضطرّ إلى أنْ تعتنقه أحيانًا ، أو مُداهنته أحيانًا أخرى .

كان (صالح) هو الشّابّ الوحيد الّذي لفت انتباهها في تلك المحاضرة من بين جميع الطّلاّب الّذين بدوا كتماثيل ليسَ لهم من فضلٍ إلاّ في أجسادهم المُلقاة على المقاعد كأحجارٍ صمّاء . حرّك ذلك شيئًا ما في داخلِها . تعشق هي المُحاورة ، وتحبّ أنْ تغيّر مواقع الخلايا في دِماغِها الّتي تضجّ بمئات الأفكار وآلاف الهواجس في كلّ لحظة .

(١٣)
سأزْرَعُ تلكَ الصَّحْراءَ بورُودِ العشْقِ إنْ ساعدَني في سقْيِها

«إنّه يُفكّر كرجل ، ويتكلّم كعالِم ، ويُناقِش بهدوء وثقة كَمَلك . . . وصوتُه ؛ لا تقولي لي كيفَ صوتُه؟! مثلَ يسوع حينَ وقفَ في اللّيلة الأخيرة بينَ حوارِيّيه وألقى عليهم تعاليمه الوَداعيّة . . . وعيناه ؛ لا تقولي لي كيفَ هما عيناه؟! وادِعتان كَحُلم ، صافِيتان كَنبع ، صادِقتان كَنَبيّ . . .»

«أنت عاشقة يا فتاة؟!» . «كلاّ يا وَعْد ؛ أنا مُغرَمة» . «وما الفرق يا فصيحة؟!» . «الأولى عَرَض والثانية جوهر . الأولى رحيل والثّانية بقاء» . «لقد جُننت يا مَقصُوفة» . «بالضّبط ؛ يبدو أنّه الجنون» .

وتتابعتِ المحاضرات ، وازداد الشّغف ، وتابع هو دون أن يدري الإمعان في غرسِ وردة ناضِرة في سويداء القلب لا تذبُلُ أبدًا . وصارتْ مشاركتها في طرح الأسئلة على الدّكتور مُنافَسَةً أو مُناكفةً أو مُجاراة . وهو بهدوء الواثق المُطمئنّ استمرّ في مُحاصرتها بحبّه ، حبّه الّذي جاء عفوًا دون أن يقصد إليه ، ودون أن تدري هي كيفَ يجيء ، على أيّ جناح يطير ، وفي أيّ خلجة من خَلَجات النّفس يَحُطّ .

– الأنظمة الصّحفيّة العربيّة ليستْ إلاّ صورةً للأنظمة السّياسيّة . (قال الدّكتور) .

– تقصد أنّها فاسدةٌ إذًا . (ردّ صالح) .

– لا . . . لا . . . أقصد أنّه في بلدٍ ما تكون سلطويّة ، وفي آخر قوميّة ، وفي ثالث اشتراكيّة ، بحسب سيادة النّظام السّياسي في كلّ بلد .

– إذًا تقصد أنّها كوكتيل ، ولأنّه غير متجانس ؛ فهو كوكتيل غير قابل للهَضم .

– وما نوع الصّحافة الّتي تنشُد يا صالح .

– تلك الّتي تتوافق مع شعاراتها ، وتُقدّم الحقيقة على المصالح ولو كانت هذه المصالح تهدّد أَمْن المجتمع ، لأنّها إنْ فعلت فإنّما هي كمبضع الجرّاح ؛ يجرح ليُداوي ويُسيل الدّم ليُخرج من الورَم كُلّ خبيث .

– ولكنّ هذا لا يُمكن تحقيقه في أيّ بلدٍ عربيّ في الوضع الرّاهن .

– إذًا لا تقل لي عندنا صحافة حقيقيّة أو حُرّة . حينَ يتحرّر قلم الصّحفيّ من عبوديّته لحزبٍ أو لسلطة أو لفئة أو لجهة ما ؛ فحينئذٍ سنقول إنّنا نملك في بلادنا هذا النّوع المنشود من الصحافة .

وهكذا في كلّ محاضرةٍ كان يُضيف إليها صفةً جديدةً عنه . ها هو يبدو لها هذه المرّة جريئًا ، فصيحًا ، ذكيًّا ، وسريع البديهة ، وقادرًا على تحليل الموقف بدِقّة . وهي إذا تُضاف إلى سابق موصوفاته لتُؤسّس لقاعدةٍ للحوار معه ، وطريقةً للالتقاء به . يُعجبها أن تجد مَنْ يمتلئ فهمًا وحكمةً مثله ، ويُناور كداهيةٍ سياسيّ ، ويُلقي أحكامه كخبيرٍ استراتيجيّ .

في البيت لم تجدْ مَنْ تلجأ إليه غير (وعد) زميلتها الّتي تدرس

العلوم التّربويّة معها في الجامعة ذاتها . وأمّا الزّميلتان الأخريان فلم تكنْ تراهما إلاّ نادرًا بسبب اختلاف أوقات المُحاضرات والامتحانات والدّراسة ؛ ولم تجتمعْ معهنّ تحت سقف البيت إلاّ حينَ يُغلَق السّكن ويكون وقت النّوم قد أزف ، ولم تكنْ على وفاقٍ معهما ، ولم يتأسّس بينهنّ أيّ نوع من العلاقات ، وجميعهنّ كُنّ مسيحيّات مثلها . ذلك حسبَ رغبة والدها الّذي همسَ في أذنها عندما سألتْه بتول : «لِمَ تُصرّ على أنْ تختار لي هذا السّكن بالذّات» . «لأنّ مالكه من أصدقائي القُدامَى أيّام كُنت أعمل في مجال الفنادق ، وهو – وهذا المهمّ – مسيحيّ» . فتسكُت . ثمّ تسأله من جديد : «واللّواتي سأسكنّ معهنّ؟!» . «مسيحيّات» . «ولماذا؟!» . «حتّى لا تُفسِد عليكِ الأخريات دينَكِ ؛ مع أنّني واثقٌ من أنّكِ يُمكن أن تؤثّري على مئةٍ من المُسلمات ولا تتأثّري بواحدة منهنّ!!» .

الحبُّ لا يعرف العمر ، ولا يعترف بالدّين ، ولا يقف أمام البوّابات الجاهزة مهما كانتْ صَمّاء ، ولا يُمكن أن تَصُدَّ طوفانَه كُلُّ سُدود الدُّنيا . إذا سال طَغى ، وإذا طغى أغرق ، وإذا أغرقَ أمات ، وإذا أماتَ أحيا . إنّه داءٌ لا يُرجَى البُرء منه ، يَقبلُ به المُصاب راضيًا مرضيًّا ، ويستعذبُ فيه العذاب ، ويجد فيه الشّكوى لذيذة ، والمُرّ حُلوًا ، والعَلقمَ عسلاً . إنّه إن ثَبَتَ في الفؤاد لم تُخرجه كلّ قُوى الكون ، وإن استقرّ في السّويداء مكث إلى آخر العُمر ، ولم يغادر إلاّ إذا غادرت السّويداء ذاتُها جسدَ الإنسان وما ذلك إلاّ بالموت . إنّه أكبر من أن يُفسّر ؛ لأنّه التّفسير لكلّ جنون . وهو أعظم من أن تُدير عنه صفحةَ قلبك لأنّه هو قلبُك فإلى أيّ جهةٍ تفرّ ، وهو المفرّ والجهاتُ كُلّها؟!!

طائره إذا غَنّى أطرب . وكلماته إذا قيلتْ نفذتْ إلى الحشا . نهربُ

منه فنلقاه في كلّ شيء ؛ يُحاصِرنا في كلّ درب ، ويواجهنا عند كلّ مُفترق . نحاول أن ننساه فتتسابق الأحداث على أن تُذكّرنا به . ونجهد في أن نقول إنّه لا شيء وسينتهي هذا الإحساس عمّا قريب ؛ فنكتشف أنّه كلّ شيء ، وأنّ الإحساس به مثل النَّفَس ليس بأيدينا ولا يُمكن إيقافُه!!

«هل هو مسيحيّ؟!» (سألْتُها وَعد) . «لا ، بل مُسلم» . «لقد وقعت يا فتاة ورُحتِ بداهية» . «ولِمَ تقولين ذلك؟!» . «كونُهُ مُسلمًا يعني أنّ الخندق الّذي بينكما يمتدّ إلى ما لا نهاية ، وأنّ الصّحراء الّتي تفصل بينكما ستغطّي الأفق عاريةً من أيّ حياة» . «سأردم هذا الخندق بجسور المحبّة إن ساعَدَني هو على ذلك ، وسأزرع تلك الصّحراء بورود العشق إنْ ساعدني في سَقْيِها» . «وهل يفعل . . . هل شعرت أنّه يُبادلُكِ شيئًا من هذا؟!» . «كيف أعرف ذلك ولم يَدُر بيننا أيّ حِوار؟!» . «من عينيه ؛ العينان تقولان أكثر مِمّا يقول اللّسان» . «لم أنظر في عينَيه مُباشرة ؛ شيءٌ ما كان يمنعني ؛ لا أدري ما هو!!» . «مجنونة ؛ كَلِّميه غدًا بعد المُحاضرة» . «مُمكن ؛ ولكنْ لا بُدّ من مدخلٍ لهذا الحِوار» . «بالضّبط» . «ما رأيُكِ؟!» . «دَعِينا نُفكّر ؛ لا بُدّ أن نجدَ وسيلةً ما» .

– للكتابة الصّحفيّة قواعد ؛ أوّلها ألاّ تكون سَرديّة ، وثانيها أن تكون ذات جمل قصيرة ، وثالثها أن يكون لها مُعجمها الخاصّ من حيثُ اللغة .

– أوافقك الرّأي أستاذنا ، وأسجّل مُلاحظتي على الثّالثة . أرى أنّ معجم اللغة في صحافتنا يحتاج إلى تجديد .

– ولِمَ؟!

– لأنّه مهترئ ، وهو صوتُ الحاكم ، ويجعل مناطَ الأمر دائرًا على ما يفعله صاحب السّلطة ، حتّى إنّه لو دخلَ الحمّام لدخل معه لولا الحياء . وها أنتَ ترى النّتيجة .

– ما النّتيجة يا صالح؟!

– انقسام بين فِئات المجتمع دون وعي ، ونفاق صاحب اللّسان خوفًا من صاحب السّلطان ، وانتشار للكذب والشّائعة ، حتّى صار صاحب الكذبة يُصدّقها لكثرةِ الأبواق الّتي تُردّد خلفه ، وتنساق وراءه!!

– وما المخرج؟! قُلْ لزملائك ما المخرج؟!

– من جديد لا يُوجَد مخرج ؛ هذه الصّحافة بحاجة إلى نَسف ، وإعادة بناء من جديد . لأنّها قامتْ على أساساتٍ مُتعفّنة .

انفضّ الطّلاّب من القاعة ، وظلّتْ تُراقبه من بعيد تتحيّن الفرصة لمواجهته . لم يبرح كرسيّه وصارت الفرصة مواتيةً لمحادثته . كان يبدو مُنهمكًا في قراءة كتاب بين يديه ، غَطَسَ رأسه فيه وذَهَلَ عمّن حوله . صارت القاعة خاليةً إلاّ منهما . تناهى إلى سمعها أصوات زملائها وزميلاتها في الخارج يحكون كلامًا وكلامًا ، ويضحكون ويُقهقهون ، أحسّتْ أنّهم يفعلون ذلك بلا معنى ، وأنّها عند هذا الكائن القابع في مقعده ستجدُ كلّ المعنى . تقدّمتْ خُطوةً فارتفعتْ حرارةُ قلبها قليلاً ، خطوةً أخرى باتّجاهه جعلتْ خَدَّيْها تتورّدان كجمرتَين ؛ هتفتْ في نفسها : «واضحٌ أنّكِ عاشقة ، وأنّكِ في مراحلَ مُتقدّمة منه» . شجّعتْ نفسها لتخطو الخُطوةَ الثّالثة ، ارتجفتْ ساقُها اليُمنى هذه المرّة ، فضحكت وهي تمتلئ خوفًا : «على حساب أنّكِ شُجاعة وتصعدين قمم الجبال المُرعبة في منتصف اللّيالي . . . كلّ هذا وتَجبُنين من

الكلام مع زميل . . .!!» . أعادتْ الجملة الأخيرة لتهب نفسَها جرعةً
زائدةً من الشّجاعة : «الكلام مع زميل . . . إنّه مجرّد كلام . . . ومع
زميل . . . ماذا سيفعل لك؟! سيأكُلك؟! هل هو غُولٌ؟! إنّه أرَقُّ من الماء
الزُّلال في النّهر الجاري ، وأحنّ من رقّة حمامةٍ على سطح ناعم . . .
وهو . . . سيتفهّم» . توقّفَ رَجَفان ساقِها اليمنى ، واستعادَتْ رباطة
جأشها لتتقدّم الخُطوة الأخيرة ؛ كلّ هذا وهو صامتٌ غارقٌ في كتابه لا
يشعر بالعوالم التي تضجّ من حوله . عندما صارتْ بجانبه ، التفت
إليها ، وحينَ وقعتْ عيناه عليها ابتسم . فعلت ابتسامته فيها ما يفعل
طوقُ النّجاة بالغريق ، وما يفعل الماءُ الباردُ في الحرّ القائظ بالظمآن ،
فهدأتْ كلّ العواصف الّتي كانت تُزمجِرُ في أعماقها قبل قليل ،
وانقشعتْ كلّ سُحُب الضّيق ، وغمامات التّردُّد . اتّسعتْ ابتسامته
أكثر ، وأزاح النّظارة عن عينَيه ، وأغلق الكتاب وركَن النّظارة فوقها :

- تفضّلي .
- أنا بتول .
- تشرّفْنا .
- هل يُمكن أن أكلّمكَ قليلاً .
- بالطّبع . . . هنا . . . أو في السّاحة . . . أو في الكافتيريا؟
- مثلما تشاء .
- جميلٌ أن تُعطيني الخيار . . . هل هو بداية الحرّيّة في مُحادثة
بينَ شَرقيّين!! (وضَحِكَ ضَحكةً خفيفةً) .

أمّا هي فصمتتْ ، لم تَدْرِ ماذا تقول ، أو بالأحرى لم تفهم . وتابعَ
هو مُستَغِلاً لحظةَ صمتِها :

- دعينا نذهبْ إلى السّاحة إنْ لم يكنْ لديكِ مانع .

منفرجا ، صار الحجر الصّحفيّ عن يسارهما ، لفتَ انتباهَها إليه ،
سألها إنْ كانت قرأتْ هذه الأكاذيب من قبل ، فلم تُجب . كان لسانها
قد انعقدَ آنئذ ، احتاجتْ أن تتبعه كقطّة أليفة ، وأن تُمرّن فكَّيها لتُرغم
حجر الكلام على التّحرّك قبل وصولهما إلى السّاحة ، كان عليها أن
تقول شيئًا قبل أن يظنّ أنّها خرساء أو أنّها لا تُجيد الحِوار ، وهي الّتي
لم تتركْ لا حجرًا ولا بشرًا ولا ثمرًا إلاّ حاورتْه بأبلغ العبارات .

اختار لها مقعدًا في السّاحة خاليًا بعيدًا عن الضّوضاء ما أمكن ،
وهتف بها وهو يركن ما في يديه من كتبٍ وأوراقٍ في المسافة الفاصلة
بينهما :

- كُلّي آذان صاغية .

فتحتْ حقيبتَها ، وراحتْ تبحثُ فيها بأصابع مُرتجفة ، خُيّل إليها
لوهلة بسبب التّوتّر أنّها لن تجد المقال ، فازداد توتّرها ، وراحتْ تُبعثر
موجودات الحقيبة ، وهدأتْ أنفاسُها المُتلاحقة حينَ وقعَ أخيرًا المقال
بين يَدَيها . كان يُتابِعها في هذه اللّحظات بهدوء وهو يبتسم . مدّتْ
إليه المقال بشيءٍ من العصبيّة غير المقصودة ، وقالتْ بكلمات
متسارعة :

- هل يُمكن أن تقرأ هذا المقال؟!

اتّسعتْ ابتسامته وهو يتناول من يدها المرتجفةِ ورقةً مطويّة ، لم يشأ
أن يفتحَها قبل أن يُباغتها بقوله :

- انظري إلى عيون الزّملاء من حولنا ، إنّنا نبدو لهم كعاشقَين
كلاسيكيَّين يتبادلان رسائل الغرام في محطّة القطار القديمة . . .
أتعرفين ما الّذي ينقصنا؟! لا ينقُصنا سِوى صوت القطار البُخاريّ . . .
وانفجر ضاحِكًا . . . ثمّ تابعَ : ولكنْ إذا شئتِ يُمكنني أن أمثّل صوته

أيضًا فيكتمل المشهد .

أمّا هي فأصابها الذّهول لردّة فعله ، بدتْ ثقته بنفسه عاليةً ، وأسلوبه في إدارة الحوار أُسلوبَ مُحترفٍ مُتمرّس .

– تسخرُ منّي؟!

– كلاّ . . . ولكنّ الأمر أبسطُ من ذلك . وهو أبسطُ ممّا تتخيّلين .

– أنا أوّل مرّة أُحادثُ فيها شابًا خارج العائلة وخارج . . . (صمتتْ مُوقفةً عجلة الكلام حتّى لا تنزلق)

– وخارج ماذا أيضًا؟! قالها مُحاولاً أن يمتصّ انفعالها من جديد .

– وخارجَ الكنيسة . (ردّتْ متردّدةً) .

– أنتِ مسيحيّة؟!

– نعم .

– ومُقتنعةٌ بالمسيحيّة؟!

– ماذا تقصد؟!

– أقصد هل تؤمنين بما تؤمنين به؟!

– أرجوك طلبتُ منكَ أن تقرأ المقال ، فدعْ نقاشنا لا يخرج عن ذلك .

– حاضِر . . . أقرؤه الآن ، وأعطيكِ رأيي فيه . أم نؤجّل ذلك إلى الغد؟!

– بل نُؤجّله إلى الغد .

(١٤)

القَدَرُ حكمَةُ الله الّتي لا تتجلّى لكَ إلاّ إذا كانَ نافذًا فيك

بعضُ الغَدِ لا يَطلع لأنّ اللّيل الّذي يسبقه طويلٌ إلى الحدّ الّذي يظنّ معه أنّه ليس ليلاً واحدًا . هذا الغَدُ المُنتَظر عندَ بعضِ العُشّاق يبقى مُنتظَرًا لفترات تمتدّ أعوامًا وأعوامًا . إنّه الزّمن الخاتل ؛ زمنُ العُشّاق غير زمن النّاس ؛ لزمنهم أنْ ينبعج حتّى يطول لقرون ، وله أن يُوجع ويذبح ويَكوي ويقتُل ، وليسَ في يده لا سِكّين ولا سيف ولا حتّى غُصن شجرة طريّ!!

انتظرها في الأسفل . «سيكون هذا بمثابة موعد ثابت يا حبيبتي ؛ في كلّ أسبوع سأنتظركِ هنا في الرّابعة مساءً» . نزل تدفعه السّعادة إلى الهرولة كطفلٍ حينَ رآها قادمةً من بوّابة السّكن ، بدتْ أجملَ ممّا كانت عليه حين تركها . حَضَنَها أمام النّاس فغاصتْ بين ذراعَيه ، بسط كفّيه على جانِبَي رأسها وضحك : «انتظرتُكِ سبعةَ أيّام بلياليها الطّوال . كلّ دقيقة مرّتْ كما لو أنّها عامٌ بِطوله» . «ألهذا الحدّ يا أبي؟» . «بلى وأكثر . لم تمرّ لحظةٌ إلاّ وأنا أفكّر فيك ؛ كيفَ تأكلين ، وكيف تنامين ، وكيف تقضينَ وقتك . كنتُ مشغولاً بك أكثر من انشغالي بنفسي» .

إنّه الأسبوع الأوّل الّذي تعود فيه بتول من المدينة إلى القرية .

شعرتْ عندما ظهرتْ البيوت الوادعة المتناثرة من بعيد أنّها تعبرُ حاجزًا بين عالَمين . لفحتْها نسمةٌ قادمةٌ من أشجار البلّوط تعرفها تمامًا . عوى كلابٌ بعيدةٌ . ثغتْ شِياه ترتع على جانبي الطّريق الزّراعيّ . وصاح فلاّحٌ بابنه أن يناوله ما تبقّى من صناديق العنب ليضعها في الشّاحنة . عرفتْ أنّ الفرق بين العالَمين شاسع .

استقبلتْها أمّها على البوّابة ، قبّلتْها ، وهتفتْ : «لقد كبرت أيّتها الشّقيّة في هذا الأسبوع الّذي غِبْتِه عنّا . في المساء جلس خمستُهم يتسامرون تحت عريشة العنب على ضوء القمر المتسلّل مثل لصٍّ ظريف من فوق أسوار البيت الحجريّة . تحدّثوا في أمور شتّى . عن الجامعة والمحاضرات والأصدقاء والدّراسة . تبرّع وائل بتقديم نصائحه لأخته السّنفورة بحُكم خبرته الطّويلة . ها هو الآخر يهمّ باستِلام الشّهادة الّتي بدتْ نجمًا غائرًا في السّماء بعيدَ المنال ، كلّما ظنّ أنّه في قَبْضَةِ اليد ، لم يقبض منه على غير شعاعه الباهت ، لكنّه هذه المرّة وعد أباه أن يكون هذا فصله الأخير في الجامعة ، ليتفرّغَ بعدها للعمل مع عمّه رُشدي في إدارة فندق غُصن الزّيتون . الفندق الّذي ما زالتْ حصّة أبيه فيه تتراجع بسبب عدم متابعته الأمور فيه ، فهو يلزم خُطا مريم الّتي بدورها تتبّع آثار المسيح لعلّ الخُطوة تقع على الخُطوة ، والكفّ تستند إلى ذات الشّجرة الّتي استند إليها ذاتَ يوم .

قال له وائل : «لا تخف يا أبي . لن يضيع لكَ فلسٌ واحدٌ ما دمتُ موجودًا . الحجّاج صاروا يتوافدون بالآلاف ، وإذا ظلّ اقتسام الكعكة بيد عمّي ، فقد يذهبُ هو بالطّحين ونعود نحن بالطّين» . فيردّ أبوه : «عمّك هذا ستتعلّم منه الكثير . أنا لم تعد لي رغبةٌ بالتّجارة ، فأنا قانعٌ بما نفعله أنا وأمّك ، وقد نموت في أيّة لحظة ، لكنّ هذا المال

لك ولسلوى ولبتول فاحرصْ على أن تُثمّره ، وعمّك لن يُقصّر معك في هذا» .

انتظرتْهم حتّى ناموا جميعًا . مرّ أسبوعٌ صعبٌ عليها ؛ هذا الفتى الّذي قدّمه القدرُ إليها استطاع في جلسة واحدة أنْ يهزّ مُعتَقداتها الّتي ظلّتْ تتشرّبها طَوال ثمانيةَ عشر عامًا!! حدّثتْ نفسَها : «لو كان نبيًّا لكان من السّهل التّصديق به واتّباعه دون تفكير ؛ لكنّه ليسَ كذلك ؛ إنّه مجرّد زميل ، لا يميّزه شيءٌ عن بقيّة الزّملاء» . أجابتْ كمن يريد الارتياح من الظّنّ السّابق : «تكذبين ؛ لو كان كذلك لما استحوذ عليك كلّ هذا الاستحواذ ، لو لمْ يكنْ مختلفًا لكان مثل ثلاثين فتىً آخر تضجّ بهم القاعة في كلّ محاضرة ، ولا يبدون أكثر من هياكل متحرّكة» . «فما الّذي فيه حتّى شغلكِ عمّنْ سِواه» . «مثقّف؟!» «فلأطردْ إعجابي بثقافته من خلال زيادة ثقافتي» . «جريء؟!» . «فلأكنْ أكثرَ جرأةً منه حتّى لا أقع في حِبال حُبّه» . «وسيم؟!» . «أنا أجمل فتاة عرفتْها القرية ، وأحلى بنت ستعرفها الجامعة؟!» . «واثق بنفسه؟!» . «أنا أكثر ثقةً بنفسي من المُريدين بربّهم» . «لكنّ هناك شيئًا آخر . . . شيئًا آخر لا يُفسّر ؛ ليسَ الثّقافة ولا الجرأة ولا والوسامة ولا الثّقة بالنّفس ؛ وإنْ كانت هذه كلّها تمهّد للّذي وقعتُ فيه ؛ إنّ هذا الّذي وقعتُ فيه يُشبه الإيمان تشعر أنّه وقر في قلبك فينشرح له صدرك وترتاح له نفسُك ولا تدري كيف ؛ هتفتْ سعيدةً كأنّما وجدتْ تفسيرًا معقولاً لحالتها : الحبّ إيمان ، والإيمان حبّ ؛ كلاهما يستقرّ في المهوى البعيد من القلب ، وسرّ تفسيرهما بيد الّذي أوجدهما فقط» .

صعدت الطّريق ذاتها ، تعرفها ، وتعرفُ كلّ ذرّةِ تُرابٍ على ممشاها ، منْ يعرف الآخر؟! كانت متأكّدةً من أنّ الطّريق هي الّتي تعرفها أكثر

ممّا تعرف هي الطّريق . رآها أبوها لكنّه كالعادة تظاهر بأنّه نائمٌ . لم يُطق أنْ يتركها هذه المرّة تعبر طريق الآلام وحدها ، تَبِعها خُفية ، وظلّ سائرًا خلفها بحيثُ يراها ولا تراه . لم يَرَ أيّ شيءٍ غريب وهي تهمّ بالسّير باتّجاه جبل الكاتدرائيّة ، إنّها تفعل ما كانا يفعلانه معًا حين كانت هذه الصّبيّة السّاحرة في الثّالثة من عمرها ، يومَ كان يحملها على ظهره طوال الرّحلة . واليوم ها هي لم تنسَ ، ولم تملّ . ولكنْ لماذا لا تدعوه لمرافقتها ، إنّه هو الّذي علّمها هذا الطّقس فَلِمَ يتخلّى التّلميذ عن أستاذه؟! لأنّه من المعيبِ أن يظلّ التّلميذ تلميذًا ؛ إنّه إنْ فعل فسيكون عارًا على أستاذه قبل أن يكون عارًا على نفسه . تركها تتابع المسير وحرص على ألاّ تشعر بوجوده خلفها أبدًا ؛ فكانت كلّما استراحتْ من تعبها كَمَنَ خلف صخرةٍ كبيرة وكتم أنفاسه حتّى لا تسمعها .

وصلتْ السّور الخارجيّ للكنيسة ، جاهد على ألا تسمع خُطواته ، يعرف أنّها ستذهب إلى الغربيّ ، فطاف قبلها على مبعدة خارج السّور حتّى تظلّ تحت عَينَيه ؛ لكنّها لم تفعلْ كما ظنّ ، بل ظلّتْ واقفةً عند البوّابة الخارجيّة ، سمعها تتكلّم بكلماتٍ لم يتبيّن منها شيئًا . اقترب أكثر ليسمع ، وقرفص كقنفذ على مقربةٍ تُبقيه بعيدًا عن الأعين ، لكنّها تُمكّنه من السّمع ، صاحتْ هذه المرّة بصوتٍ سمعه بوضوح : «لو كنتَ ربًا حقيقيًا فلماذا تركتَهم يقتلونك!!» . نزلت الكلمات على سمع الأب كالصّاعقة ، «هذه هرطقة . . . هرطقة . . . ابنتي تُهرطِق!!» قال لنفسه . كاد يبكي لهول ما سمع ، وعبثًا حاول منع الدّموع من أن تنفجر من عينيه ، فَسَحّتا بوابلٍ من هذه الدّمعات الحرّى . أطبقَ بيده على فمه كي يمنع صوتَ نشيجه من أن يصلها . غادر بهدوء وعلى

عجل . وصل البيت . انتظر نصفَ ساعة ليطمئنّ على وصولها . رأى شبحها يتهادَى من بعيد خارج السّور . دسّ نفسه في الفراش وراح يبكي من جديد!!

في الصّباح أعدّ القهوة لكلّ مَنْ في البيت ، طاف على غرفهم واحدًا واحدًا : «استيقظوا أيّها الكُسالى . . . استيقظوا فالسّاعة قاربت العاشرة وأنتم ما زلتم تغطّون في نوم عميق . . . ما الّذي أصابكم؟! لماذا تغرقون في النّوم هكذا . . . إنكم لمْ تسهروا حتّى الفجر» . فتح باب غرفتها ، كان سريرها إلى جانب سرير أختها سلوى الّتي قامتْ للتّوّ لتغسل وجهها . اقتربَ منها . كانت ملاكًا في هيئة بشر يتدثّر بغطاءٍ خفيف . أزاحَ خُصلات شعرها الّتي تهدّلتْ على وجهها بهدوء ، وهمسَ في أذنها : قومي يا ملاكي . . . لقد أعددتُ القهوةَ منْ أجلكِ . . . استيقظتْ . نظرتْ في وجهه وابتسمتْ : أبي الرّائع . كم أحبّك!!

لم تكنْ أشعّة الشّمس قد اشتدّتْ فقرّروا الجلوس تحت العريشة . التأم شمل العائلة هناك ؛ بدَوا أسرة مُتآلفة مُتجانسة وإنْ كانت الحقيقة تقول غير ذلك . لم يكن اشتراكُهم جميعًا في اعتناق المسيحيّة ليمنع من استتار بعض الخلافات والاختلافات في الطّبائع ؛ لقد تحوّل إلى هذه المسيحيّة الّتي كانتْ قَدَرًا كلٌّ من التّاجر واليتيمة واللّقيط واللامُبالية والمملوءة بالشّكّ والهواجس ؛ فقولوا ليّ أيّ شيءٍ يُمكن أن يجمع بين هؤلاء الخمسة غير الدّين الّذي لم يختَرْه أحدٌ منهم!!

كُلُّ شيءٍ يتمّ بِقَدَر ، قَدَر يمنحنا الله فُرصةَ صناعته ، وفي النّهاية نحن نصنع أقدارَنا . مَنْ لامَ القدر فكأنّما لامَ نفسه . القَدَر حكمةُ الله الّتي لا تتجلّى لكَ إلاّ إذا كان نافذًا فيك . فإنْ رضيتَ به أرضيتَ نفسك ، وإنْ سخطتَ عليه لم تُسخِط غيرَها . الرّضى نصفُ العيش

للنّفس اللّوامة ، وهو كلّ العيش للنّفس المُطمئنّة ، وأنتَ مَنْ تختار .

عادتْ من جديد إلى الجامعة ، ليلة السّبت ظلّتْ تحلم في طلوع الأحد لكي تلتقي (صالح) ، جملةً واحدةً منه هزّتْ إيمانها ، وجملة أخرى منه قد تعيد إليها هذا الإيمان المهزوز ، وستُحاوره حوار الواعين ، وستفتح قلبَها وعقلها على كلّ الجهات ، وستعرف إنْ كان بمقدوره أن يجيب عن عشرات الأسئلة الّتي تنهشها في كلّ لحظة ، وستعلم إنْ كان مُتفذلِكًا أم مثقّفًا حقيقيًا ؛ وهي؟! ليستْ سهلة . وليستْ لقمة سائغة . صحيح أنّها لم تدرس اللاّهوت مثل أمّها ، ولكنّها حاورت الطّبيعة ، وسألت الأشجار ، وتأمّلت الأفق ، وحدّثت النّجوم أكثر منْ أيّ بشريّ على وجه الأرض . أليس ما فعلتْه هو ذاته الّذي فعله الأنبياء من قبلها ؛ إذًا فَلِمَ الخوف من مواجهة هذا الفتى المُدهش . من حقّها أن تتأكّد أنّها أحبّتْه بقلبها أم بعقلها . هل كان هذا الميل الّذي لم تجدْ له تفسيرًا حتّى الآن بسببٍ من حروفه الّتي يُتقِن اللعبَ بها ، أم بسببٍ من أفكاره النّاضجة الّتي يؤمن بها؟! أم ليس هذا ولا ذاك ، إنّما هو انجذاب الأنثى إلى الرّجل ليس إلاّ!! الرّجل الّذي يملك من الوقوف الطّاغي ، والوسامة السّاحرة ما يملك . كلّ هذه الأسئلة وغيرها ستجد لها جوابًا بوسيلة واحدة!! إنّها الحِوار .

غذّت الخُطا إلى المُحاضرة ؛ لم تعد المُحاضرة هي المقصودة لذاتها ؛ إنّما لِمَنْ يحتلّ ذلك المقعد إيّاه الّذي دأب على احتلاله منذ أن أشرقتْ شمسُه على ليلها الدّاجي . إنّه ذلك الفتى السّارق الّذي لم يترك لها من شيءٍ في روحها إلاّ واحتازه لنفسه . سألتْه وهما يهمّان بأنْ يتّخذا لهما مقعدًا في السّاحة الّتي ستشهد أعنفَ مناظراتهما فيما بعد :

– ما الرّبّ الّذي تؤمن به؟!

(١٥)

إنَّ البناءَ الّذي أُقيمَ على الماءِ سرعانَ ما ينْهارُ وينجرِف

ليستْ كلّ القرى واحدة ؛ كما أنّه ليسَ كلّ الصّباحات واحدة ، ولا كلّ البدايات كذلك . بعضُها بدأ يتمتّع برفاهيّة المِعمار الّذي تمتاز به المُدُن مُضافًا إليها الطّبيعة السّاحرة الّتي تفتقر إليها تلك المُدُن ؛ فزاد بذلك عليها . وهكذا طبائع النّاس راحتْ تتشكّل على هوى هذا التّحول المِعماريّ . لكنّ النّفس البشريّة في أغوارها البعيدة لا تتأثّر بهذه الأعراض الزّائلة في تلك البِقاع الكرتونيّة الّتي تتغوّل فيها المساحات المُصطَنعة على الطّبيعة البِكر ؛ لقد بدا الإنسان في جزئيّات من تَفاقُم هَوَسِه بالرفاهيّة ذئبًا يقضمُ ذَنَبه ؛ وينظر إليه وهو ينزفُ دمًا ثمّ لا يملك من أمرٍ إلا أن يزداد في قضم هذا الذّنَب ، حتّى لا يبقَى فيه جزءٌ مِنْ بعدُ إلاّ وقد تآكل وصار إلى زوال!! إنّه نتيجة العناد الإنسانيّ للنّاموس الإلهيّ . يُعطِي الله للإنسان هواءً نقيًا وطبيعةً ساحرةً ويُصرّ هو على رَفضِ كلّ تلك الهِبات ، فيلوّث الهواء بقَطعه للأشجار ، ويُشوّه الطّبيعة بزَحفِ عمرانه على الجبال الفاتنة والسّهول المُخضلّة .

في الفصل الثّاني من عمر (بتول) في الجامعة راحتْ تتشكّل مجموعاتٌ نقاشيّة ، تتحاور فيما بينها في كثيرٍ من الأمور ، بدأتْ هذه الحلقات النّقاشيّة باتّخاذ مسار الأدب ؛ نُوقِشَ في مدرّج الصّحافة –

وفي غيره – عددٌ من الرّوايات لروائيّين عرب وأجانب ، وظلّ الأمر يتصاعد في هذا الاتّجاه الحِواريّ حتّى تطوّر إلى نِقاشات في السّياسة والدّين والاجتماع والاقتصاد . لم يكنْ هذا هو عصر الطّلبة الفكريّ الأمثل ؛ وإنْ وُجدَت بعض النّماذج الطّلاّبيّة على قَدْر كبيرٍ من الثّقافة والتّحليل ؛ إلاّ أنّ السّمة الغالبة للمجاميع الطّلاّبيّة في أغلب الكُلّيات أنّ الطّلبة كانوا يتحوّلون إلى هياكلَ جَوْفاء تتبع الموضة في اللّباس وقَصّة الشّعر وأنواع الهواتف وطريقة الكلام والمشي ، وحتّى القراءة . وكنتَ تتعبُ حتّى تجد مَنْ يُحاوِرك بعُمق ، أو يُسدي إليكَ معروفًا فيأتيكَ بخُلاصة ما يقرأ أو يسمع . كان هذا الأمر القاتلُ سِمةً غالبةً وتيّارًا طاغيًا إلى أنْ خرج عن هذه الدّائرة بعضُ الزّملاء . طفا على السّاحة في ذلك العام الأوّل (مُراد) الّذي فاجأ كثيرين ممّن التقاهم أو حاورهم بأنّه يملك ثقافةً تكفر بكلّ شيء ، ويملك عقيدةً بلا عقيدة ، ولم يكنْ من أحد يملك في المقابل ثقافةً قادرةً على المواجهة أو المُنازلة . فانبهر به عددٌ غيرُ قليلٍ من زملائه في كلّيّة الاقتصاد وخارجها . إنّ البناء الّذي أُقيم على الماء سرعان ما ينهار وينجرف ؛ وهذا حال كلّ مَنْ حاوروه ؛ كانتْ معلوماتهم التّقليديّة الّتي تَربّوا عليها لا تلبث أن تنهزم أمام طائفةٍ من الأسئلة الوجوديّة يطرحها هذا المُخاصِم العنيد ، ويبدو مُنافسوه وقد تضاءَلوا أمام قُدرته على حَرْفِ البوصلة كأنّهم رمادٌ اشتدّتْ بهم الرّيح في يوم عاصف .

قال لهم إنّه لو كانَ هناك حياةٌ بعدَ الموت فَلِمَ يكونُ الموت ؛ لِيَجْعَلَها الله الّذي تُؤمنون به كلّها حياةً واحدة ، أو مَوْتًا واحدًا فلا وجود ؛ أفكان إلهكم يهوى اللّعب بنا يُحيينا ثمّ يُميتنا ثمّ يُحيينا من جديد!!! ولم يجدْ مَنْ يردّ عليه ردًّا مُقنعًا . وقال لهم في خضمّ ندوات

الحِوار الّتي طافَ بها مُدرّجات الجامعة ، وبثّ غيرها بين الجالسين على الكراسي وفي الكافتيريات وتحت الأشجار : إذا كان الخالقُ موجودًا وتقرون أمامنا بدعة أئمّتكم من أنّ السّفينة لا بُدّ لها من صانع ، وأنّ كلّ موجود له مُوجِد ، وأنّ كلّ حدث وراءه مُحدث ؛ فإذا كان إلهكم موجودًا فمن أوجده ؛ أليس الوجود يدلّ على المُوجِد – كما تقولون – إذا كان الوجود دلالةً عليه ، فما الدّليل عليه هو؟!

واستمرّ ينشر أقواله وتساؤلاته الّتي حرّكت شَهوات الآخرين للإبداع ، وغشّتْ عيونهم لشدّة الانبهار بهذه الطّروحات الجريئة . وقال إنّ آباءنا الّذين ماتوا ذهبوا في درب السّرمديّة ، وإنّما هم صورةٌ عن كلّ مَن سَبَقه ، والابنُ من أبيه ؛ فكلّ ابنٍ هو أبٌ لابنٍ يأتي من بعده ؛ وهكذا يتوالَدون ، والأب الأوّل جاء من العَدَم ، فالابنُ الأخير كذلك يذهب إلى العَدَم . وبالطّبع وجدَ مَنْ يُصفّقُ له في هذا الاستدلال العقلي ، ويهتف له بحماسة . وحينَ جاء إلى موضوع القدر ألقى قنبلةً عمّ دُخانُها أنوفَ مئات الحاضِرين في ذلك اليوم في ذلك المُدرّج الّذي غصّ بالمُتشوّفين إلى سماعه بعد أن تصاعدَ نَجمُه في أشهر بين طالبات الجامعة ؛ قال : إذا كانتْ في دينكم حرّيّة الاختيار كما تصدّقون ؛ أفحرّيّة الاختيار هذه يقولها ربّكم : «يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ويَهْدي مَنْ يَشاءُ» ؛ فأيُّ جَبْريّة وقَسْريّة عند هذا الإله الّذي تُؤمنون به؟!!

وبدأ التّهامُس يسري بينَ طلبة الجامعة . وانتشر الإلحاد بينَ عدد منهم تقليدًا لا إيمانًا ، وتقليعةً لا فكرًا . وصرتَ ترى مَنْ ينعتُ نفسَه بأنّه (مُلحدٌ) وهو يتفاخر بذلك ويتباهى دون أن يدري حقيقةَ ما يقول ، ولا عواقبه . واستمرّتْ معاول الأسئلة الوجوديّة تطرق رؤوسًا فارغةً

فتهدم كلّ ما استقرّ فيها من تراكمات مُجتمعيّة . وتشكّلتْ فئةٌ بدا
أنّها تتّسع لتشكّل ظاهرة ما يُسمّى بالْملحدين الجُدُد . بل إنّ الموضة
راقتْ لآخَرين فصاروا يقولون عن أنفسهم سِرًا وأحيانًا جهرةً إنّهم
«عَبَدَة الشّياطين» . ونادَوا بحكمتهم الّتي ظلّوا يضغونها كلّما نُوقشوا
في الأمر : «إنْ لم تعبدوه لفَضْله ؛ فاعبدوه لبَطْشه» . ثُمّ يُتبِعون : «إنّه
الوحيد الّذي كان يُمكنُ أن يُحرِّركم من عُبوديّتكم حين قال : لا في
وجه الّذين قالوا : نَعَمْ» . وفي المُقابِل بدأتْ تسري بين آخرين وهم قد
قَدموا من أطراف الدّولة ، وظلّ إيمانهم الفطريّ يُعظّم الخطايا الّتي يرونها
ماثلةً أمامهم ، فقالوا : إنّه يجب القضاء على هؤلاء الكَفَرة الزّنادقة ولو
بالقُوّة . وبدأتْ تتشكّل مجموعات تنضمّ تحت هذا اللّواء . وبدا أنّ
المرحلة القادمة ستشهد مزيدًا من التّأزّم .

وكان عصرُ أحد الأيّام ، حينَ تصدّر (مُراد) القاعةَ جالسًا إلى
طاولة تمتدّ على المنصّة يُحاضِر في مجموعة من الطّلبة تحت عنوان
(الأديان صناعة الخرافة) . وكان مِن بين الحضور (صالح) و (بتول)
اللّذان جلسًا في القاعة إيّاها يستمعان . جمعت تلكَ القاعة الثّلاثة
لأوّل مرّة معًا تحت سقف واحد . بالطّبع تكلّم مُراد في الله وفي الحياة
بعد الموت ، وفي حرّيّة الاختيار . ووقفَ يومَها (صالح) مُستأذنًا في
المُداخَلة ؛ فأَذن مُدير الجلسة له ، فقال مُوجّهًا كلامه لمُراد :

«قلتَ إنّنا من العدم وإلى العَدم ، وأنّه لا بعثَ ولا نُشور . وأنا أريد
أنْ أفنّد ما قلتَ وآتيكَ بدليل على البعث والنّشور من العلم لا من
الدّين ؛ نحن أخذْنا في الفيزياء أنّ المادّة لا تفنى ولا تُستحدَث وإنّما
تتحوّل من شكل إلى آخر ؛ فإنْ كنتَ مؤمنًا بذلك ، وبأنّ الإنسان مادّة
وطاقة فهذا معناه أنّه لم يتحوّل إلى عدم ، وإنّما تحوّل إلى شكلٍ آخر

من أشكال الطّاقة . وبما أنّ الطّاقة تحوّلتْ من شكل (أ) إلى شكل (ب)
فمن السّهل إذًا أن تتحوّل من جديد من شكل (ب) إلى شكل (أ)
وهذا ما يحصل لنا ؛ فالحياة هي (أ) والموتُ أو الفناء هو (ب) . هذا
أوّل ، أمّا الدّليل الآخَر على البعث فهو مُشاهَداتنا اليوميّة الّتي نشعر
بها بحواسّنا السّتّ ، وأقصد اللّيل والنّهار ، أفرأيتَ نهارًا لا يتبعه ليلٌ أو
ليلًا لا يعقبه نهار؟! كلاّ ، فإذا كنت تستطيع أن تتخيّل أنّ اللّيل وهو
الفناء يأتي كنهايةٍ حتميّة للنّهار وهو الحياة ، فإنّ هذا النّهار وهو الحياة
هو كذلك بدايةٌ حتميّة للّيل وهو الفناء أو الموت» . بالطّبع ضجّت
القاعة بالتّصفيق فقد كان كثيرٌ من الجالسين ينتظرون مَنْ يُحاور بهذا
الهدوء، وهذه المنطقيّة ، إلاّ أنّ (مراد) قاطع تصفيق الحضور ليُحرجَ
(صالح) بطريقته في طرح الأسئلة المُباغتة والاستفزازيّة ، فقال له
بشيء من التّشفّي : «أيّها المؤمن بالبعث ؛ ماذا لو قمتَ من قبركَ
واكتشفْتَ أنّه قد ضُحِكَ عليك ولم تجد القيامة الّتي كانوا يتوعّدونك
بها؟! ماذا سيكون شُعورُك» . فأجابه صالح على الفور : «ليسَ أسوأ من
شعوركَ فيما لو قُمتَ مِنْ قَبرِك ووجدتّها حقيقةً أمام عينيك» . فضجّت
القاعة من جديد بالتّصفيق لصالح ، وبدا لمراد أنّه يُواجه خَصْمًا
حقيقيًا ، وأنّ كلّ الّذين انجرفوا أمامه واتّبعوه من قبلُ فعلوا ذلك لأنّهم
كانوا بلا أساسات ولا أرضيّة صُلبة يَقفون عليها .

«والخالق؟!» أجابه على الفور : « الخالق لا يُمكن أن يكون
مخلوقًا!!» أفرأيتَ إلى كلّ ما في الكون من ملايين الملايين من
الكواكب والنّجوم والمجرّات والأفلاك ، خلقها الله ، إنّه المُبدع لها بهذه
الدّقّة وهذه العَظَمة وهذه الكبرياء المُذهلة فهو لا يحتاج إلى مُبدع
سواه ، فصار هو كلّ المُبدِعين ، إنّه الخالِق فصار هو كلّ الخالقِين فيه فما

حاجته إلى خالق؟! وهو الخالق الأوحد الّذي يتناهى إليه كلّ الخالقين
الصّغار ؛ أعني الصّانعين . أفرأيتَ إلى اللّوحة البديعة إنّها موجودة
أوجدها الصّانع ، فما حاجتنا إلى صانع آخر يصنع هذا الصّانع ؟!
فعل ما نحنُ بحاجةٍ إليه ، لوحةٌ بديعةٌ تدعو الإنسانَ إلى التفكّر
والتّأمّل والتّدبّر وهذا الكون وهذا هو خالقه ؛ إنّكَ مدعوٌّ إلى أن تتأمّل
في بديع ما أنتج لنا هذا الخالق من هذه اللّوحات البديعة الّتي تمثل
أمامنا في كلّ يوم وفي كلّ حين» .

ومـاذا تقـولُ في قـول ربّك : «يُضلّ اللهُ مَنْ يَشـاءُ ويَهْـدي مَن
يَشاءُ»؟! أفرأيتَ جبرًا أكثرَ من هذا» . فَرَدَّ عليه : «الآيةُ ليس فيها جبرٌ
ولا قَسْريّةٌ ولا إكراه ، ولا مُشكلة فيها البتّة . القضيّة أنّكَ تحتاج إلى
شيءٍ من عُلوم العربيّة لتُدركَ فيها السّرّ ، وسبب الخلط الّذي وقعتَ
أنتَ فيه ووقعَ مَنْ يُشاركك الرّأي فيه كذلك ، هو في عَوْدة الضّمير في
الفـعلِ (يشـاء) الوارد مـرّتين في هذه الآية ، ولأنّكَ لا تُريد أن تُعني
نفسكَ قليلاً في تَدبُّر الآية أرجعتَ الضّمير على الله فصار المعنى كأنّ
الله هو الّذي يتحكّم في مصير عِباده وأنّه ليس لهم من الاختيار
شيء ، وهذا خللٌ في الفهم ، ولو أرجعتَ الضّمير على الاسم الموصول
(مَنْ) لحُلّ الإشكال فـصـارت الآية تعني أنّ الله يهـدي مَنْ يشـاء
الهداية ويُضلّ مَنْ يشاء الضّلال ؛ وهذه قِمّة الحرّيّة ؛ إذ إنّ الله يترك
لكَ أن تختار ولا يمنعك مهما كان نوع اختيارك فإذا أردتَ الهداية فَلَكَ
ذلك ، وإذا أردتَ الضّلال فلك ذلك ، ولا تدفعه إرادتك الهداية إلى
تحفيزك لفعلها ولا تدفعه إرادتُكَ الضّلال إلى تحفيزك لعدم فعلها وهذا
أسمى أنواع الحرّيّة» . وهذه المرّة وقف بعضُ الحضور وصاح إعجابًا .

واستـمرّ النّقاشُ أكثرَ من ساعـتَين ، وعلتِ الهـتافات من كلّ

جانب ، بعضُها أيّد (صالح) فيما ذهب إليه وبعضُها استغرب ، وآخرون
استنكروا ، ووجدتَ في تلك القاعة في ذلك اليوم مَنْ لا يقبل حتّى
من صالح ما قال ، بل كان يريده أنْ يُكفّر هؤلاء الملاحدة ويلعنهم .
ولكنّه ظلّ مُتوازنًا حتّى آخر لحظة ، وناقشَ بأرقى الصّور ، ولم يُكفّر
(مراد) ولا مُـؤيّديه ، ولا حكم عليه ولا عليـهم بالنّار ، وترك لعـقله
ولعقول الحاضرين فرصة الاستماع والاقتناع بما يشاؤون ؛ وهذا هو الفهم
الصّحيح لقوله تعالى : «لا إكْراهَ في الدّين» .

لكنّ ذلك أوغر صدور أصحاب الأحكام الفقهيّة الجاهزة الّذين
ممّا غاظهم ألاّ يكون (صالح) شديدًا في آرائه ، مع أنّ أيًّا من هؤلاء
الّذين طالَبوه بتكفير الطّرَف الآخَر لم يكونوا قادرين في السّابق على
مواجهة (مُراد) ولا الوقوف أمام أفكاره ، فلمّا جاءهم مَنْ يُحاور برقيّ
وعلم وبثقة لم يقبلوا منه ؛ فسبحان مَنْ خلقَ النّاسَ أصنافًا وألوانًا
وأجناسًا!!!

(١٦)
ما نَظُنّ أنّه يَجْمَعُنا
قَدْ يَكونُ ذاتُه هُوَ الّذي يُفرِّقُنا

إنّ الإلحاد استغلالٌ لظاهرة الموت ؛ فلأنّ الموتى لا يعودون من قبورهم ليُخبرونا بما حصل معهم ، فلذلك استغلّ المُلحدون هذه الحقيقة ليُشكّكوا بالأمور الغيبيّة وبَنَوا عليها مُعتَقداتهم . وفي الحقيقة بعضُها مُضلِّل والآخر ساذج . بعضُها يُغرَم به صنفٌ من النّاس ذلك الّذي يعيش في شكٍّ دائم من أسئلة لا يجد عليها جوابًا ؛ وبعضُها مدعاة للضّحك من سذاجتها . ولأنّك يُمكن أن تكذب كما تشاء عَلَى من لم يحضر الواقعة ، فكذلك تستطيع أنْ تُفحِم مَنْ لم يشهد الوقائع المُستقبليّة على أن يأتيكَ بدليلٍ على أنها ستقع!!

لم يتركْ لها فرصةً للهروب منه بعدَ تلك المُحاضَرة ، فازدادت التصاقًا بهذا الإنسان الّذي يملك من الحجّة والأسلوب ما يجعله مُقنعًا للحجر . تركتْ لنفسها فرصَةَ يومَين لترى إنْ كانت مُقتنعةً بما يقول أم مُقتَنعةً به ؛ «وما الفرق؟!» (سألتْ نفسَها) . وأجابتْ : «الأولى إيمان والثّانية حُبّ!!» ومظلّة الحبّ أوسع ، لأنّها تضمّ تحتها الإيمان فيما تضمّ . قالتْ لوعد :

- لو كان حُبًّا فما دلائله؟!
- سَهَرٌ لا ينتهي ، ودمعٌ لا يكفّ عن الجَرَيان .

- ولو كان إيمانًا .
- تفكير لا ينقضي ، وقلبٌ لا يكفّ عن التّساؤل .

فاكتشفتْ بعد رأي صاحبتها أنّها واقعةٌ في الاثنَين معًا . فتُردفُ وعد قائلةً : ولكنّ السّدّ يا بَتول ما زال قائمًا . والحواجز العالية ما زالتْ قائمةً بينكما ؛ لا تُجَنّي أكثر من ذلك فتقع الدّواهي . عندما تصل الأمور إلى نهاياتها لن تَجدي أحدًا يقف إلى جانبك ، ستُواجهين الأمر وحدك ، فانظري إلى مغبّة ما تقومين به يا أختاه» . فتُجيبَها بشرود : «وهل الأمر بيدي يا وعد ؛ إنّني أسير مُغمَضَة العينَين لا إرادة لي في قلبي الّذي يأخذني إليه» . «إنّه مُسلم ؛ قلتُ لكِ ذلك عشرينَ مرّةً قبل هذا» . «وما الّذي يمنعه من الاقتران بي ؛ دينه يُتيحُ له ذلك» . «لا أتكلّم عمّا يمنعه أتكلّم عمّا يَمنعُكِ يا حمقاء؟! لو عَلِمَ أهلُكِ بأنّ ابنتهم القدّيسة تُحبّ مُسلمًا ماذا ستكون رَدّة فعلهم؟!» . «أبي وهو المسؤول الأوّل عنّي سيتفهّم موقفي» . «أبوكِ سيكون أشدّ المُعارضين ، إنّه تركَ أمواله كلّها بيد أخيه من أجلِ دِينه» . «بل من أجل حُبّه ، وأنا سأفعل مثله ؛ سأترك كلّ شيءٍ من أجل حُبّي» .

حَرَصَتْ على أن تَتبعَهُ حيثُما ذهب . حافظَتْ على وَقارها الظّاهريّ ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً ؛ لكنّ بُركان المشاعر الّذي كان يضطرم في داخلها أوشكَ على الانفجار . قالتْ له : «شيءٌ ما فيكَ يجعلُني أتبعك» . «زُملاء . واشتركْنا في العقل المُنفتح ، والحوار الهادئ» . «صحيح ؛ لكنّي أقصدُ أكثر من ذلك ؛ هناكَ أشياءُ أخرى ، ألا تراها باديةً على تَعابير وجهي ويدَيّ ، ظاهِرةً في عَينَيّ؟!» . «بلى . وهذا ما يُقرّبني إليكِ أيضًا ؛ ولكنْ تَمنعُني أشياء وأشياء ، وأقدّر لكِ ما أراه» . «إنْ كانت الدّرب الّتي نسير فيها يُمكن أن تجمعنا ؛ فاجْعلْنا نَسِرْ

فيها معًا من الآن ونكونُ واضِحَين» . «أخاف أنْ . . .» ويصمت . «أنت تخاف؟!! معيّة الله لنا تقتلُ خوفَنا» . «أخافُ عليك لا عَليّ» . «إذا كنتَ تخاف عَلَيّ حقًّا ؛ فقد جَمَعَنا على الأقلّ شيءٌ مُشتَرك : أنا أخافُ عليك وأنتَ تخافُ عليّ ؛ ولنجْعَلْ ذلك بِدايةً لنا قد تقودُنا إلى الدّرب المُشتَركة الّتي أودّ أنْ نَمشيَها مَعًا» . «قد نستطيع . . . قدْ ، لكننا سنجد ألفَ حفرةٍ في الطّريق تفغر فاها لِتبتلعَنا ، وألفَ وادٍ يفتح فمه ليغُيّبنا في ظُلُماته» . «إيماننا بالله سيردم الحُفَر وسيُضيء الوديان المُوحِشة» . «إيماننا بالله؟! أيُ الله الّذي تؤمنين به؟!» . «بدأت تُراوِغ؟!» . «كلاّ ؛ بدأتُ أفتح الباب على إمكانيّة أن يجمعنا - كما قلتِ - دربٌ واحدٌ ؛ إنّ ما تظنّين أنّه يجمعنا قد يكون ذاته هو الّذي يُفرّقنا ؛ فلْنَنْظُرْ في أمرنا مَليًّا قبل أنْ نتّخذ أيّ قرار» .

قَلَبتْ تلك المُحاورة كِيانَها مِنْ بعدُ ، أعادتْها بينها وبينَ نفسها أكثر من مئةِ مرّة ، وفكّرتْ بكلّ عبارةٍ من عباراتها ألفَ مرّة ، وخرجتْ من كلّ عبارة من هذه العبارات بنتائج مُتضارِبة . ولم يستقرّ لها حال ، وصاحتْ بها (وَعْد) في غمرة ذُهولها عن نفسها : «اسمعي منّي جيّدًا ، يبدو أنّ الأمر قد خرجَ عن السّيطرة بالنّسبة لكِ . صحيحٌ أنّك صديقتي ؛ لكنّ أيّ قرارٍ تتّخذينه ويُسبّب لكِ المشاكل أنا لستُ مسؤولةً عنه ، واعرفي أنّه حينَ تَجتمعُ البنادقُ علينا من كلّ جِهة فسأقول : اللهمّ نفسي . وحينها لا تلوميني ، أنا لا أستطيع أن أتحمّل تَبِعات تلك اللّحظات . والله إنّي أحبّك وأريد مصلحتك ، ولكنْ لا تورّطينا مع هذا المجنون المدعوّ صالح . يا أختي هناك الكثيرون ، ما الله سخطكِ إلاّ مع مُسلم!!» . فتردّ عليها بعبارة واحدة : «ليس هناك غيره» .

قال لها ، دَعينا نذهبْ إلى كلّيّة الاقتصاد ، أريد أن أقابل (مُراد) وأحاوره ، قَطَعا المَسافة الفاصِلة بين الكُلّيّتَين معًا . توقّفَ بعد أن خَطَوا بضعَ خُطُوات ، وقال : «هل تسمحينَ أن أسبِقَكِ قليلاً ، لا أريدُ لأحد أن يرانا سائرَين على هذا النّحو» . ردّتْ مُستغربةً : «ما كنتُ أظنّ أنّ الإنسان المُتفتّح يُخالف نفسه فيبدو رجعيًّا في موقفٍ كهذا» . «أَفعلُ ذلك من أجلك ابتداءً . ومن أجلنا . ثمّ إنّنا لسنا مخطوبَين لنأخذ حرّيّتنا» . «فلتَفعَلْ إذًا» . «أفعل ماذا؟!» . «ما هو من أجلي ومن أجلك ، وما أنتَ مُقتنعٌ به دون أن تلتفت إلى آراء الآخَرين» . «سأفعل . . . سأفعل إن شاء الله وسترَين ذلك» .

تابَعا المسير حتّى دَخَلا كلّيّة الاقتصاد ، سألا عن مُراد حتّى اهتَدَيا إليه ، قابَلَهما وهو يتلفّتُ من حوله ، سأله وهو ما زال يُقلّب طرفه في الجِوار : «مَن هذه الّتي معك؟!» بدا خائفًا ومُرتبِكًا . أجابه : «ستعرف بعد قليل» . وأردف بعد أن طمْأنَه بابتسامة عريضة ، ومُصافحةٍ حارّة ، قال وهو يشدّ على يدَيه : «ما بالُكَ تبدو حَذِرًا على هذا النّحو» . أجابه بصوتٍ مُنخَفِض كمن لا يُريد أن يسمعه أحدٌ : «لقد تلقّيتُ تهديداتٍ بالقَتل من التّكفيريّين الرّجعيّين» . ضَحِكَ صالح حتّى علا صوتُه : «مثل التّهديدات الّتي تلقّيْتُها أنا أيضًا ؛ لا تأخذْ بها يا صديقي ؛ إنّما هي ردّة فِعلٍ صادرةٌ عن قلب يحسبُ أنّه يخدمُ دينَه بهذه الطّريقة ، وكلّ إنسانٍ وما يرى» . سأله مُراد : «وأنتَ لِمَ يُهدّدونك؟!» . لأنّني أمشي مع أمثالِك ، ويقولون إنّني مُتهاوِن في أمور الدّين ، وأنّني أشوّه بأفكاري الدّين الصّحيح ، وإذا لم أكفّ فإنّهم سيستخدمون وسيلةً أخرى» . «ألا تُريد أن تقول لي مَنْ هذه الّتي معك؟!» . «إنّها بتول ؛ زميلتي في السّنة الثّانية في كلّيّة الصّحافة ،

بتول هذا مُراد أشهر من أنْ أُعَرِّفَ به» . «تشرّفْنا» .

طلبَ صالح من مراد أن يجلسوا في الكافتيريا لأنّه يودّ أن يُناقشه في أفكاره ، ردّ عليه : «في الكافتيريا؟ لا . دَعْنا نذهبْ إلى مكان آخر أكثرَ بُعدًا عَنِ العيون ، وأكثرَ أمانًا» . «يا رجل لا تكنْ خائفًا إلى هذا الحدّ ، ها أنذا معك ، إذا اغتالونا معًا فسنعرف ما سيحدث لنا بعد تلك الحُفرة ، وسنتأكّد مَنْ كان منّا على حقّ» . وضحك طويلاً!! قال له مُراد : «اتبعني ؛ فأنا أعرف مكانًا آمنًا» . «ستأتي معنا بتول» . «لا مانع عندي» .

خلفَ كلّية الآداب أقدم كلّيات الجامعة ، وفي ممرّ كان يصل بين كلّيّة الاداب والتربية في السّابق ، ثمّ لمّا استقلتْ كلّيّة التّربية بمبنى جديد ، هُجِرَ الممرّ ولم تعد الأرجل السّاعية بين الكُلّيّتين تَطرُقه . ثمّ حوّلتْه إدارة الجامعة إلى مَمْشًى أنيق مملوء ببعض الشّجيرات الّتي زُرعتْ على جانبَيه ، لكنّه مع ذلك ظلّ قليل الرُّوّاد . جلسوا على المقاعد المتناثرة هنا والمُعَدّة للجلوس ، اتّخذتْ بتول مقعدًا لها بجوار صالح ، وقابلهما مُراد . أخرجَ من حقيبته ثلاث حبّات شوكولاته ، وتوزّعوها قبل أن يبدأ صالح معه الحِوار :

- أتعرفُ أنّني أُحبّك .
- أمعقول أنّكَ لا تُكفّرني!!
- بالطّبع لا .
- ففيم الحُبّ إذًا؟!
- على إيمانك بفكرةٍ والدّفاع عنها بشراسةٍ وجرأة .
- فماذا تقول فيما أنا فيه .
- يا أخي أنتَ تُسمّي نفسَكَ مُلحِدًا؟! فلِمَ تفعل ذلك؟! إنّ كلمة

المُلحِد هي كلمةٌ مُستعارةٌ من قاموس المؤمنين ينعتون بها مَنْ يخرج عن دينهم ، فإنْ وصفتَ نفسَكَ بوصفٍ موجود في عقيدة المُخالفين لك ورَضيتَ به فكأنّك تؤمن بهذه العقيدة المُخالفة لك وتُصدّق على نفسكَ هذا الوصف السّلبيّ ؛ فالعجب العجاب أن يرضَى المُلحِدون بهذه التّسمية ، إنّهم يسيئون إلى أنفسهم ويُثبِتون على أنّهم يُلحِدون بأنفسهم لأنّهم يصدّقون الأوصاف الّتي ينعتهم بها مَنْ يُخالفونهم ويُكفّرونهم ؛ فكأنّهم يُكفّرون أنفسهم؟!!

- فماذا نُسمّي أنفسَنا؟!
- أيّ شيءٍ آخر ؛ مثلاً : الباحثون عن الحقيقة ، أو المؤمنون بالشّهادة ، أو المُجَدِّدون . . . أيّ شيءٍ آخر يا صديقي .
- أنتَ تقول أنّ الشّيطانَ عدوٌّ مُبين . أنا أراه غيرَ ذلك .
- انظُر إليه كما تشاء ؛ قد لا يكون الشّيطان مادّة ، ولا مخلوقًا فيزيائيًّا . الرّغبةُ قد تكون شيطانًا إنْ لم تَجْرِ في مجراها الصّحيح ، وعليه تُقاس الشّهوة ، وحبّ المال ، والسّعي إلى رَغَد العيش .
- أتدعو إلى التبتّل والانقطاع عن ملذّات الدّنيا والزّهد فيها ، فَلِمَ أوجدها ربّكَ إذًا؟!
- لكي تستمتع بها على وجهها الصّحيح . ولا أدعو إلى تَرْكِها بل إلى استغلالها على أكمل وجه ؛ أتعرف لماذا يتبعُنا الشّيطان كظلّنا ويُضلّنا؟! لأنّنا ننسى العقل . مَنْ ألغى عقله واتّبع هواه فقد صار هو والشّيطان واحدًا!!!
- يا أخي دَعْني من فلسفتك .
- أنا أعرف أنّ لكَ عقلاً راجحًا ، وأعرف أنّ ما تفعله من سلوكيّات هي مُحاولة للتّمرّد على هذا العقل الّذي كلّما انحرفتَ عن

المسار قال لك : إلى أينَ يا صاحبي؟! إلى أين؟!

– ولكنّني لا أؤمن إلاّ بِما أرى . وإنْ تجاهلني الله ولم يبرز لي فسأتجاهله .

– يا صديقي ؛ بعضُ الحقائق تُعرَف بالحسّ لا بالعقل . لأنّ العقل له حدود في التّصوّر والتّخيّل ، وله مساحة محدودة يتحرّك فيها هي الزّمان والمكان ، وهما – أي الزمان والمكان – محدودان مهما اتّسعا . والّذي يُحيطُ بهما ويسبقهما ليس إلاّ خالقهما وموجدهما وهو الله . مَنْ ينقر كَتِفَك قبل أن تأوي إلى فِراشكَ ليسألكَ إنْ كان ما فعلتَه اليوم كان صحيحًا أم غير ذلك؟! إنّه رَسولٌ من الله دلّ عليه .

– فمن الّذي يقول لي أنْ أفعل ما أفعل؟!

– الشّيطان يأمرك بالشّرّ والله يأمرك بالخير .

– بهذه البساطة؟!

– إذا غابتْ مُراقَبَتَكَ لله حضر الشّيطان ؛ وإذا غاب الشّيطان حضر الله ؛ إنّهما لا يلتقيان ، ووجود أحدهما دليلُ غيابِ الآخَر!!

كانتِ الشّمسُ قد شارَفتْ على المغيب ، وهم ما زالوا في مقاعدهم كما لو أنّهم ثُبّتوا بها تثبيتًا . لم يتحرّك أحدٌ منهم وظلّوا يُتابِعون النّقاش بمسؤوليّة وحُرّيّة ، وقبلَ أن يهبطَ اللّيلُ بقليل تحوّل الثّلاثة إلى ظِلالٍ مُلقاةٍ خلفهم قذَفها ضوء العمود الفضّيّ الّذي كان على مقربةٍ منهم .

من نوافذ الكلّيّة المُطلّة عليهم حدجتْهم آلاف العُيون ، ورمقتْهم بكلّ لغةٍ ومعنى ، بعضُها نظر بعين السّخط ، وبعضُها بعين الحسد أو الحقد ، وآخرون بعين الاستهجان ، لكنّ أحدًا لم يرمقهم بعين الرّضا .

خرجوا وقد هبطَ الليل وأقفرت ساحات الجامعة وكلّيّاتها من

ضجيج الطّلبة الفارغ ، وخلتْ شوارعها من المارّين والمُتسكّعين ، وساروا لا يَدرون إنْ كان القَدَر سيجمعهم من جديد ، أم ستقذفُ بهم الحياة في أوديتها المُظلِمة!!

(١٧)
إنْ لم تكنْ صادقًا في حبِّك نَهشَك ذِئبُ الرَّغبة

التّعبير عن الأحاسيس بأبلغ اللّغات لا يوصِل من حقيقتها شيئًا ؛ لأنّه مُجرّد تفريغ نفسيّ لتلك الحالة الشّعوريّة من أجل أن يرتاح صاحِبُها . لو بقيَ أحدُنا يتكلّم مع الآخر عن الحَرْق الّذي أصاب إصبعه عَشْرَ ساعات أمامه فلن يعني له ذلك شيئًا كثيرًا ، وإذا تعاطفَ معه فلن يَبلُغَ مِعشارَ مِعشارٍ ما شعر به صاحبُ الحَرْق . هكذا الإيمان إحساسٌ داخليّ بوجود الله وليس قالبًا لفظيًا يُعبّر به عن هذا الإحساس ؛ إنّه حياةٌ مَعيشة لا حياة مَنقولة ؛ إنّه خبرة ذاتيّة لا خبرة مُترجَمَة!!

قال لها : «إنّ مقالها جيّد . ولكنّ الصّحافة تشتري الحَدَث ولا تشتري اللّغة . بعضُ الصّحف تقتات على مآسي الآخرين . تفرح للمُصيبة الّتي تُشكّل لها قِصّةً ناجحةً ولا تنظر إلى مَنْ حلّت بهم المُصيبة فشرّدتْهم أو دمّرتْ حياتَهم و قلبتْها إلى جحيم . ولذا مقالتُك من النّوع الّذي لا ينشرح له قلبُ الصّحيفة ، وإنْ كان من النّوع الّذي ينشرح له قلبي لجمال أسلوبه وسِحر لغته» .

عادتْ إلى وعْد تكاد تطير من الفرح ، ظلّتْ تُعيد على مسامعها : «إنّه من النّوع الّذي ينشرح له قلبي» . ثمّ تسألها دون أن تنتظر

الإجابة : «أتعرفين لماذا يا وَعْدي؟!» . « لجمال أسلوبه وسِحر لغته» . أرأيتِ يا وَعْد أجمل من هذا الكلام؟!» . «اهدئي يا مَجنونة ، يا إلهي ماذا سأقول لأهلها هذه الفاقدة؟!» . «لا تقولي لهم شيئًا . . . قولي لهم أحبّتْ ؛ ابنتكم القدّيسة أصبحتْ عاشقة ؛ أفكان حرامًا على القدّيسين والقدّيسات أنْ يعشقوا؟! أليسَ لهم قُلوب يا وعد . . أليسَ لهم قلوب؟!» .

كانت السّاعة قد قاربت منتصف اللّيل ، لم يعدْ يُطيق الجُلوس في البيت بعدما ملأ عليه التّفكير بها كلّ قلبه . خَرج . تَجاوزَ عَتَبة البيت . بدت الطّرقات كأنّها مساكنُ أشباح ، خالية من كلّ شيءٍ إلاّ من صَرير عجلاتِ مركبة تذرع الشّارع بجانبه على فترات مُتباعدة ومتقطّعة . ظلّ يمشي في الطّريق لا يَلوي على شيء . رنّ هاتفه الجوّال ، توقّع أن تكون هي أو تمنّى أن تكون كذلك ، لكنّه فتح عينيه على اتّساعهما وهو يقرأ رسالةً على الماسنجر : «إنْ لم تَعْتَدِلْ عَدَلْناكَ بطُرُقنا الخاصّة» . وقف جامدًا لا يُحرّك ساكنًا ، كانت الرّسالة الّتي تحمل تهديدًا قد أثّرتْ فيه . قلبُه الرّقيق المُفعَم بالحبّ لم يكنْ ينقصه هذا النّوع من الرّسائل ، توقّعها أن تكون وردة فإذا هِيَ شوكة . لكنّه مضى في الطّريق يفكّر في أسابيعه الأخيرة مع بتول .

بدتْ أنّها خُلقتْ له وأنّه خُلقَ لها ، كان يعرف أنّه يُجازِف ولكنّه يعرف أيضًا ما يريد ، ويُدرك أنّ المُجازَفة للحصول على ما تُريدُ خيرٌ من الجلوس على أرصفة الانتظار ومَضْغ الأوهام . لفتت انتباهه قطّة صغيرة لم يمرّ على وِلادتها أيّام وقد عَلِقتْ في وسط الشّارع وتموء مُواءً حزينًا ، انحنى على الأرض ، حملها برفق بينَ يَدَيه ، أزاح بعض الغُبار والأتربة المُتراكمة على جسدها الهزيل ، شعرتْ بالدّفء فراحتْ تَهرّ هريرًا

خـافـتـًا . نهض ، نظر حـوله ، وبحث لهـا عن مكان آمن بعـيـد عن عجلات السّـيـارات وهتف في داخله : «لا بُدّ أن تعود إليـهـا أمّهـا بين لحظة وأخرى ، ليتني أعرف لغة القطط فأنادي على أمّها باسمها لكي تعود إلى ابنتها سريعًا» . تابعَ سيره وهو يضع يَدَيه في جيبَي بنطاله ، وراحتْ بتول تطفو على سطح قلبه من جديد : «إنّها نصرانيّة ، ولكنّها مؤمنة . أستطيع أن أجعل إيمانها مدخلاً للحوار» . وراح يهذي مع نفسه ؛ «كعاشق خطّ سَطْرًا في الهوى ومحا» . وسمعَ صوتَ روحه .

يا هذا إنْ لم تكنْ صادقًا في حبّك نَهَشَك ذئبُ الرّغبة ؛ فكُنْ منه على حَذَر . وإنْ لم تكنْ مُراعيًا حقّ الله في قلب هذه الفتاة قتلْتَها بيديك ، وأفسدْتَ عليها نقاءَها وعليكَ نقاءَك . يا هذا إنّ ربّك مُطّلعٌ على السّرائر خبيرٌ بالضّمائر عليمٌ بالمصائر ؛ فلا تُطلعه على ما لا يرضاه لك ، فإنّ الشّهوةَ سعادةُ لحظة وشقاءٌ مُقيم ، فكنْ في سرّك ناطقًا بما عليه علانيتك يُصلح الله شأنَكَ كلّه ، ويُعطِكَ ما طلبْتَ وما لم تطلبْ .

يا هذا إنّ صَلاح القلب يظهر على الجوارح ولا يخفى على ذي بَصَر ، فإنْ رأتْ منكَ ما رأتْه صلاحًا فقرّبها إليكَ ، فإيّاك أن تطّلع على ما يسوؤها ، فإنّ مساءَتها تعني أنّك أفسدْتَ قلبَك فظهر فسادُه على الجوارح فساءها فكانتْ كمنْ خُدعتْ بمن وَثقت . ومَنْ فقدتْ مَنْ وجدتْ . وإنْ كنتَ تريدها على ما أراده لكَ ربُّك ، فلا تُخف ما في قلبك حتّى تُعلنَ به فتعرفَ منكَ ما تاقتْ إليه ، منذ أنْ وجدتْ روحَها تذوبُ في روحِك!!

وتابعَ سيره في الطّريق الّتي أصبحتْ خاليةً من كلّ شيء إلاّ منه . وظلّ يمشي بلا غاية حتّى يجد في قلبه راحة . وهتفَ في نفسه :

«إنْ لم أبادرْها بالقول ، وأحاورها بالعقل ، فلنْ تُثمر آلاف البذور الّتي بذرتُها في الحقل» . وظلّ يمشي .

قبل أن يَدْخُلا إلى مُحاضرتهما ، جلَسا على المقاعد المُظلّلة في ساحة الصّحافة ، قال لها إنّه حان الوقت ليعرفَ منها بعض الإجابات على تساؤلاته الّتي تتغوّل عليه :

- هل عيسى إله؟!
- بلى .
- إذا كان إلهًا فَمَنْ أُمّه؟!
- مريم .
- وهل هي إلهٌ مثله؟!
- لا .
- والإلهُ كاملٌ كُلّيٌّ؟!
- بلى .
- والإنسانُ ناقصٌ جزئيٌّ؟!
- بلى .
- فكيفَ يَلِدُ الناقِصُ الكامِلَ؟! وكيفَ يَلِدُ الجزئيّ الكُلّيّ؟! أهذا يقبله عقلٌ يا بَتول؟!
- ماذا تقصد؟!
- عيسى لا يُمكن أن يكون الله ولا ابنًا له ، لأنّه ناقص يعتريه ما يعتري البشر من التّعب والألم والله كامل لا يعتريه شيءٌ من ذلك ، والكامل لا يَلِدُ النّاقص!!
- فما عيسى إذًا؟!
- رسول الله .

- بهذه البساطة؟!

- بهذه البساطة . والله بسيطة . لا أدري لماذا أنتم تُعقّدون الأمور إلى هذا الحدّ .

نظرَ إلى ساعته : «لقدْ أوشكت المُحاضَرة على البدء . هيّا بنا» .

سارتْ تتبعه بذهول . بعضُ الحقائق تَصدمك ؛ فقط لأنّكَ في حياتك كلّها لم تسمح للعقل أن يُناقشها ، وأدرتَ عنها صفحة التّفكّر . تبعتْه كالمأخوذة ولم تَدْرِ أين جلستْ ولا كيف مرّت المُحاضِرة . ناداها ليوقظها من شرودها : «بتول . . لقد انتهت المحاضرة» .

خرجا ، أوقفتْه عندَ حجر الأكاذيب ، قالتْ له : «إنّكَ تُفقدني إيماني» . ردّ عليها بحنوّ : «أنا لا أفعل . بل أحاول أن أبني لديك إيمانًا جديدًا ، افتحي قلبَك لي ، وحاوريني بمسؤوليّة فإمّا أن تُقنعيني وإمّا أن أُقنعَك» .

كانتْ نهايةُ الأسبوع هذه المرّة مُختلفة . طوال الطّريق لم تتكلّمْ مع أبيها كلمةً واحدة . ظلّتْ ساهمةً شارِدة . وذهبتْ محاولاتُ أبيها لاستخراج الكلام منها أدراج الرّياح . عرفَ أنّ أشياء كثيرة تحدثُ مع ابنته ؛ لكنّه لم يدرِ ما كُنهها . هو الآخر ابتلعه الشّرود وراح يُحادثُ نفسه : «لقدْ تغيّرتْ أميرتي ؛ كلّ مرّة أراها فيها تُظهر علامات جديدةً للتّغيّر ؛ تُرى ما الّذي يحدث ؛ بحقّ يسوع ما الّذي غيّركِ يا حبيبتي؟!» . بدت القرية من بعيد ترحّب بهم ، قابلتْهما على المداخل بعض القُصور الّتي شُيّدتْ حديثًا لعددٍ من أغنياء القرية . رمتْ نفسَها على السّرير في بيتهم الرّيفيّ دون أن تكلّم أحدًا من عائلتِها . وغطّتْ في نومٍ عميق .

(١٨)
بيتُ الرّبّ مفتوحٌ للضّالّينَ الباحثِينَ عنِ الهِدايَة

اسمع لقلبِكَ ؛ ولا تَتجاهَلْ نداءاته العميقة ، لأنّه لا فائدةَ من ذلك ؛ هو لن يكفّ عن مُناداتكَ حتّى تُصغي إليه ، وأنتَ إنْ لم تستمع إلى ما يقوله فلن يفعل ذلك أحدٌ آخَر . قُلْ له : ها أنا أيّها القلب أُهيّئ لك جوارحي كلّها فحَدِّثني ، وأفتحُ لك مدائني كلّها فحاوِرْني .

قرأ له أحد دكاترة كليّة الصّحافة – وهو ما زال في السّنة الأولى – مقالاً في جريدة : (طلبتنا) الّتي تُصدرها عمادة شؤون الطّلبة ، فسأل أحد تلاميذه أن يبحثَ له عنه ويأتي به ليقابله في مكتبه ، وحينَ وقف أمامه في المكتب رحّب به ودعاه للجلوس ، وقال له : «أنتَ تكتب كأديب ، وتفكّر كفيلسوف ، وتُحلّل كخبير ، فمن أينَ جاءتْك كلّ هذه المواهب» . أطرقَ برأسه خجلاً آنذاك ، وقال : «ربّما من كثرة القراءة ، أنا أقرأ منذ الرّابعة من عمري يا أستاذي ، والكتاب صديقي المُخلِص الدّائم» . «هل كتبْتَ مقالاتٍ أخرى ؛ إذا كنتَ قد فعلتَ فأطلِعْني عليها من فضلك» . بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة ناداه ليُشدّ على يده ويهتف به : أنتَ كاتبٌ متمرّسٌ يا صالح . وسأطلب من رئيس تحرير الصّحيفة الوطنيّة الّتي يكتب فيها كِبار الكُتّاب أن يُخصّص لكَ زاويةً أسبوعيّة ، ولكَ الخيار في المواضيع الّتي ستناقِشها

عبر تلك المقالات» . «حقًا يا أستاذي؟!» . «حقًا . أنتَ تستحقّ أكثرَ من ذلك» . منذ عام ونصف لم تغبْ زاوية صالح عن الصّحيفة ، وعرفهُ الكثيرون من خلالٍ حرفه البهيّ ولغته الأخّاذه وثقافته الموسوعيّة ، حتّى حدا الأمر ببعضهم إلى سؤال رئيس التّحرير عن هذا الكاتب البديع ، وحينَ يعرفون منه أنّه ما زال طالبًا في سنته الثّانية في الجامعة يزدادون إعجابًا واندهاشًا .

كتب في الجريدة سلسلةَ مقالات عن نظريّة التّطوّر عند داروين ، وبدا فيها عالمًا اجتماعيًا وفيسيولوجيًا مُحترفًا . وكتب سلسلة مقالات عن دراسات مُقارنةٍ بين المتنبّي وشكسبير وبدا فيها أديبًا لَوْذَعيًا لا يُشقّ له غُبار ، ثمّ أتبعها بسلسة مقالات عن الحرّيّة الدينيّة فبدا من خلالها مُحدّثًا وفقيهًا وعالمًا لاهوتيًا يتقاصر أمامه المشايخ والأساقفة . وظلّ يُناضل عن فكرته بقلمه ولسانه حتّى عرفه الأَبْعَدون .

لكنّ سلسلة المقالات الأخيرة عن الحرّيّات الدّينيّة أوغرتْ صدور كثيرين من المتابعين من دهاقنة الدّين . وكانتْ سببًا في تلقّيه عددًا من رسائل التّهديد وصل بعضُها إلى الصّحيفة نفسها ، وبعضُها الآخر وصل إلى هاتفه النّقّال أو بريده الإلكترونيّ .

بدأتْ بتول تملأ عليه الدّنيا على اتّساعها ، واجتهد هو في محاورتها بهدوء حتّى يُقنعها دون تعجُّل . قال لها مرّة : «أنت من أصحاب التّثليث؟!» فأجابتْه : «وهل هناك في المسيحيّة غيرهُم» . فيردّ : «بلى . هناكَ المُوحّدون ؛ أتعلمين أنّ (بولس) قال : إنّ الإله واحدٌ . وإنّ المسيح ابتدأ من مريم عليها السّلام ، وإنّه عبدٌ صالحٌ مَخلوق ؛ إلاّ أنّ الله تعالى شرّفه وكرّمه لطاعته وسمّاه ابنًا على التّبنّي لا على الوِلادة والاتّحاد . وهذا قريبٌ ممّا نقوله نحن المُسلمين» . فتردّ

مندهشة : أحقًا قال بولس هذا الكلام؟!» . «حقًا» . «ومَنْ بولس هذا؟!» . فيجيبها : «بولس الشمشاطي وليسَ الرّسول وهو صاحب فرقة من المُوحّدين ، وهو ليس المُوحّد الوحيد ، هناك آخرون اتّبعوا مذهبه كذلك» . «وهل تعرف شيئًا آخر عن فرقة الموحّدين هؤلاء» . «الكثير ، ومن المعلوم عند كلّ الطّوائف المسيحيّة أنّ التّثليث جاءَ مُتأخّرًا ولم يقل أحدٌ بذلك في زمنِ المسيح نفسه» . «أمعقولٌ هذا؟!» . «بلى . وليس في الأناجيل كلّها آيةٌ واحدةٌ تقول أنّ عيسى هو الرّبّ أو هو الله» . فتردّ وهي تتهاوى : «مستحيل» .

اهتزّ كلّ شيء . الرّياح عصفتْ بالأخضر واليابس . والسّماء اكفهرّتْ حتّى لم تعدْ هناك سماء . مجرّد غمامات تحجب كلّ شيء . والأرض تأوّدتْ حتّى لم تعدْ فيها طريقٌ تُسلَك . أيّها القلبُ الّذي يُعذّبني ؛ سأصغي لك هذه المرّة بطريقة مختلفة ، إنْ كان حقًا ما يقوله هذا الفتى فويلٌ لي . . . ثمّ ويلٌ لي . . . ثمّ ويلٌ لي .

استحلفتْه أن يُنهي الحِوار عند هذا الحدّ ، وقالتْ إنّها تشعُرُ بالصُّداع . وصارحتْه بأنّها بدأتْ تُشكِّك فيه وفي نواياه وفي طريقة كلامه ، ثمّ تجرأتْ أكثر لتقول له إنّها تشعر أنّها في طريقها إلى أن تكرهه ، لأنّ الّذي يقوله ينسف كلّ ما تربّت عليه لحواليَ عَقدين من الزّمان ، وإنّها ستكره وبشكلٍ عميقٍ وقاطعٍ ونهائيّ مَنْ ستكتشف أنّه كَذَب عليها .

قال لها وهي تُغادره : «أريدُ أن أقول كلمةً واحدة لكِ قبل أن تذهبي : إنّ المسيح بلا شكّ كان إمام المُوحّدين في زمانه ، وإنّه إنّما غيّروا من بعده وبدّلوا كما غيّر أقوامٌ كثيرون وبدّلوا بعد أنْ رُفعَ أنبياؤهم أو ماتوا» . تركتْ كلماته الأخيرة ترنّ في ذهنها ، وغادرتْ على عَجَلٍ

كأنّما تهربُ منه ، وهذه المرّة لا إلى السّكن ، ولا إلى بيتها الرّيفيّ ، بل
إلى قمّة الجبل ؛ إلى المسيح المصلوب فوق قبّة الكنيسة التّاريخيّة .

أوصلتْها السّيّارة إلى أقرب نُقطة من الطّريق الزّراعيّة المؤدّية إلى
الجبل المشهور . كان النّهار لا يزال فيه بقيّة من نور ، تعمّدتْ بأشعّة
الشّمس قبل أنْ تبدأ رحلتها الطّارئة ، فتحتْ ذراعيها لهذه المسكينة
الّتي لا تكفّ عن الإشراق كلّ يوم من ملايين السّنين ، وسألتْها وهي
ما زالتْ تفتح ذراعيها على اتّساعهما كمن تهمّ باحتضانها : «ألم
تتعبي؟! كلّ هذا الطّواف من أجل حفنة من النّور لحفنة من البشر؟!
متى تكفّين عن هذا اللّهاث السّرمديّ من أجلنا؟! أنا عن نفسي
أمنحك فرصةً للرّاحة ولو ليومَين ، دَعي البشرَ يشعروا بأهمّيّتك الطّاغية
حينَ يفقدونك ، دعيهم يشعروا بدفئك وهم يتلمّسون بعيون أصابعهم
ظلمة اللّيل وبرودته» . عقدتْ بين ذراعَيها ولفّتْهما على عَضُدَيها كمنْ
تعانق الشّمس وتنهي حِوارها معها . ثمّ شدّتِ المئزر وصعدتْ .

في الطّريق ألقتْ سؤال الحيرة على كلّ شجرة ، ورمقتْ كلّ
صخرة بعين الشّكّ ، ولمستْ كلّ وردة بأصابع التّردّد . أشياء كثيرة في
أعماقها تتلاطم مثل أمواج البحر الهائجة . أسئلة معلّقة بالمئات تضجّ
في جنبات روحها . واصلت الصّعود لم تكد تقطع نصف المسافة حتّى
قالتْ لها الشّمس : «إلى اللّقاء في اليوم الآتي يا عزيزتي» . لوّحتْ لها
بيدَيها من جديد وتابعت المُرتَقى . من عادة اللّيل أنّه يهبطُ سريعًا بعد
رحيل الشّمس ؛ لكأنّه كان ينتظر غيابها بفارغ الصّبر حتّى نفض
غلالته على الكونِ وأنزل ستارته السّوداء على بقاعه . لكنّ النّجوم الّتي
كانتْ تتلألأُ في الأعالي خفّفتْ قليلاً من غلواء الظّلمة ، وأرسلتْ
خيوطًا رفيعةً مؤنسة ، أزالتْ عن قلب الفتاة بعضَ الوحشة . ثمّ تابعت

المُرتقى ، وهي تشعر بشيءٍ من السّعادة لأنّها ستجد هناك في قمّة
الجبل عند تلك الكاتدرائيّة إجابات شافيةً عن أسئلتها الذّابحة .

ها هي في الثّلث الأخير ، نظرتْ إلى ساعتها ؛ كانت العاشرة
مساءً . قالتْ في نفسها : «إنْ وجدتُ إجابات مُقنعة هناك فلربّما أتمكّن
من العودة قبل انبلاج الفجر ، وحينها يُمكن أن أندسّ في فراشي في
بيتنا الرّيفيّ دون أن أزعجَ أحدًا من أهلي» . تنهّدتْ ثمّ تابعتْ وهي
تشير إلى ذلك الشّامخ فوق قُبّة الكنيسة : «الأمر يتوقّف عليه ، إنْ
ساعدَني فسأعود في الوقتِ المُناسَب» . ارتاحتْ قليلاً قُبَيل الوصول
لكي تقف على القمّة بكامل نشاطها وتُوجّه أسئلتها بوعي تامّ .

الكنيسة مُطفأة ، أو هكذا خُيّل إليها ، وحده في الأعالي يتمتّع
بضوء نَشط يُبقيه مُشاهَدًا للكثيرين مِمّن يقفون على قمم الجبال
الدّائريّة المُحيطة بالكاتدرائيّة ، أو حتّى في المدن البعيدة المُشرفة المُطلّة ؛
تلك الّتي تأتيها روح المسيح كأنّها نورٌ من الله أو قَبَسٌ منه . أخذتْ
نَفَسًا عميقًا قبل أنْ تَلجَ البوّابةَ الحديديّة ؛ سمعتْ كأنّ صوتًا لم تَدْرِ
مصدره يُخاطبها : «بيتُ الرّبّ مفتوحٌ للضّالّين الباحثين عن الهداية» .
اتّخذتْ لها مكانًا مناسبًا في مقابلة المسيح ، وبدأتْ أسئلتها : «إذا
كنتَ إلهًا فلماذا جئتَ مولودًا بطريق بشريّة ، أفلم يكن مُقنعًا أن تهبطَ
من السّماء إلهًا كامل القُدرة؟! وإذا كانتْ لكَ القُدرة على إحياء الموتى
كما فعلتَ بصاحبك الميّت عازر ؛ فأحيِ قلبي فإنّي أُحسُّ أنّه ميّت ،
وأنّه يزداد موتًا كلّما ابتعدتَ عنّي . قُلْ لي مَنْ قَتَلَكَ؟! ولِمَ بدوتَ
وأنتَ تصعد الجبل لِتُصلَب غَيْرَكَ ، لِمَ جَبُنتَ وأنت الّذي بلغت بك
الشّجاعة أن تواجه الملك واليهود والنّاسَ أجمعين لِتُبشّر بدعوتك؟! ألم
يقولوا : إنّنا نخاف من يسوع أن يُفسدَ علينا ديننا؟! إذا كانوا يدّعون أنّ

دينَهم من الله ، وأنتَ الله فكيفَ تُفسِد عليهم دينَهم؟!! ألم يقولوا أنتم لستم تعرفون شيئًا ؛ إنّه خيرٌ لنا أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ من الشّعب ولا تهلكَ الأمّة كلّها؟! ألهذا الحد يكون الله مُثيرًا للشّغب ، ولا تصلح الأوضاع إلاّ بقتْله؟! ألم يقولوا حينَ سألهم الملك : ليُصلَب ؛ دَمُه علينا وعلى أولادَنا؟! أفكان الله مكروهًا إلى هذا الحدّ حتّى يُضحّي الكهنة بأنفسهم وبأولادهم وذرّيّاتهم من أجل التّخلّص منه؟!!! لديّ أسئلة كثيرة أيّها الربّ ، ولكنّك لم تُجبني عن أيٍّ من أسئلتي السّابقة؟! إنْ لم تفعلْ فأجبني عن سؤال أخير فحسب : «ألستَ ترى هذا الفتى الّذي يقول إنّكَ بشر أهُوَ على حقّ ، إنْ كنتَ مُطلَقَ القُدرة فأسمعني منه صوتَ الحقيقة ، وإنْ كنتَ ترفضُ الكلامَ الآنَ معي ، فاجعله يُكلّمني بلسانك ، ويوصل إليّ رسائلَكَ مِنْ خلاله ؛ ولا أريد أكثرَ من ذلك ، لا أريدُ أكثرَ من ذلك» .

بكتْ وهي تردّد العبارة الأخيرة . كلّما قالتْ سؤالاً تخفّفتْ منه ومن لهيبه بطَرْحِه للحظات ، لكنّ هذا اللّهيب سرعان ما يعود أشدّ من سابقه حين يرتدّ السّؤال إليها خاليًا من الجَواب . لم تسمع لأسئلتها حينَها صدىً ، لكنّ بكاءَها عطّر السّماء يومَها ، وسَمِعَتْه ملائكة السّماء والّذين هَبطوا معها الأرض يتلقّون دَعوات المُضطرّين .

مسحتْ دموعها النّازفة . عبرتْ نسمةُ هواء باردة ، شعرتْ بالبرد فعلاً ، ضمّتْ ذراعَيها على صدرها تتّقي بعضَه ، ثمّ راحتْ وهي تجرّ قدمَيها بيأس تهبطُ القمّة لتصل قبل انبلاج الفجر إلى بيتهم الرّيفيّ . في الطّريق شعرتْ بتعبٍ وخوف . لجأتْ إلى إحدى أشجار السّنديان العتيقة ، هيأتْ مكانًا للغفوة تحتها ريثما تنال قِسطًا من الرّاحة ثمّ تتابع سيرَها .

اضطجعتْ على يمينِها ، وراحتْ تُحدّق في السّديم الظّلاميّ الّذي يعمّ المكان . عبرتْ نسماتٌ لطيفةٌ المكان وحوّمتْ فيه ، ثمّ ما لبثتْ أن عصفتْ بها زمجراتٌ عنيفة ، في لحَظات تحوّلت النّسائم الهادئة إلى عواصف راعدة ، مَلَك عليها الرُّعبُ كيانها وراحتْ تلوم نفسها على ما فعلتْ ، وبدأ قلبها يرتجف رُعبًا ، ازدادتْ زمجرة العاصفة المُفاجئة ، وخُيّل إليها أنّ هذه العاصِفة ما هي إلا الشّيطان مُتمثّلاً فيها ، فالوقتُ من العام لا يسمح لتوالد مثل هذه التّيّارات الهوائيّة العنيفة ، رجعتْ إلى قلبِها وبدأتْ تسأله بالله الحقيقيّ أن يُطمئِنَ رَجَفانها ، ويُهدّئَ إيمانها . في عينِ العاصِفة بدتْ لها جمراتٌ تُضيء في الظّلام تتوقّد كأنها قادمةٌ من الجحيم . لفّت العاصِفةُ بقاياها ، وانجلتْ عن كائنٍ متوحّشٍ ظنّتْه في البداية الغول الّذي سمعتْ قَصَصه وهي طفلة . لكنّها عدَلتْ عن هذا الرأي حينَ سمعتْ صوتًا كريهًا يشبِه العُواء رجّحتْ أنّه ذئبٌ ، فازداد رُعبها ، وقفتْ على قَدَمَيها تُحاول الهُروب ، لكنْ إلى أينَ وهي تراه يسدّ عليها كلّ الجهات . فكّرتْ سريعًا قبل أن تهتدي إلى صعود الشّجرة العتيقة وتتّخذها مكانًا لحمايتها ولنومها . بالفعل تسلّقت الشّجرة العتيقة بخِفّة ، وأدارتْ ظهرها للمشهد المُرعِب حتّى لا تراه من جديد . سمعتْ عُواء الذّئب يَخفُتُ تدريجيًا . فبدأ الهدوء يعود إليها كذلك تدريجيًا . بعد دقائق كانت العاصفة قد انتهتْ وعُواء الذّئب قد اختفى ، وهي لشدّة الهول والرّعب والتّعب كانت قد لفّتْ جَسدَها على نفسها ككرة وسقطتْ في بئر النّوم العميقة جداً .

في النّوم ، رأتْ ما لا يُرى . رأتْ دُنيا غير الّتي تعيشُ فيها . سهولاً خضراء مُنبسِطة ، وأطفالاً يتراكضون فيها فَرِحين ، ومياهًا جارية من

تحت الأقدام، ويد المسيح نفسه تمتدّ إليها، لتأخذها من الشّجرة الّتي
تنام فوقها إليه. سمعتْه يقول لها: «لستُ الله... ولن أكون...»
فتسأله: «مَنْ يُبصر الطّريق؛ فقد عَميتْ كلُّ السّبل...!!». فيُجيبها:
«مَنْ آمنَ بي رَسولاً من عند الله وَإنْ ماتَ فَسَيَحْيا». «ومن هم المؤمنون
بك؟!». «المُوحِّدون والمُبشّرون بأخي». «وَمَنْ أخوك؟!». «رسولٌ مثلي،
إنّما نُرسَل بشرًا إلى البشر ليَفهموا منّا ويُبلّغوا عنّا». «وما هذه العيدان
الّتي يصلبونكَ عليها؟!». «كلّما اقتربَ موعد نزولي إلى الأرض زاد
عددُ المُوحّدين لله والمؤمنين بي رَسولاً. ويومًا ما ستنتهي كلّ هذه
الكنائس الّتي ترتفع الصّلبان فوق قبابها، وستمتلئ بالّذين يؤمنون
بالله الواحد الّذي كان مولدي آيةً من أجله، وعودتي آيةً أخرى من
أجله!!».

استيقظتْ مرتاحةً. احتاجتْ بعضَ الوقت لتعرف أينَ هي؛ ثمّ
شهقتْ عندما عرفتْ أنّها نامتْ وقتًا طويلاً هنا. مدّتْ يدها إلى
حقيبتها الّتي لا تُفارقها، شربتْ بعض الماء، وغسلتْ وجهها، ونظرتْ
في ساعتها، كانت تُشير إلى الرّابعة فجرًا، أقلّ من ساعتَين وتعود
الشّمس إلى عملها الأزليّ. قفزتْ إلى الأرض. وَمَضَتْ.

تركتْ وراءَها في منتصف اللّيل بيوت القرية وادعةً هادئةً حالمةً،
صارَ خيار العودة إلى المنزل الرّيفيّ ضربًا من العبث، فلن تصل إلى
هناك قبل أن تكون الشّمس قد نشرتْ كلّ أجنحتها على المكان.
ففضّلتْ المُضيّ باتّجاه الطّريق العامّ لعلّها تجد سيّارة أو حافلةً تُقلّها إلى
المدينة. وهكذا فعلتْ. في الخامسة وصلتْ إلى الطّريق المُعبّدة، بدا
خاليًا هادئًا. تمنّتْ أن تمرّ أيّة مركبة فتُقلّها فقد بلغ منها التّعب كلّ
مبلغ، ودوامها في الجامعة يبدأ اليوم في الثّامنة. لكنْ مَنْ يجرؤ على

أن يُشاركه الرّكوب في سيّارته أحد الغرباء في هذا الوقت الغريب!!
ومَنْ يُغامر في أن يُصعد معه سيّدة في جنح الظّلام إلى سيّارته،
سيظنّها جنًا أو شيطانًا أو شبحًا وسيمتلئ رعبًا لمجرّد التّفكير بأنّ الّذي
يجلس معه هناك قادمٌ من مساكن الجنّ في أعماق الأرض ومجاهل
الصّحارى.

ظلّتْ تمشي في الطّريق المُعبّدة حتّى تنفّس الصّبح، وبدأتْ حركةُ
العمل تملأ المكان بالضّجيج. استقلّتْ أوّل حافلة مُنطلقة إلى المدينة.
كان بإمكانها أن تلحقَ بمحاضرتها الأولى، ولكنّ التّعب جعلها تُقرّر
دون تردّد الذّهاب إلى السّكن. التقتْ بها وَعد على باب الشّقّة ولمّا
رأتها صاحتْ بها: «ما الّذي حدث؟! أيّ عفريت أرى؟! انظري إلى
نفسك أيّتها المجنونة؛ إنّك تبدين قادمةً من الكُهُوف في العصر
الحجريّ؟! مع مَنْ قضيتِ الليلة يا مَقصوفة؟! أمعقولٌ مع هذا الّذي...
مَعْ مَنْ يا مسيحيّة يا مؤمنة؟!» أزاحتْها برفق عن طريقها دون أن تنطقَ
بكلمة، فازدادتْ وعدُ تعجّبًا، تبعتْها خلفَها لتعرف منها شيئًا عمّا
حدث، لكنّها لم تَنبسْ ببنتِ شفة، فقط أشارتْ لها بأن تخرج لكي
تلحقَ بمحاضرتها. أمّا هي فقصدتْ أقرب الطّرق إلى سريرها ورمتْ
نفسَها فوقه بملابسها الرّثّة وحذائها المغبرّ وحقيبتها البالية، ونامتْ
كمن لا يُريد أن يستيقظ من نومه إلاّ في الآخرة!!

(١٩)
كَمَا تَرَكَ لَكُمُ المُلُوكُ الحِكْمَةَ، فَكَذَلِكَ اتْرُكُوا لَهُمُ الدُّنْيا

وجدتْها ما تزال نائمةً في سريرها بعد أن أنهتْ دوامها ، نظرتْ إليها بإشفاق هذه المرّة وهي ترى منظرها البئيس ، وبكتْ فعلاً لها ، كفكفتْ دموعها وهي تهمس : «ما الّذي فعلَ بكِ كلّ ذلك يا مسكينة؟!» . جلستْ إلى جوارها على حافّة السّرير ، هزّتها من كتفها بلُطف فاستيقظتْ مذعورة . تلفّتَتْ حولها فرأتْ (وعْد) ، حضنَتْها بقوّة ، وفعلتْ وعد مثلها وراحتَا تبكِيان وتَنْحبان . هدَأتا أخيرًا . تركتْها وعد لتأتي لها بالماء ، ثمّ جهّزتْ لها الحمّام ودعَتْها لكي تغتسل جيّدًا ، وتلبس أنظف الثّياب . وغابت في مطبخ الشّقّة تُعدّ لها طعامًا شهيًا .

على مائدة الطّعام ، ظلّتا صامتَتَين ، كانت وعد تنتظر من بَتول أن تبدأ الحديث ، فالكلامُ كلّه عندها ، هي الّتي غيّرتْ مجرى الأسبوع كلّه ، أمّا وعد فليس لها من حظٍّ في هذا التّغيير أو التّغيُّر شيء .

– قولي يا أختاه فإنّي أريد أن أعرف ماذا حدث لك؟!

– لقد ذهبتُ ليلةَ أمس إلى كاتدرائيّة الجبل .

– في اللّيل؟! لماذا هل جُننت؟!

– لكي أسأله كلّ الأسئلة الّتي تغصّ بها روحي .

– مَنْ هو؟!

– الرّبّ .

– وهل أجابكِ؟!

– كلا . أوكلني إلى صالح ليكلّمني عن طريقه .

– مرّة أخرى صالح!! ما الّذي يدعوك إلى أن تُرافقي وغدًا مثله ، قلبَ حياتَكِ رأسًا على عقب بهذه الطّريقة المؤلمة .

– لا تقولي عنه وغدًا ؛ إنّه أطهر رجلٍ عرفتُه في حياتي . وأكثر إنسانٍ مُستقيم في سلوكه ، متفتّح في عقله ، مُبشّرٍ بدينه مرّ عليّ .

– قولي عنه ما تشائين ، لكنْ إيّاكِ ثمّ إيّاكِ أن يلعبَ بعقلكِ فتتحوّلي إلى دينه؟!

– أنا في طريقي إلى أن أفعل .

– إذًا اكتمل جنونكِ يا أختاه ، وستكتمل دائرة المُصيبة .

– دَعيكِ من دينه يا وعد ، ولكنْ قولي لي : هل أنتِ متأكّدةٌ من أنكِ تتّبعين دينًا سليمًا؟!

لم تُمهلها حتّى وقفتْ وصرختْ في وجهها ، ثمّ صَفعَتْها على وجهها ، فتابعتْ بتول :

– لا تهمّني هذه الصّفعة النّاتجة عن الذّهول وفُقدان سيطرتك على نفسك بسبب ما سمعتِ إنْ أدّتْ إلى أن تُفكّري بعقلانيّة بما قلتُ .

– أنتِ كافرة يا بتول . (شدّتْ شعرها وراحتْ تصرخ ؛ لقدْ كفَرَتِ البِنت . . . لقدْ كفَرَتِ البِنت) .

– افعلي مثلي ؛ ابحَثي عن الحقيقة بقلبٍ مفتوح . وسأتابع أنا بحثي كذلك . ولا تُفكّري مرّة ثانِيةً بيدك . ولا وقتَ بعدَ الآن ، ولا عذرَ لأحد .

تركتْها دون أن تأكل وغادرتْ شُقّتها على عَجَل ، وهبطت البناية ، ثمّ قطعت الشّارع المؤدّي إلى الجامعة ، وغذّتْ سيرها باتّجاه الكلّية ، تبحثُ بشوق عن (صالح) . وجدتْهُ يحدّث عدداً من الزّملاء ، لمّا رآها قادِمة نحوه ، استأذن زملاءه ، وأسرع إليها : «لقد قلقتُ عليك لم تحضري محاضرات الصّباح» . «لا تقلقْ ها أنذا بخير» . «هناك أشياء حدثتْ أمس» . «مثل ماذا؟!» . «لقد ازدادت التّهديدات الّتي تلقّاها مُراد بسبب نشاطه الإلحاديّ . إنْ لم أتداركْه فسيُصاب الفتى بأذى» . «وماذا تودّ أن تفعل؟!» . «لا أملكُ له إلاّ الحوار . سأحاول أن أُقنعه بالعدول عن أفكاره ؛ لغة الحِوار هي الأرقى والأسمى ، لا أملك بندقيّة ولا أملك سيفاً ، جئتُ لأغيّر العالَم بالكلمة ، العالَم الّذي في داخلي وذلك الّذي خارجه» . «عليكَ أن تُحاوِرني قبله» . «حاضِر» . «وتتداركني قبل أن تتهشّم رأسي» . «حاضِر» .

«الله قائمٌ بذاته ؛ أزليٌّ أبديّ ، ليسَ له أوّل وليسَ له آخِر ، لم يأتِ من شيءٍ ، ولا أتى منه شيء ، ولا يعادله أحدٌ ، لا يخرج عن جوهره إلى جَوهرِ مَنْ خَلَق لأنه سيكون مَخلوقاً ؛ والخالق لا يكون كذلك أبداً ، لا بولادة كالشّعلة من الشّعلة ، ولا بانطباعٍ كالنّقش على الشّمع ، ولا يتجسّد بأيّة هيئة ، وليسَ فيه اختلافٌ وامتزاجٌ بين طبيعتَين» .

مَشَيا على البِساط الأخضر الّذي يقع خلف كلّيّة الآداب ، وجلسا في ذات المكان الّذي جلس فيه ثلاثتُهم قبل أسابيع قليلة حينَ حاورَا (مراد) في إلحاده . قال لها صالح :

– أتعرفين أنّ بطرس ومرقس وهما من الحواريّين كانا يُنكران ألوهيّة المسيح .

– حقّاً؟!

– بلى . وعبرَ التّاريخ المسيحيّ كان المُوحِّدون هم الأكثر عدداً ولهم الغلبة . لكنّ مُشكلتهم أنّهم لم يكونوا يملكون السّلطة لينشروا مبادِئهم كما فعل المُثلِّثون أو المُؤلِّهون .

– وماذا أيضاً .

– اتركي ما قاله رِجال الدّين عن الموضوع جانِباً ، لكنْ حتّى المؤرّخون القُدامَى يُسلِّمون أنّ أكثر أتباع المسيح في السّنوات التّالية لوفاته اعتبروه مجرّد نبيّ آخر لبني إسرائيل . وهناك عبارة يُمكنك الاطّلاع عليها موجودة في دائرة المعارف الأمريكيّة تقول : «لقد بدأتْ عقيدة التّوحيد كحركة لاهوتيّة بدايةً مُبكّرة جداً في التّاريخ ، وفي حقيقة الأمر فإنّها تسبقُ عقيدة التّثليث بالكثير من عشرات السّنين» .

– إذا كنتَ تقول إنّ التّوحيد أسبق من التّثليث ولم يكن التّثليث على عهد عيسى ولا على عهد حواريّيه ، فمن أينَ جاءت إذاً هذه العقيدة الّتي يدين بها الكثرة الكاثرة من المسيحيّين في العالَم في أيّامنا هذه؟!!!

– هذه قصّة طويلة . لكنْ قبل أن أخبرك بها ، سأذهب لإحضار كوبَي نسكافيه لي ولك وبعض البسكويتات ، لعلّي أسدّ عصافير بطني من أجل أن أرتّب لك أفكاري .

– أحسنَ شيء ، وأنا أيضاً جائعة .

تركَها ومضى . تبعَتْه بعينَيها ، كانت قد ازدادتْ به شغفاً ، وبدأتْ تجد عنده الرّاحة والطّمأنينة ، شيءٌ ما في داخلها قال لها : إنّه الحواريّ الثّالث عشر الّذي لو كان زمانه غير هذا الزّمان لَشهِدَ العشاء الأخير مع المسيح ؛ إنّه يتكلّم عنه بعلمٍ وهدوء وثقة كما لو كان حاضِراً بينهم .

تذكّرتْ عبارة المسيح للحواريّين : «يا معشرَ الحواريّين اجعلوا كنوزكم في السّماء ، فإنّ قلبَ الرّجل حيثُ كنزه» . فهمستْ فيما بينها وبينها «إنّ قلبَ هذا الرّجل مُعلّقٌ بالسّماء ، يا لَهذا الفتى المُذهِل!!» .

تابعتْ خواطرها ، وهي غائبةٌ عن العالَم الّذي يجري من حولها ، أحسّتْ أنّ السّكون أصاب كلّ شيءٍ ما عدا ذلك الّذي في القلب ، كان يَضجّ ويَضجّ ، ويَثور ويَثور . . . ها هي تقترب منه أكثر ، ها هي ترى فيه الخَلاص من كلّ عذابات الأسئلة المُلحّة ، ها هي أيضًا تراه مُنقذَها الّذي سيوصلها إلى جِنان الحقّ والحقيقة ، منذ صغرها لم تكنْ مؤمنةً بكثيرٍ ممّا ترى وتُشاهد ، كانت كثيرة الحيرة في الفارق الكبير الّذي تحاولُ أن تردم هوّته بين تعاليم المسيح وبين مَنْ يدّعون اتّباعه ، تعلّمتْ : «أنّ المسيح ما ادّخر طعامًا لغده أبدًا ، ولم يمتلك مسكنًا ، ينتقل مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ ماشيًا ؛ أينما أدركه اللّيل بات» . وحين تُقارن ذلك بما عليه الأساقفة والمطارنة من شِبَع وغنىً وأموال طائلة تُنفَق عليهم وكنائس مُذهّبة توضَع تحت تصرّفهم ، تكفر بالسّلوك وتؤمن بالقول . ثمّ تتذكّر سلوك المسيح : «مأواه حيثُ جَنّهُ اللّيل ، سِراجُهُ ضوءُ القمر ، وظِلّه اللّيل ، وفِراشُه الأرض ، ووسادته الحجر ، كان قليلَ الضّحك ، لم يره أحدٌ مُقهقِهًا» ، وتجد أنّ الفرق في السّلوكَين يساوي أبعدَ ممّا بين الثّرى والثُّريّا .

– هه . . . ها أنتِ . . . بِمَ تُفكّرين أيّتها الأميرة؟!

انتشلها صوتُه الدّافِئ من شرودها العميق ، تلفّتَتْ نحوه واتّسعتْ ابتسامتها ، هتفتْ في داخلها : «ها هو الحواريّ الثّالث عشر قد عاد من جديد ، ولكنْ ليس في يديه أكواب الماء المُقدّس وكِسَر الخُبز ، بل في يديه أكواب النّسكافيه وقِطَع البسكويت» . ثمّ تضحك سعيدةً . تابع

سؤاله وهو يجلس إلى جانبها ، وقد أحسّتْ بلُطف مَحضَره ، وبَركة جلوسه :

– أينَ كُنّا؟!

– علّقنا سؤالاً قبل ذهابك ، كان السّؤال : من أينَ جاءتْ عقيدة التّثليث .

– نعم ؛ كُنّا قد قُلنا إنّ المسيح لم يجئ بها ولا حتّى أتباعُه من بعده لعشرات السّنين ولربّما لمئات السّنين ؛ إلى أنْ حلّ زمن حُكم الامبراطور الرّومانيّ الوثنيّ قُسطنطين في القرن الرّابع الميلاديّ الّذي أحبّ أن يَدخُلَ في المسيحيّة عندما رأى أنّ أجزاء كثيرة من إمبراطوريّته تعتنق هذا الدّين ، وعندما رأى أُمّه قد فعلتْ ذلك . فأمر أن يُعقَد مجمع مسكوني في نيقية على عادة الرّومان في مناقشة الآراء ، كان ذلك عام ٣٢٥م حضره ما يقرب من ألفَي رجل دين في ذلك الوقت . تزعّم البطريرك (آريوس) المصريّ صاحب الحجّة القويّة جناح المُوحّدين ، وتزعّم (أثناسيوس) بطريرك الإسكندريّة جناح المُؤلّهين . وأمر الاثنَين أن يتناظرا فيما بينهما ليختار من خلال تلك المناظرة المذهب الّذي يروق له (لاحظي الّذي يروق له ؛ ومن خلال ماذا ؛ مِنْ خلال مُناظَرة) . بالطّبع في كلّ المجامع الّتي عقدت من أجل الحوار المسيحيّ المسيحيّ تطوّر النّقاش إلى العنف ، واختلفا في أمور كثيرة ، لكنّ الخلاف الأكبر تركّز حول شخص المسيح : هل هو إنسانٌ رَسول كما يقول (آريوس) ويُتابعه على ذلك عددٌ كبيرٌ مثل (ميلتوس) رأس كنيسة أسيوط ، وأسقف مقدونيا . أم هو إله مُتجسّدٌ في بشر كما يقول (أثناسيوس) . لكنّ الإمبراطور عندما رأى أنّ الحوار تطوّر إلى العنف كان لا بُدّ له من التّدخُّل ، فتدخلّ لصالح المُؤلّهين ؛ ليس لأنه

اقتنعَ بِحُجَجِهم وأدلّتهم ولا كلامهم ؛ بل لأنّ أفكار المؤلّهين تُشبه عقائد الوثنيّة الرّومانيّة الّتي قامت على جَعْلِ إله لكلّ شيء .

– أمعقولٌ أنّ بِدعة التّثليث هي بِدعة ظهرتْ بعد وفاة المسيح بما يقربُ من أربعة قرون .

– بلى .

– إذًا التّحوّل إلى عقيدة التّثليث كان حُكمًا سياسيًا لا دينيًا ، وهوىً مُتّبعًا لا اعتقادًا .

– بالضّبط ، والمصيبة الأدهى من ذلك هو أن يُناقش أمرٌ عَقَدي كبير مثل هذا بطرق الدّيمقراطيّة ، صاحب الحجّة الأقوى والأصوات الأكثر هو الّذي يُؤخَذ بعقيدته ؛ ومع أنّه نُوقِشَ بهذه الطّريقة الخاطئة إلاّ أنّه لم يُؤخَذ حتّى بالمنهج الدّيمقراطيّ في هذا الشّأن ، بل أجبر الإمبراطور قُسطنطين مجمع مسكوني أن يُقرّوا عقيدة التّثليث لأنّ تعدّد الآلهة هو ما كان عليه الرّومان من قبلُ ؛ أرأيتِ استهتارًا بالدّين ، وتسييسًا له أكثر من ذلك؟!!

– أنا أصبحتُ أكثرَ اقتناعًا بدينِك .

– ديني الصّحيح ، هو دينُكِ الصّحيح ؛ لا فرق .

– كيفَ؟!

– عيسى ومحمّد رَسولان مَبعُوثان من عند الله . والسّابق بشّر باللاّحق .

– ولكنْ إذا كان رسولُنا بَعَثَه الله ، ورسولُكم بَعَثَه الله كذلك ، فمعنى ذلك أنّ مصدر الرّسالة واحدٌ ، وإذا كان مصدرها كذلك ، فيجب أن تكون تعاليم الرّسولَين مُتطابِقة أو مُتشابِهة ؛ أليسَ كذلك؟!

– بلى .

– فقرّبني أكثر إذًا إلى ذلك بطرح أمثلة .

– خذي إن شئتِ العشرات منها ؛ ألم يقل يسوع في تعاليمه : «اعملوا لله ولا تعملوا لبُطونكم ، انظروا إلى هذه الطّير ، تغدو وتروح ، لا تحرث ولا تحصُد» .

– اممم ؛ فما يُقابله في دينكم .

– أكثر من حديث ، هاكِ واحدًا منها : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» .

– وأيضًا؟!

– ألم يقل المسيح : «طُوبَى للمُتواضِعين بالدُّنيا هم أصحابُ المنابر يوم القيامة ، وطُوبَى للمُصلحين بين النّاس» . فرسولنا يقول : «مَن تواضعَ لله رَفَعه» . والمسيح يقول : «كما تركَ لكم المُلوك الحِكمة ، فكذلك اترُكُوا لهم الدُّنيا» . ورسولنا قال لعُمَر عن الأكاسرة ملوك الفرس : «أما تَرضَى أن تكون لهم الدُّنيا ولنا الآخرة» . أمثلة كثيرة يا بتول ربّما لا أحصيها في موقف واحد .

– أرجوكَ زِدْني فإنّ كلّ مثال تطرحه يقرّبني من دينكَ أكثر ، ويجعلني أقتنع أنّهما صَدَرا عن مِشكاةٍ واحدة . وإنّ برد اليقين ليتنزّل أكثر على قلبي مع كلّ مثال .

– حاضرين للطّيبين ؛ ألم يقل المسيح : «مَنْ عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ كان يُدعَى عظيمًا في المَلَكوت الأعلى» . ونبيُّنا يقول أحاديث كثيرة قريبة من هذا منها : «مَنْ عَلَّم علمًا (أي عَلِمَ وعَمِل) فَلَهُ أجرُ مَنْ عَمِلَ به لا ينقُصُ من أجر العامِلِ شيئًا» .

– هذه الأمثلة الرّائعة كانت في الأقوال ، فهل تَشابَها في السّلوك والأفعال .

- كثيرًا .
- أنرْ بَصيرَتي .
- ألمْ ينشأ المسيح عابدًا زاهدًا ، يلبس الصّوف ، وشعرَ الماعز ، نَعلُه من لِحاء الشّجر ، شِراكُه ليف ، لم يدّخرْ شيئًا قطّ ، طعامه : ما وَجَده أكلَه؟!
- بلى .
- فمثله تمامًا كان يفعل نبيّنا محمّد . وكان راعيًا ، وكان يأكل ممّا وجده في بيته ، فلم يتكلّف مفقودًا ، ولم يأنف موجودًا .
- زِدْني . فإنّهما يبدوان أخوَين شقيقَين في كلّ شيء .
- حتّى أتباع النّبيَّين تشابَها ، فقد كان أتباعُ المسيح إذا سَمعوا مَواعظَهُ تأثّروا وسالتْ دموعهم ، وكذلك أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، كانوا إذا سَمعوا موعظةً منه ذَرَفَتْ دُموعُهم وَوَجِلتْ قلوبهم . (يصمت قليلاً) هناك في هذه التّشابهات ما هو أعظم .
- فيمَ هو إذًا؟!
- في ملخّص العقيدة بأكملها .
- قُلْ لي .
- في وصايا المسيح العشر الشّهيرة حينَ نسمع أكثرها فإنّنا لن نميّز تمامًا فيما إذا كان عيسى هو مَنْ ينطق بها أمْ محمّد .
- فماذا قال ، أو قالا .
- ألا تعرفينها؟!
- بلى ؛ ولكنْ أحبُّ أنْ أسمعَها منك .
- لا تحلفْ باسم الله بالباطل ، أكْرِمْ أباكَ وأُمَّك ، لا تقتُلْ ، لا تَزْنِ ، لا تَسْرِقْ ، لا تَشْهَدْ بالزّور ، لا تَشْتَهِ امرأةَ قريبك ، لا تَشْتَهِ مُقتَنَى غيرك .
- صدقًا ؛ هما ينطِقان بِلِسانٍ واحدٍ . وهل هناك أمرٌ آخر؟!

- أودّ أن أركّز على بعض الحقائق ، مِنَ الثّابت تاريخيًا أنّ عقيدة التّثليث لم تكنْ موجودةً في العهد الجديد ، ولا في أعمال الآباء الرّسوليّين ، ولا حتّى عند تلامذتهم المُقرّبين ، وعقيدة إنسانيّة المسيح كانت هي الغالبة ، وإنّ النّاصريّين سُكّان مدينة النّاصرة وجميع الفِرَق النّصرانيّة الّتي تكوّنتْ عن اليهود اعتقدتْ بأنّ عيسى إنسانٌ وبشرٌ لكنّه مُؤيّدٌ بالرّوح القُدُس (يصمت ؛ كما هم كلّ أنبياء الله ورسله) ، وما كان أحدٌ آنذاك ولا حتّى اليوم ليَتّهمَ هؤلاء بأنّهم مُبتَدِعون أو مُلحدون أو مُهرطقون ، والّذي حدث أنّه كَثُرتِ المجامع الّتي تبحث في مسألة ألوهة المسيح بعد قرون من وفاته ، وكان كلّما زادَ عددُ المُتنصّرين من الرّومان الوثنيّين ظهرتْ عقائد لم تكنْ موجودةً من قبلُ ، وأنّ أكثرها اقتُبِسَ من عقائد الوثنيّين وزيدَ عليها واستُحدِثَ منه . وإنْ شئتِ ارجعي إلى الموسوعة الكاثوليكيّة ستجدين فيها هذه العبارة المُوثّقة : «إنّ صياغةَ الإله الواحد في ثلاثة أشخاص لم تنشأ مُوطّدةً ومُمْكّنة في حياة المسيحيّين وعقيدة إيمانهم قبل نهاية القرن الرّابع» .

قاما يمشيان معًا ، هُوَ شعر بأنّه أدّى واجبًا كان عليه أن يفعله منذ زمنٍ بعيد مع بتول ؛ بتول الّتي تتحوّل في كلّ يوم إلى حبيبة مُنتَظرة ، وأميرةٍ تملكُ عليه قلبَه وجوارحه وعوالَمه . وهيَ شعُرتْ بأنّها قامت من المكانِ إنسانةً أخرى ، إنسانةً لم يَعُد لها من هدف إلاّ أن يظلّ هذا الفتى الخطير ماثلاً أمامها في كلّ حين ؛ إنْ كان بجسده وإنْ كان بطيفه ، وتيقّنَتْ أنّ عليها أن تتّخذ خُطوةً جريئةً في هذا الاتّجاه . بعضُ ما يضجّ به القلب من وساوس الدّنيا لا تُريحه إلاّ الكلمة الهابطة من السّماوات العُلى ، الّتي لم تتلوّث بهواء الدّنيا الفاسدة ، بل هبطتْ نقيّةً صافيةً ، إنّها الكلمة الصّادقة ؛ إنّها «كلمة الله» .

(٢٠)
طالبُ الدُّنيا كَشاربِ ماءِ البَحْرِ كُلَّما ازدادَ شُربًا ازدادَ عَطَشًا

إنْ وجدْتَ الثَّمرة الَّتي تأكلها مُرَّة فاقذفْها من فَمِك ، ولا تَلعَنِ القَدَرَ الَّذي أوصلها إلى فمك المُطَيَّب . وإنْ واجهكَ حجرٌ في الطَّريق فأزله تشكرْ نفسَكَ ، ويشكرْك الَّذين مرّوا بالطَّريق ذاتها فوجدوها مُمَهَّدةً ، نعم يشكرونَك حتّى ولو لم يقولوا ذلك بألسنتهم ؛ لأنّ الله المُطّلع على ما فعلتَ قَوَّلَ جوارحَهم فَسَمِعَها هو دون أنْ يسمعوها هم . لاعنو القَدَر هم عجَزَة البشر ؛ القَدَرُ لكَ لا عليكَ ، وأنتَ تُصرِّفه بحمدك لك ، وتُصرِّفه بلَعنكَ عليك ، فاخترْ أيّ المنزلتَين تُريد .

«لا يستقيمُ حُبُّ الدُّنيا وحُبّ الآخرة في قلب مُؤمن كما لا يستقيمُ الماء والنّار في إناء» . مَنْ قال ذلك عيسى أم مُحمّد؟! . «إنّما طالبُ الدُّنيا كشاربِ ماءِ البحر كُلّما ازدادَ شُربًا ازدادَ عَطَشًا حتّى يقتُلَه» . دُلّوني على قائل هذه الحكمة من الاثنَين ؛ أيّهما؟! «طُوبَى لِمَنْ قرأ كتابَ الله واتّبعه» . «وطُوبَى لِمَنْ بَكَى من ذِكْر خطيئته ، وحَفَظَ لسانَه ، ووَسِعَه بيتُه» . يا عيسى أأنتَ قُلتَ ذلكَ للنّاسِ أم أنتَ يا مُحمّدُ مَنْ قالَه؟! «يا عُلَماء السّوء ، جعلتُمُ الدُّنيا على رُؤوسكم ، والآخرةَ تحتَ أقدامكم ، قَولُكم شفاء ، وعَمَلُكم داء» . أهذا صَوْتُكَ يا عيسى أم صوتُ أخيك محمّد فقد تشابَهَ عليَّ الشّدا!!

الإنسانُ ابنُ موقفه ، وهو نتاجه ، فانظُر أينَ تقف . فإنّما الحياة نهرٌ ممتدٌّ وله ضِفّتان ؛ ضِفّة الحقّ وضِفّة الباطل ، فاخترِ الحقّ تحمد العُقبَى . ثمّ انظر في ضفّة الحقّ أيضًا أينَ تقف ، فإنّما هي منازل ، بعض منازلها أعدّ لِمَنْ يُريدُ السّلامة ، وبعضُها أُعدَّ لمن يَجهرُ بالرّسالة ، وبعضُها أعدّ لِمَنْ يَصبرُ على تَبعاتها ، وبعضُها وعْرٌ ، وبعضُها مُنبسط . وبعضُها خضراء يَقفُ فيها الشّجر وقوف الظّلّ ، وبعضُها صفراء يَيْبَسُ فيها الثّمرُ يُبوسَةَ الحجر المُلقَى على قوارع الطّرقات ، والرّمل المبثوث في المفاوز المُهلكات .

كان مساءً خريفيًا قُبَيل نهاية الفصل الأوّل من السّنة الثّانية من عمر الثّلاثة في الجامعة . خرجَ مُتخفّيًا لا يُريد لأحد أن يراه ، شَدّ حزامَ حقيبَة الكُتُبِ على كَتفه ، وتأكّد من أنّها جميعًا موجودةٌ هناك ، ومشى . ظلّ يمشي وحده حتّى شارَفَ البوّابة الأقلّ ازدحامًا من بوّابات الجامعة . نظر حوله ليتأكّد مِنْ أنّ أحدًا لا يتبعه . وظل حَذِرًا ، كانت رأسه تدور في كلّ الاتجاهات توقُّعًا للأسوأ كأنّما رُكّبتْ على قاعدة من زئبقٍ فلا تهدأ أبدًا ، وكأنّما هي رأسُ طيرٍ ينقر الحبَّ من الأرضِ نَقْفًا .

على البَوّابة الشّرقيّة وجدَ بعضَ المُستهترين من الطّلّاب يُقهقهون ويُدخّنون حشيشًا ويضحكون بصوتٍ عالٍ ، ويُطلقون نُكات ماجنة . اطمأنَّ لهم ؛ فمثلُ هؤلاء لا يُمكن أنْ يقصدوه بسوء . أصلحَ بيده اليُمنَى وضعَ حقيبة الكتب الّتي تتدلّى بإحكام على جانبه الأيسر ، ومضى . صارتِ البوّابة خلفه ، أحسّ أنّ طعنةً من الخلف قادمة ، ومن هؤلاء الّذين اطمأنّ لهم قبلَ قليلٍ ، لكنّ وسواسه القهريّ هذا بدأ يتلاشَى شيئًا فشيئًا وهو يبتعد عنهم مُولّيًا وجهه جهة الطُّرُق الفرعيّة

الّتي تضجّ بها تلك المنطقة ، كان صوتهم قد بدأ يخفت ، ولم يعُد يَصِلُ إليه إلاّ ضعيفًا باهتًا مُتقطّعًا . التقطَ أنفاسه حينَ ابتلعه الحيّ الجديد بعماراته الشّاهقة وشوارعه المُتشابكة . بدأ الظّلام يُلقي بخيمته على الطّرقات ، وفكّر أنّ مَبيته في منزله لن يكون أمرًا حَسَنًا ، فلربّما اصطادوه على باب البناية قبل أن يصعد إلى شقّته . فقرّر أن يتابع المسير مُتوغّلاً باتّجاه المشرق ، حتّى إذا تعب من المشي ، أشار لسيّارة أجرة عابرة ، وسيركبها إلى صديقه الّذي سيجد عنده الدّفء والأمان . هكذا كان هذا الصّديق لكلّ زملائه في الجامعة على اختلاف أفكارهم ، وحتّى على اختلافهم معه في الرّأي ، كان مظلّة يأوي إليها كلُّ المُتنافرين لأنّه استطاع بذكائه اللّغويّ واحترافه الحِواريّ أنْ يُصيب في فؤاد كلّ زميلٍ موضعًا فيُحبّه من ذلك الموضع .

سار هذه المرّة بخُطُوات مُتسارِعة كأنّما يهربُ من شبح ، وهَرْول في بعض منعطفات الطّرق ، أراد أن يختفي حتّى عن نفسه . مرّتْ بجانبه درّاجة ناريّة مُسرِعة ، حانتْ منه التفاتةٌ إلى صاحبها ، كان يلبسُ خوذةً واقيةً ، ويُنزِلُ مُقدّمتها الزّجاجيّة على وجهه ، فلم يتبيّنْ من وجهه شيئًا كثيرًا ، في غمرة مروره السّريع استطاع أن يلمح عينَيه من خلف الغِطاء الزّجاجيّ ، ويلتقط لهما صُورةً في ذهنه ، ويُعيد إنتاجَها بعد مرور الدّرّاجة الخاطف . نعم إنّهما عينان ضيّقتان يَبدو أنّ الغضبَ اتّخذهما مسكنًا له فلم يُبارِحْهما ، أعادهما مرّة أخرى عارِضًا لهما على شبكيّة مِخباره فرآهما تقدحان شررًا ، حاول أن يستنطق الكلام الّذي تقولانه فسمعهما تقولان : «لن تُفلتَ منّا» .

هذه المرّة سقطَ الرُّعبِ في قلبه ككرة نُحاسيّة ثقيلة فأحدثَتْ فيه ثُقبًا واسِعًا وتركتْ حول الفجوة الّتي أحدَثَتْها نِياطَ قلبه تغصّ بالدّم

والأوصال المُقطّعة . ضاقَ نَفَسُه ، وشعر بأنّ الأرضَ تدور به ، لكنّه استجمع قُواه وتابَعَ سيره في الطّريق . شاهدَ دُكّانًا على جانب الطّريق ، رأى بعض الزّبائن تقف أمام ثلاّجة الماء والعصير ، شعرَ بجفاف حادٍّ في حلقه ، كان الدُّكّان في تلك اللحظة يُمثّل له واحة الأمن والأمان ، وجنّةَ الدُّنيا والآخرة ، فخَطَا أوّل خُطوة باتّجاهه لعلّه يُخبّئ نفسه فيه قليلاً عن أعيُن الطّريق الّتي تَحدجُه في كلّ لحظة من كلّ صوب ، لكنّه سرعان ما عاد وعَدَل عن هذه الفكرة حينَ أحسّ أنّ كلّ العيون المغروزة في وجه الزّبائن تبدو كَعينَي صاحب الدّراجة النّاريّة . وأنّها تريد به شرًا . شعر أنّه مُحاصَرٌ من كلّ الجهات ، ولم يعد أمامه إلا أنْ يهربَ إلى الأمام ، فمضى وهو يضع يده تارةً على صدره كمن يُحسّ بأنّ قلبه سيسقط بين رجليه ، وتارةً يضعها على عنقه كمن يُحسّ بأنّ روحه سوف تطير من هناك تاركةً خلفها جُثّةً لرجلٍ مذعور .

مشى مُوغلاً باتّجاه الشّرق أكثر ، مَرّ بجانب بيتٍ ذي نوافذ قصيرة وواسعة ، ألقَى نَظرةً خاطفَةً على النّافذة ، كانت الغرفة المُضاءة ذات السّتائر المرفوعة قد كشفتْ ما بداخلها ؛ ثلاثةُ أطفال بأعمار متفاوتة ، يلعبون ويَصيحون ، ويتراكضون ويُكركرون ؛ للحظة تمنّى أن يكونَ أحدهم أو يكونَ رابعَهم ليتخلّص من هذا الفَزَع الّذي ينشبُ أظفاره في ظهره المفتوح للرّيح وللّعنات وللطّعنة المُفاجئة .

قطَعَ أفكاره غير الواقعيّة ، وتابعَ السّير . سَمعَ صوتَ درّاجة ناريّة تعدو خلفه من جديد ، فتسارعتْ نَبضاتُ قلبه ، ولم يجرؤْ أن يلتفتَ إلى الخلف ليرى صاحبَها ، ظلّ يستنهض كلّ قوّة في داخله لكي تُساعده على الهرب ، خانتْه رجلاه ؛ أحسّ أنّهما مَربوطتان إلى الأرض ، وأنّ عليه أن يخلع الأرض قبلَ أن يخطُوَ أيَّ خُطوةٍ جديدة .

توقّفتْ الدّراجة النّاريّة خلفَه تمامًا ، لم يُطاوعه عنقه ليلتفتَ خلفه ، كان صوتُها يُشبه زمجرةَ أسدٍ غاضبٍ ، وظنّ أنّ الأسدَ فاغرٌ فاه وسيبتلعه في أيّة لحظة ، مشى ببطءٍ كمن يستسلم لِقَدَره ، لكنْ شجاعته عادتْ إليه من جديد ، حينَ لم يفعل صاحب الدرّاجة النّاريّة الواقفة خلفه شيئًا له . سكَتَ صوتُها تمامًا . فازداد معيار شجاعته ، ومضى بخُطُوات سريعة ينهبُ الأرض . فكّر أنّ الوقتَ مُناسبٌ ليستقلّ سيّارة أجرة ويطلب من السّائق أن يوصله إلى صاحبه الأمين . توقّفَ ، دار ربع دورة إلى اليسار ، لم يَرَ أثرًا للدّراجة الّتي كانتْ تُزمجرُ قبلَ قليلٍ . بدأ يُشير إلى سيارات الأجرة المارّة لكي يستقلّ إحداها . من بعيدٍ في أوّل الشّارع رأى سيّارة تشقّ الأرض قادمةً نحوه ، دعاه الأمل إلى أن يجد عنده الطّمأنينة حين تقترب أكثر ، أشار إليها . لم تكنْ سيّارة أُجرة . لم يتبيّن أحدًا من رُكّابها بسبب الضّوء العالي الّذي غشّى على عينَيه ، لكنّها حينَ اقتربتْ أكثر استطاع بصعوبة أن يتبيّن ملامح السّائق ، كان سائقها أسمر البشرة ، قاسيَ الملامح ، يلبس لِباسًا رسميًا ، ويضع على عينَيه نظّارةً شمسيّةً سوداء . تساءل وقد عادَ إليه الرّعبُ من جديد : «نظّارة شمسيّة في وسط اللّيل ، وسوداء؟!!» لم يكدْ يُكمل تساؤله في ذهنه حتّى نزل من السّيّارة ثلاثةُ مُلثّمين ، أحاطُوا به في سرعة البَرق ، أحدهم لَوَى ذراعَيه خلف ظهره ، والثّاني وضع (الكلبْشات) في يديه ، والثّالث حمله بين ساعدَيه كطفل ، وألقى به في جوف السّيّارة ، وفي غضون ثوانٍ معدودات كانت السّيّارة تُغادر المكان دون أثر!!

(٢١)

يُمكنُ للواقفَيْنِ على ضفّتَي النّهرِ أنْ يشْرَبا منهُ معًا دونَ أنْ يَضيقَ بأحَدِهما

قال صالح لبتول : «هل يكونُ شَجَرٌ من غير حَبّ ، هل يكون زَرْعٌ من غير بَذْر ، هل يكون وَلَدٌ من غير أب؟!» فردّتْ بتول : «بلى . إنّ الله قد خَلَقَ الشَّجَرَ والزَّرْعَ أوّلَ ما خَلَقهما من غير حَبٍّ ولا بَذْر ، وخَلَقَ آدمَ من غير أبٍ ولا أمّ» . فردّ صالح كمن حصل على الجواب الّذي يُريد : «إذًا فالله خلقَ عيسى بمعجزة كما خلق آدمَ بمُعجزة ، لئن كان عيسى من غير أبٍ ؛ فآدم من غير أبٍ ولا أمّ» . فردّتْ بتول مُبتسمةً : «آمنت بالله الواحِد» .

تمَشّيَا حتّى وصلا إلى ساحَتِهما المُفضّلة ، سألتْه عن مقاله الأخير في الصّحيفة الوطنيّة ، فقال لها : إنّه ما زال يُتابعُ الكتابة في سلسلة مقالات حول (الحرّيّة الدّينية) . فردّتْ : أعرف ذلك ، ولكنْ في أيّ شأنٍ من شؤون الحرّيّة الدّينيّة قد تعرّضتَ في مقال هذا الأسبوع . فأجابها عن تلك الّتي حدثتْ في القرون الوسطى . فسألتْ : فهل كانت هناك حرّيّة فيها؟! فردّ : كلاّ ، لقد تعرَّض بعضُ المؤمنين لأبشع ظلم واضطهادٍ يُمكن أن يتعرّضوا له . فسألتْ مُتشوّقةً ومتشوّقة : فماذا حدثَ ؛ أفِضْ علينا ممّا علّمَكَ الله .

لقد استخدمت الكنيسة المدعومة بسلطة سياسيّة أبشعَ الطّرق في محاربة مَنْ يُخالِفونها الرّأي ، وتحت ذريعة أنّهم «ظِلُّ الله في الأرض»

راحوا يعيشون فساداً كما يشاؤون ، ويُدخِلون النّار والجنّة على هواهم . سألتْه بتول مستهزئةً :

– وهل كانوا يملكون مفاتيح الجنّة والنّار؟!

– على فِكرة . . . فِرْية مفاتيح الجنّة والنّار هذه لم يَسْلَمْ منها بعضُ المسلمين كذلك . لكنّ الموضوع في القرون الوُسطَى أخذَ أبعاداً بَشِعة . خُذي مثلاً مارتنْ لوثر .

– ما قصّته؟! أنا فقط سمعتُ في مدارسنا المسيحيّة اسمه ، ولم أعرف تماماً حكايته؟!

– باختِصار يا سيّدتي ، أهمّ ما حاربَه مارتن لوثر هو صُكوك الغُفران .

– وما صُكوك الغُفران هذه؟!

– تتقاطع مع فكرة مفاتيح الجنّة والنّار بشكلٍ كبيرٍ .

– كيف؟!

– صكّ الغُفران ، هو وثيقة يُعطيها الأسقُف للمُذنِب أو الخاطئ ، وتُخوّله بموجِبها أن يدخل الجنّة مهما كانت خطاياه . . . ولكنْ . . . (يصمت) .

– ولكنْ ماذا؟!

– هذا الصّكّ ليسَ لوجه الله ولا من أجل العفو عن هؤلاء العُصاة المساكين؟!

– إذاً لأجل ماذا؟!

– لأجل النّقود .

– النّقود؟!

– بلى . ومَنْ يدفع للأسقُف أو للكنيسة نُقوداً أكثر فإنّه يدخل

الفردوس الأعلى من الجنّة ، وبحسب كمّيّة نُقودك يتحدّد مكانك في الجنّة ، فقد لا تحصل إلاّ على بيتٍ ضيّق في شارع مُحفّر إذا كانت نقودُك شحيحةً .

– والفقراء الّذين لا يملكون درهماً ولا ديناراً .

– راحتْ عليهم . . . (ويضحك كطفل) . . . راحتْ على هؤلاء المساكين .

– لكنّ عيسى جاء من أجل هؤلاء المساكين ، وكان كلّ رفقائه من الصّيّادين الفُقراء في البداية .

– لكنّ هذا عيسى ، وهذه الكنيسة الجَشِعة وبينهما فارقٌ كبير .

– يا لَلهول ، وعلامَ ينصّ صكّ الغفران هذا .

– أحفظُ بعضَه : «ربُّنا يسوع رَحِمَكَ يا . . . . . (طبعاً الفراغ يُملَى باسم المُشتَري) ، ويملكُ باستحقاقات آلامه كلّيّة القداسة ، وأنا بالسّلطان الرّسوليّ المُعطَى لي ، أُحلُّكَ من جميع القَصاصات والطّائلات الكَنَسيّة الّتي استوجَبْتَها . وأيضاً من جميع الإفراطات والخطايا والذّنوب لأبينا الأقدس البابا ، والكرسيّ الرّسوليّ ، وأمحو جميعَ أقذار المُذنِب ، وكلّ علامات الملامة التّي جلبْتَها على نفسكَ في هذه الفرصة . . .» . (يصمت . . . ثمّ يُتابع) والنّصّ طويل . لكنْ هذا جزؤه الأوّل .

– عجيبٌ ، تتحوّل ذنوبُ هذا العاصي إلى البابا؟! فماذا يفعل البابا بذنوب العصاة الّتي تتراكم عليه وعلى رقبته؟!

– يَغْفِرُها .

– كيف .

– يغفرها وحسب ؛ ألم نقل إنّه ظلّ الله في الأرض .

- وماذا فعل مارتن لوثر .
- حاربَ هذه الخُزعبلات بشدّة ، وجهرَ بذلك .
- فماذا فعلوا به؟!
- قرّر البابا ليون العاشر عام ١٥٢٠ ثمّ مجمع (ورمز) عام ١٥٢١ حرمان مارتن لوثر وحَرْقِه حيًّا مع كُتُبه .
- يااااا . . . حَرْقه حيًّا؟!
- بالمُناسبة ليس الوحيد الّذي اتُّهِم بالهرطقة وأُنزلتْ به أقسى العقوبات ، هناكَ من قبله ومن بعده الكثيرون ، أمثال نسطورس ، وفرانسيس داود ، وسرفيتوس ، وجون بيدل ، وغيرهم . . . وغيرهم .
- فما قصّة نسطورس؟!
- كان نسطورس بطريرك القُسطنطينيّة ، واضطُرَّ إلى الهرب من هناكَ إلى سوريّة والعراق لينشر مبدأه المُنادي بالتّوحيد ، وفي مجمع (خليقدونية) عام ٤٥١م قرّر المجمع بالاتّفاق لَعْن نسطورس في كلّ المحافل الكَنَسيّة .
- وفرانسيس داود؟!
- أُدخلَ إلى السّجن ذليلاً ، وتوفّي عام ١٥٧٩م ، وأصدر الملك قرارًا بمنع نَشْرِ كُتُبه .
- وسرفيتوس؟!
- أمر الملك الإسباني بحرق كُتُبه ، ثُمّ أُحرقَ هو بعدها حَيًّا عام ١٥٥٣م .
- يا لَلبَشاعة ؛ أينَ حرّيّة الاعتقاد؟! يا لَلبُؤس!!
- أمّا جون بيدل الإنجليزيّ فقد سُجِنَ مرّتين ، ثمّ نُفيَ إلى صقلّيّة .

- وكتبتَ كلّ هذا في مقالاتك في الصّحيفة؟!
- نعم لكنْ على حَلَقات ، كنتُ أعطي كلّ حلقة أسبوعيّة حقّها من إثراء المعلومة والنّقاش والتّحليل ، وخاصّة أنّ هناكَ الكثيرين مِمّن يقرؤون وهدفهم التّرصُّد للأخطاء والهَفَوات .
- ألا تَخشى أن يجلبَ هذا لكَ العداوة ، ويسبّب لكَ المشاكل؟!
- أنا أكتب ما أنا مُقتنعٌ به ، وما أجد فيه رسالةً يجب أن تصل إلى النّاس ، ولا أفكّر بالعواقب ما دام قلبي مُطمئنًّا إلى ما أكتب ، ومُقتنعًا بما أقول . أنا أتبع في هذا سَنَن عيسى ومُحمّد ، ألم يجدوا من العَنَت ما وجدوا في سبيل أفكارهم ، وما نادَوا به؟!

رَكَنَ يَدَيْه خَلْفَه على البِساط الأخضر الممتدّ ، وتنهّد : «نأخذ راحةً من هذا الدُّوار الفكريّ ؛ ما رأيكِ بوجبة خفيفة؟!» . «أنا معك إلى حيثُ سرتَ أتبعُك» . «حُبًّا أم اقتناعًا» . «القناعة أنجبتِ الحُبّ ، والحبّ وطّدَ القناعة» . «تتفلسفين؟!» . «تلميذتُكَ الصّغيرة» . ضَحِكا . وقام باتّجاه الكافتيريا فقامتْ معه . «انتظريني هنا ، أن نأكل في هذا المكان الهادئ خيرٌ من أن نُصدّع رؤوسنا بالضّجيج الّذي تمتلئ به جُدران الكافتيريا العالية» .

ظلّتْ عيناها تتبعُه وهو يتهادَى بقوامه المَمْشوق ، بدا جذعه كأنّما قُدَّ مِنْ جذع شجرة عتيقة شهدتْ ولادة كلّ الدّيانات ، وحضرتْ كلّ الوقائع ، وعايَنتْ كلَّ المشاهد ، وسمعتْ كلّ طبول الحرب والسّلام . هذا الفتى إنْ لم يرحمْني الله فيكونَ قَدَري فإنّه سيقضي عليّ . لم تعد الحياةُ تُطاق دونه ، إنّ كلمةً واحدةً منه كفيلةٌ بأن تمسحَ على جراح القلب فتشفَى ، وعلى جسدِ الميّت فيحيا ، وعلى صدر المريض فيبرأ . . . أفكان المسيح؟! المسيح وحده مَنْ يفعل ذلك!! وَيْلي منه وَوَيْلي عليه . . .!!

تهادَى في المسافة البعيدة إلى أن غابَ ظِلُّه الواصل إلى قلبها خطَرَ ببالها أبوها فاهتزّ وِجدانها ، فكّرتْ كيف سيتلقّى أبوها الأمر اضطربتْ قليلاً فهو ليس سَهلاً البَتّة ، ولكنّها عادتْ إلى طُمَأنينتها من جديد وهي تتخيّل كم يُحبّها هذا الأب ، وكم يَحدِبُ عليها ، وكم يخافُ عليها من النّسمة الطّائرة كما يَقولون ، فابتسمتْ ؛ قد يكون الأمرُ صعْبًا في البداية بعضَ الشّيء ، لكنّ قلبَ أبيها المُحبّ ، وعقل أمّها المُتفتّح ، وبساطة أختها ، وخوفَ أخيها عليها وعلى راحتها كلّ ذلك سيمهّد لتقبُّل الأمر فيما لو عَلِموا بما ستُقدِمُ عليه قريبًا .

ها هو أبوها - هكذا رأتْه في صحوها وهي تنتظر حبيبَها - يفتحُ لها ذراعَيه على امتدادهما في نهاية الأسبوع ؛ هذا الصدر الرّحب وهذا الوجه المُبتسم ، وهاتان العينان الوَدُودَتان لن تخذلها أبدًا ، إنّها في النّهاية منها ولها ، وسوفَ يبقى أبوها أباها ، وأمُّها أمّها ، وكذلك إخوتها ، هي فقط انتقلتْ إلى الضّفّة الأخرى من النّهر كما يقولون ، وها هو النَّهْرُ ظَلَّ هُوَ النَّهْر ، وماؤُه العَذب هو ماءَه العذب ، ويُمكن للواقِفَين على الضّفتَين أن يشربا منه معًا دونَ أنْ يَضيقَ بأحدهما ، وعلى ضفافه مُتّسعٌ لكلّ المؤمنين . . . أليسَ كذلكَ يا أبي؟!!

عادَ المسيح ، بُعِثَ ثانيةً في قلبِها ، المسيح الّذي دعا إلى الإيمان بالله ، ولم يَقُلْ في حياته كلّها إنّه إلهٌ مِنْ دونِه . عادَ إليها اليومَ المسيح الحقيقيّ ، وها هي ابنتُكَ يا أبي ؛ تغيرّتْ؟! نعم ؛ لكنْ إلى الأفضل ، تَبدّلَ عليكَ وعليها أَشْياءُ وأشياء ؛ بلى ، ولكنْ إلى ما يجبُ أن يُرضِيَك ويُرضِيَ ضميرَكَ ، ويحقّق لهذه الأسرة الّتي كَبُرتْ مُتعاونةً سعيدةً ما يُبقي لها تعاوُنها ، وما يزيدُ عليها سعادَتها ؛ أليسَ الإيمان الحقيقيّ سعادةً؟!! أليسَ إبصار الدّرب واضِحةً بيّنةً مُستقيمةً بعد عهودٍ

من التّعمية والغشاوة والاعوِجاج سعادةً؟!! لا شيْء ينقُصنا يا أبي لكي نصبحَ أفضل مِمّا كُنّا فيه سِوى أن تفتح لي قلبَك ؛ قلبَكَ الّذي ما حملني يومًا ، قلبَكَ الّذي تحمّل كلّ شيءٍ من أجل سعادتي ؛ من أجل أن أتعلّم أحسنَ تعليم ، وألبسَ أجمل لباسٍ ، وآكُلَ أطيبَ طعام ، وأدرسَ في أرقى الجامِعات ، وأحصل على أثمن الفُرَص!! وها هيّ الفُرصَةُ يا أبي تلوحُ أمامي بكامل بهائها الطّاغي ، وترقصُ أمام ناظِريَ صيدًا ثمينًا لا يُشاركني فيه أحدٌ ؛ أفأضيعها يا أبي؟!

ظَهَرَ طيفُه في مدى الرّؤية أمامها وقطَعَ عليها جَرَيانَ تساؤلاتها ؛ طيفُه الّذي بدا يتهادَى من بعيد ، ظلّ يقترب كَبَدْرٍ يَذُرّ النّور في الدُّجَى القاتِم من حوله ، وصلَ إليها بابتِسامته الّتي أصبحتْ محفوظةً عندها ، وقفَ هنيهةً قبل أن يُصلحَ مكانًا للطّعام ، ويُهيّئ المائدة ، فكّرتْ وهو يُعدّ المكان ويرتّب الأشياء ويبسُطُ ما تيسّر من الصّحون استعدادًا لأكْلِ ما يَسُدُّ الرّمَق ، أنّ هذه المائدة ستكون الأخيرة ، وحضرتْ من جديد مقولات المسيح في ذلك المساء ، وتوقّعتْ منه أن يقول عبارة المسيح الأخيرة : «أيُّكم يُلقَى عليه شَبَهِي؟!» . وللحظة شعرتْ حينَ لم يُجِبْه أحدٌ من الحواريّين أنّهما سيُصلَبان فارتعبتْ ، قال لها : «كلّ شيْء جاهِزٌ كما ينبغي ، ولا داعي للسّؤال» . بلعتْ ريقها ولم تَعُدْ مُتأكّدةً مَنْ منهما الّذي يتحدّث الآن ، وصوتُ أيٍّ منهما هذا الّذي تسمعه . هَزّها من كتفها ، وهتفَ على مسامعها : «نحن هنا ، أينَ أنتم؟!» .

أكَلا حتّى استقرّتْ أرواحهما ، وشَرِبا حتّى هَدَأ رَوْعُهما . وصمتا طويلاً يُفَكّران في عمرهما معًا . وراحَا يتأمّلان شريطًا من حياتهما رمى به الغيبُ إلى حاضرهما ؛ بدَوا كَهْلَين قرّرا أن يسيرا إلى الجبل كي

يتجلّى لهما قَبَسُ الله هناك ، لكنّ الشّياطين الّتي كانت تختبئ في السّفوح خلف الأحجار السّوداء ، راحُوا يرجمونهما بالحجارة حتّى لا يُكْمِلا مسيرتَهما . وقفَ صالح أمام الأحجار المتداعية يتصدّى لها ، ويُبعِدها عن حبيبته كي لا تُمَسّ بأذى ، أمّا هي فراحتْ تصرخُ خوفًا عليه : «حاذِرْ . . . تلك الصّخرةُ الكبيرةُ ستُهَشِّمُ رأسَك» . فيُجيبها : «المهمّ أن تسلمي أنتِ منها ، أنا أستطيع أن أتدبّر الموقف ، فابتعدي كي لا تُؤذيك» . وتبتعد فتنجو ، لكنّ الصّخور بدأت تنهال عليهما من كلّ جهة . وفجأةً برزتْ آلاف الشّياطين وهي تفحّ كالأفاعي من كلّ شبر في الجبل ، وراحوا يقذفونهما بكلّ ما وصلتْ إليه أيديهم من تلك الصّخور ، وحينَ جاء رَتْلٌ كبيرٌ منها ، كوّر صالح نفسه أمام بتول ، وشكّل من جسده دِرعًا وترسًا يصدّ به عنها القادمَ المُرعِب ، لكنّ الصّخور كانتْ أكثر من أن يدفعها بجسده البشريّ المُكوّن من لَحم ودم ، فسقط ، ثمّ سقطتْ من بعده ، وتتابعَ انهيال الصّخور فوقَهما حتّى دُفنا تحتها!!

أفاقا من المشهد السّينمائيّ الّذي تعرّض له كلّ واحد على حدة بنفس الوقت . نظر إليها غير مُصدّق أنّها ما زالتْ حيّة ، وبادلتْه هي النّظرةَ نفسَها ، همّتْ بأن تحتضنه لكنّها سمعتْه يقول دون أن يتلفّظ بكلمة : «ليسَ الآن ؛ سيكون حينَ يُصبحُ أحدنا الآخرَ نفسَه» .

تراجعتْ في اللحظة ذاتها ، وسألها بصوتٍ مسموع :

– ألم يحن الوقتُ بعدُ؟!

– بلى ؛ فماذا عليّ أن أفعل .

– تعالَي معي .

قامَا يمشيان وقد تَركا ماضِيَهما خلفَهما ، ووجّها صدرَيهما نحو

المُستقبل ، لكنّ المُستقبَلَ غيبٌ لا يدري أحدٌ ماذا يُخبِّئ لهما ، قال لها كأنّما قرأ أفكارها : «المُستقبَل الّذي نقضيه معًا مُؤمِنَين بما نقوم به سيكون رائعًا وجميلاً مهما اعترَضَتْنا فيه من عقوبات وصعوبات» . ردّت : «عِدْني أن تظلّ إلى جانبي إذا اشتدّتْ بِيَ العواصف ، واكفهرّتْ في وجهي الدّروب» . أجابَها : «أعِدُكِ . وأنا منذ اليوم لكِ» .

وقفا في الطّريق المُستقيمة ، الطّريق الّذي خلا من أهل الباطِل ، وامتلأ بأهل الإيمان ، أولئك الّذين يفعلون ما يؤمنون به حتّى لو وقعت السّماء على الأرض ، ودُكَّت الجبال وسُوّيت قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا . واجهها ، نظر في عينَيها عميقًا وبادلَتْه النّظرة العميقة إيّاها ، تاهتْ في غَورَيهما البعيدَين ، تأكّدتْ من أنّه صادقٌ أمينٌ لا يخدعها ولا يقول لها إلاّ الحقّ والحقيقة ، لقد توصّلتْ إلى هذه النّتيجة عبرَ ما يقرب من عام ونصف ، إنّها ليستْ وليدةَ هذه اللّحظات ، ومعه ستذهبُ إلى أقاصيَ العالَم بكامل إرادتها ، وستقطع مطمئنةً معه الوديان ، وستعبر صابرةً وإيّاه الصّحارى والرّمال ، وستشقّ به لُجَجَ البحار غيرَ هيّابة . ولْيكنْ بعدها ما يكون :

– أفي الله شَكٌّ؟!

– كَلاّ .

– فانزعي عنك كلّ الظّنون المُهلكات السّابقات .

– فما عليّ أن أفعل؟!

– أن تنطقي بالشّهادَتين ، وتلبَسي ثوب الإيمان الجديد .

– أفعل بملء رغبتي وقناعتي ، ومستعدٌّ أن أموتَ في سبيل ما أؤمن به .

(٢٢)
«لا إِكْراهَ في الدِّيْنِ»

ارتطم رأسُهُ بأرضيّة السّيّارة فَسَال دمه ، كادتْ عنقه تندقّ لشدّة الصّدمة ، وأنفاسُه تختنق وهو يتكوّر في قعر السّيّارة مثل كلبٍ أجرب ، أقعده أحدُ المُلثّمين في الوسط وبصق عليه ثمّ قنّعه بقناع يسمح له بالتّنفّس ولكنّه لا يرى منه شيئًا ، وانطلقت السّيارة ممعنةً في الابتعاد جهةَ الشّرق ، الشّرق الّذي يُتوقّع أن يكون مصدر النّور ؛ فإذا هو مهوى الظّلام الدّاجي .

مرّتْ ساعتان أو أكثر والسّيارة تنهبُ الأرضَ نهبًا ، ماضيَةً إلى غايتها ، لم يسمعْ خلالَها أيّ حوارٍ بين الخاطفين ، وظلّ الصّمت سيّدَ الموقف أكثر الأوقات ، لكنّه تناهَى إلى سمعه بعضُ الكلمات الّتي تنفلت من بين رُكام السّكون : «لعنة الله عليه» . «حُكمُ الله يجب أن يُنفَّذ» . كلّ كلمةٍ ممّا سَمعَ كانت تزيدُهُ رعبًا إلى الحدّ الّذي أراد فيه أن يصرخ لكي يسمعه أيّ عابرٍ للطّريق أو أيّ كائنٍ بشريّ ، إلاّ أنّ الكمامة الّتي أحكمَتْ حول فمه ورُبطَتْ بإحكام خلفَ رأسه جعلتْ من محاولاته اليائسة مجرّد غمغماتٍ تنفلت بين حينٍ وآخر .

بعد ما يقربُ من أربع ساعاتٍ ، وصلوا إلى منطقةٍ صحراويّة خالية حتّى من الجنّ ، ركلوه بأرجلهم يخرجونه من السّيارة ، فتدحرج على رمل الصّحراء ، وتبعثرتْ حقيبةُ كتبه ، تأوّه ، أراد أن يصرخ لكنّ

الكمّامة وقفتْ له بالمرصاد . مرّتْ دقائق كأنّها سنوات ، سَمعَ بعدَها صوت الدّرّاجة النّاريّة الّتي كانت تتبعه في المدينة ، وقفَ صاحبُها على مقربةٍ منه ، وسَمعَه يقول لهم : «أَقْعِدُوه على الأرض» . ففعلوا . «أزيلوا عن وجهه القِناع والكمّامة» . ففعلوا . وقفَ مثل عمودٍ من الكراهية أمامه ، وعلى ضوء السّيّارة استطاع أن يرى وجهه الأسمر وعينَيه اللتَين تفيضان غضبًا وكراهيَةً . وعرف أنّه صاحب الدّرّاجة اللّعينة :

– تتجرّأ على الله يا عدوّ الله ، وتبثُّ حقدكَ على الإسلام بنشر أفكار الإلحاد يا حَشَرة؟!

– «لكم دينُكم ولي دين» . أجابه في محاولةٍ أن يُفلِت من الخطر الدّاهم الّذي يراه في وجه هذا الزّعيم .

– وأصبحتَ تتلاعبُ بآياتِ الله يا كافر يا زنديق . . . (قَهْقَهَ حتّى شقّتْ قَهْقَهَتُه عنان السّماء وملأت الصّحراء بهواءٍ فاسد) . مَنْ تظُنّ نفسَكَ؟!

– أليسَ الله الّذي تؤمن به يقول : «لا إِكْراهَ فِي الدِّين» .

– وتتجرّأ من جديد في الافتراء على الله . هذه تُقال يا فصيح لغير المُسلمين .

– ومَنْ قال لك إنّني مُسلم .

– لن تنفعك مُراوَغتُكَ في الإفلات من حُكم الله .

– أفأنتَ ظلُّ الله على الأرض ، حتّى تنفّذ فيَّ حُكم الله .

– بلى . والله حَكَمَ بأن تُحرَق مع كتبك حيًّا .

– لا يَحْرق بالنّار إلاّ ربُّ النّار . (حاول أن يتذكّر ما قرأه في المدارس لكي يُبقي على الحياة الّتي بدأتْ تنفلتُ منه شيئًا فشيئًا) .

- وأنا ربُّ النّار في الدُّنيا .

قفزَ الرّعبُ إلى عينَي (مُراد) حتى كادتْ عيناه تنفثئان خارج جَفنَيه ، وتسارَعَتْ أنفاسه حتّى تصبّب عرقًا في جوّ الصّحراء البارد . توسّل إليهم بحقّ الله ألاّ يفعلوا ، قال له الزّعيم : «الآنَ تعرف أنّ الله حقّ . بُؤْ بِشَرّ سمومِكَ الّتي كنتَ تنفثُ بها حقدَكَ الأسود في الجامعة» . رُبِطَتْ قدماه إلى يَدَيْه ، وشُدّتا حتّى تقوّس صدره ، أعيدَت الكمّامة إلى فمه ، رأى مَلَك الموت واضحًا في وسط الظّلام ، لم يُجرّب الموتَ من قبلُ ؛ مَنْ قال إنّه جَرّبه؟! تمنّى ألاّ يصطحبه معه ملكُ الموت في رحلته الأبديّة ، رآه يقف إلى جانب الزّعيم ؛ توسّل إليهما بعينَيه أن يتركاه وشأنه ، ولن يعود إلى أفعاله السّابقة ؛ سَمِعَ صوتًا مبحوحًا يتقدّم نحوه كثُعبان : «خَسِئتَ يا كَذّاب» . سقطت الكلمات على صدره المشدود فارتخى قليلاً من شدّة اليأس . سَمع الزّعيم يقول لُمريديه : هاتوا الأحجار من صندوق السّيارة . جيء بأحجار سوداء كأنّما رُفِعَتْ من قعر الجحيم إلى سطح الأرض ، أُخِذَتْ وبُنِيَتْ حوله حتّى حجبتْ عنه أفق الصّحراء الممتدّ القاتِم ، وغطّتْ عنه بعضَ الوجوه . وأُتِيَ بالكتب الّتي كان يحملها ، تفحّصها واحدًا واحدًا باشمِئزاز ، ثمّ راح يمزّقها وهو يهتف : «لعنة الله عليك وعلى كتبِك» ، ثمّ رمى ما تناثَرَ منها فوقه ، وجاء أحدهم من السّيارة بدلوٍ من البنزين فسُكِبَ فوق جسده ، راحتْ غمغماته تتعالَى وهو داخل الحجارة ، ثمّ جيء بشمعةٍ فأضيئتْ فبدتْ أفعى تتراقصُ على وجوه الزّعيم وعصابته ، ثمّ قُذِف بها إلى المِسكين ، فهبّت النّار فيه ، تركوه يجأر مثل ذبيح ، تراقَصتْ على ضوء النّار أمام عينيه سماء الصّحراء القاتمة . تنحّى ملكُ الموتِ جانِبًا ثمّ اختفى في ضباب الدُّخان الكثيف . شمّ

رائحةَ شِواء جسده ، بدأتْ القبّة السّماويّة تهوي باتّجاهه ، رأى فيها نجمةً من بعيد تهبِطُ من عليائِها لتحمله فوقَها . ثمّ صمتَ كلّ شيء . أمّا هم فغادروا المكان بسيّارتهم والدّرّاجة وهم مسرورون لأنّ الله قد اختارهم دون سِواهم لِيُنَفِّذ حُكمه في هذا الدّعيّ المُهرطِق الزّنديق .

بعد ثلاثة أيّام ، عثر أحدُ الرّعاة في الصّحراء على جثّته ، كانت جُثّته مُتفحّمة كأنّ جهنّم بنفسِها قد صُبّتْ عليه صَبًّا ؛ ففزّع كلّ مَنْ يعرف . وبعد أربعة أيّام كشف الفحص الطّبّي أنّ الجُثّة تعود للطّالب الجامعي (مُراد) الّذي يدرس في سنته الثّانية في كلّيّة الاقتصاد!!

وصل الخبر إلى زملائه فانقسموا في حقّه فريقَين ، كانت الكثرة تترحّم عليه ، وتُشفِق عليه مِمّا حلّ به ، وتبكي عليه حُزنًا ، والفريق الآخر ، صرّح بصوتٍ مسموع : «إلى جهنّم وبئس المصير» . «لقد تخلّصنا منه ومن هرطقاته» . «يداكَ أوكَتا وفوكَ نفخ» . «جاجة حفرتْ على راسها عفرتْ»!!

أمّا (صالح) فنادَى بزملائه الطّلاّب في ساحة كلّيّة الصّحافة ، فاجتمعوا من حوله ، وتوافَدوا إليه من كلّ صوب . وقفَ فيهم هاتفًا : «لقد كان مُراد واحدًا منّا . كان رجلاً يحاول أنْ يفكّر بصوت عالٍ . إنّ موته بهذه الطّريقة البَشِعة لَيَدُلّ على القلوب البشعة السّفّاحة الّتي طاوعتْها أنفسُها المريضة أن تفعل ذلك . كانتْ هناك فرصةٌ لإنقاذه لو أنّنا تعاونّا جميعًا من أجل ذلك ؛ لكنّني أُحِسُّ أنّنا مسؤولون عن موته بطريقةٍ أو بأخرى ، وأنّ هذه المسؤوليّة تُصيبُ كلّ زميلٍ من زملائِه بدرجاتٍ مُتفاوِتة ، وأنا أرى أنّني أتحمّل النّصيبَ الأكبر . رحمة الله عليه ، وعزاؤكم في الباقين ، وبؤسًا لأصحاب الفتاوى الجاهزة» . أمرهم أن يقرؤوا الفاتِحة على روحه . ثمّ نزل . وطلبَ مِمّن أراد أن يُصلّي عليه

صَلاةَ الغائب . اصطفّوا كالطّيور في صفوف متراصّة خلفه ، كانوا يبدون أسرابًا من الثّكالى يَدفِنون رؤوسهم في صُدورهم . وبعضُهم ظلّ يرتجّ في صلاته كأنّ رِعدةَ النّفخ في الصّور قد أصابَتْه .

تفرّق الزُّملاء وقد امتلأ بعضُهم بالرّعب ممّا حدث ، وكانت القصّة مثارًا لشائعات بدأت تنتشر مثل الزّبد على سطح البحر . أمّا هو فانتَحَى جانبًا بحبيبته ، قالتْ له :

– بدأتُ أخافُ عليكَ أكثر بعدَ هذه الحادثة .

– بل الخوفُ كلّ الخوفِ عليكِ . هل عَلِمَ أهلُكِ بالأمر .

– لا . ربّما وصلتْهم تسريباتٌ من هنا أو هناك ؛ لكنّهم في طريقهم إلى أن يعرفوا .

– وهل ستتدبّرين معهم الأمر جيّدا؟!

– في نهاية هذا الأسبوع ستتّضح الأمور . أتعرف شيئًا؟!

– ماذا؟!

– لقد قتلَ هؤلاء المُتعصّبون (مُراد) بالطّريقة الّتي قَتَل بها رجالُ الكنيسة رِجالَ الدّين السّابقين ؛ فلقد حُرِقوا أحياءً مع كتبهم .

– التّاريخ يُعيد نفسه!!

– لكنْ ليسَ إلى هذا الحدّ من التّطابق .

– المُصيبة ليستْ في الفعل وإنْ كان ذلك مصيبةً طامّة ، ولكنّ المصيبة الكُبرَى في السُّكوت على هذا الفعل وتسويغه . والأدهَى أن يخرج الطّرفان : المُتعصّبون المسيحيّون في القرون الوُسطَى والمُتعصّبون الإسلاميّون في القرون الحديثة وهم راضون عن أنفسهم لأنّهم نفّذوا حُكمَ الله من فوق سبع سماوات .

– يبدو أنّ هذه الفئة تتوالد في كلّ الأديان من رَحِم مَنْ سبقوهم

في تعصّبهم الأعمى .

– ولكنْ طمئنيني ؛ أهلُكِ من أيّ نوع هم؟! هل ينتمون إلى هاتَين الطّائفتَين ، أمْ أنّهم يسمعون بقلوبهم وعقولِهم قبل كلّ شيء .

– لا تخفْ . أبي من النّوع المُتفهِّم جدًا . وسأُقنعه بأن يتقبّلني كما أنا .

– إنْ فعل . فسأنتقلُ معك إلى الخُطوة الأهمّ .

– ما هي؟!

– أنت تعرفينها فلا تتظاهري بالغباء .

– أرجوكَ قُلْها لي!

– قالها قلبي . أصغي إليه مَليًا تسمعي كلّ دقّة من دقّاته تهتف به ، وكلّ خفقة من خفقاته تجأر بها .

عادتْ إلى شُقّتها . هذه المرّة لم يكنْ لدى (وَعْد) ما تُخفيه من مخاوفها بعد أن سمعتْ ما حدثَ لمُراد ، قالتْ لها وهي تبكي : «اسمعي يا أختاه ؛ لا أريد أن أفقدَكِ» . «ولماذا تُصرّين على أن تقولي مثل هذا القول ؛ أيّ تشاؤم تعيشينه يا حمقاء . هوّني عليكِ قليلاً» . «أنتِ واهمة يا بَتول . لقد حلمتُ أنّ كلّ الأفاعي تلتفّ على عنقك ، وتغرز أنيابها فيك . وأنّ السُّمّ انتشر في كلّ جسدكِ حتّى قضى عليك . أرجوك بكلّ الآلهة الّتي تؤمنين بها ألاّ تجعليني أعيشُ تلك اللّحظات من الرّعب والجنون والحرمان» . «أنتِ مُتعبة ، وأنا كذلك ، ولا بُدّ أن نخلد إلى النّوم . نامي يا حبيبتي . . . نامي ؛ وحاولي أن تحلُمي أحلامًا سعيدة» .

(٢٣)
«إنّي أخافُ أنْ يُبدّلَ دينَكُمْ»

وقَفوا على النّبع الجاري يَلعَنُونَهُ فظلّ جاريًا ، وشخَصُوا بأبصارهم إلى القمر المُنير في كبد السّماء يَشتُمونه فظلّ مُنيرًا . وانتَحوا جانبًا يَنبَحون القافلةَ السّائرة في طريقها إلى غايتها العظيمة وظلّت القافلةُ سائرة . وقذفوا الشّجرة المُثمرةَ بأقسى أنواع الحجارة وظلّت الشّجرة مُثمرة . أنتَ ما تفعل ؛ فعلُكَ هو صورةٌ عنكَ ، وهو ما ستقفُ به وحيدًا أمام الله «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِين» .

من قبلُ نادَى كبيرُ الملوك : «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ» . فعلى أيّ دينٍ كانوا حتّى يخاف عليهم أن يتحوّلوا عنه؟!! إنّ التّحوّل عن الدّين الفاسد صَلاح ، وعن الدّين الباطل حَقّ ، وعن المُعوجّ استقامة ؛ فما الضّيرُ في هذا النّوع من التّحوّل!! وعلامَ إذًا أقسمَ الملك الأكبر صارخًا في وجه أولئك المؤمنين الجُدُد : «آمنتُمْ به قبلَ أن آذَنَ لكم إنّه لكَبيرُكُم الّذي عَلّمَكُمُ السّحْرَ فلأُقَطِّعَنَّ أيْديَكُمْ وأرجُلَكُمْ من خلافٍ ولأُصَلِّبَنّكم في جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أَشَدُّ عَذابًا وَأَبْقَى»؟! أفكانَ الإيمان يحتاج إلى إذنٍ حتّى يتقدّموا إلى وليّ أمرهم به؟! فإنْ لم يفعلوا أنزلَ بهم الصّواعق والمَواحق من العذاب الّذي لا يُطاق؟! فأيّ جبريّة هذه ، وأيُّ استعباد هذا؟!

لا سرّ يبقَى سرًّا حتّى ولو باحتْ به الجُدران . بعضُ الأسرار

يُفشيها حتّى النّمل العابر في الممرّات . والأسرار هِيَ ما دَقّ من الأخبار لا ما خَفِيَ منها . فوصل على لسان العصافير ، أو تسرّبَ في الهَمَساتِ والوشوَشات . والسّرّ حينَ يصلُ خَفيًا يَسُرّ ، ويفعل بالسّريرة ما لا يفعل سواه ، إلاّ في حالات نادرة فإنّه يقلبُ الحياة ، ويملأ سماءها بالغُيوم السّوداء ، ويجعل نُذُر الشّرّ قادمة .

ماذا يحدُثُ لها يا مريم؟! في كلّ أسبوع تأتينا بوجه مختلف . أمعقولٌ أنّ أميرتي سُرقتْ منّي؟! مَنْ سَرَقها؟! أريدُ أنْ أعرفَ . ليس من المُجدي بعد اليوم السُّكوتُ على الموضوع . إمّا أن تُصارحنا بما يعتمل في أعماقها ، وما الّذي يحدثُ معها أو نعرضها على طبيبٍ نفسيّ!! هذه البُنيّة الّتي كانتْ تملأ عليّ الدّنيا فَرَحًا وسُرورًا ، صارت اليوم تملؤها عليّ قلقًا وحيرةً . كأنّما هِيَ لي وليستْ لي ، كأنّها عصفورةٌ كانت تُزَقزِق آمنةً بين يديّ ثمّ طارتْ ، كأنّها غابت في تلافيف الغابات المُظلمات ثم لم نعثُرْ لها على أثر . إنْ جلستْ ظلّتْ صامتةً كأنّ لسانها رُبط إلى حلقها . وإنْ تكلّمتْ تكلّمتْ لِمامًا كأنّنا ننتزعُ منها الكلامَ انتزاعًا . يا مريم هذه ليستْ بتول ، بحقّ يسوع الّذي جمع بيني وبينكِ ما الّذي تعرفينه عن ابنتنا وتُخفيه عنّي؟! أنا رجلٌ نيّفْتُ على السّتّين ، وأستطيع أن أُحكّمَ عقلي ، وخيرٌ لي ولنا جميعًا أن تكشفي لي سرّ تغيُّرها حتّى أتصرّف بما يُعيد إلى وجهها المخطوف بهاءه ، وإلى نظرتها السّاهمةِ إشراقها .

يا وهيبُ ليس الكلام سَهْلاً ، لو كان مجرّدَ حروفٍ سابحات في الفضاء لقلتُه منذ زمن وأرحتُ نفسي ، أنا أيضًا أتقطّع في كلّ يوم من أجلها ، نحنُ نفقدها معًا . لستَ في ساحة الفقد وحدَك ، ولكنّ حبل الفجيعة سيلتفّ على أعناقنا جميعًا . من أينَ أبدأ ، والقصّة نازفةٌ من

كلّ جوانبها ، ففي أوّلها الشّوك وفي وسطها العلقم ، وفي نهايتها الحنظل ، وفي أعلاها المُرار ، وفي أسفلها الأحجار ، ونحن ما بين ذلك كلّه نحاول أن نزدرد المُرّ والعلقم والحنظل ، لكنّه أكبر من طاقتنا حتّى لو جرى العسلُ أنهارًا في أفواهنا ليخفّف مرارة واقعنا . ولكنْ يا وهيب لماذا لا نقبل التّغيّر ، لماذا لا نؤمن أنّ الكون كلّه في حالة تغيُّر مستمرّ ، لِمَ لا نقبل ابنتنا على ما آلتْ إليه ، هيَ الأخرى خائفةٌ من أن تقول ، متهيّبةٌ ممّا قد يحدُث . ولكنّنا إذا زرعنا الطّريق الفاصلة بيننا وبينها بورود الطّمأنينة فلربّما تقدّمتْ إلينا بخُطىً واثقةً ، ثمّ آويناها إلى كَنَفنا ؛ فهي مهما فعلتْ تبقى ابنتَنا الأكثر قُربًا إلى قلبك . أرجوكَ يا وهيب لا تأخذ منها ما أعطيتَها عبرَ عشرين عامًا ، لا تأخذ قلبَها ولا تفجعنا بها!!

ماذا تقولين يا امرأة؟! أرى سُحُبًا تنساق في السّماء إلى حيثُ مطر العذاب . أرى عواصفَ ورُعودًا وبروقًا تلمع غضبًا في الآفاق . أكاد أحسّ أنّ أفعى كبيرة دخلتْ بيتنا الآمن وهي تحاول أن تنهشَ كلّ ما فيه ومَنْ فيه . أشعر أنّ ظلامًا كثيفًا سيحلّ على النّور الّذي عمرتْ به حديقتُنا فيحوّلها إلى صقيع أجرد . ماذا تقولين يا امرأة . . . هل . . . هل . . .؟!

بلى يا وهيب ؛ لقد أسلمت ابنتُك . خَطَفها منّا ذلك المدعوّ (صالح) . لا أدري كيفَ استطاع أن يُقنعها بالإسلام وهي الثّابتة في المسيحيّة العارفة بدينها المُحِبّة ليسوع؟! لا بُدّ أنّه استخدمَ السّحر . . . نعم استخدم السّحر الأسود ليفتنها عن دينها . كانت مَلاكًا يدبّ على الأرض ، فأراد أن يُحوّلها إلى شيطان يدور وشمطاء تثور . يا لابنتنا المسكينة؟! يا لَعُمرها المَسروق!! يا لجَمالها المَخطوف!! يا لَقلبها المَذبوح!!

ابنتي أظفر بهذا اللّصّ الأفّاق فأرمي به من أعلى الكنيسة لكي يكون عبرة لمن لا يعتبر .

لكنّ الأمر خطيرٌ يا امرأة ، هذه البنت ستقضي عليّ ، هذه البنت ستُدمّر حياتي ، وستُشوّه سُمعتي الّتي بنيتُها كلّ هذه السّنين ، سيقول النّاس : تركها بين أحضان ذلك الكافر ليلوّثها ويلوّث سمعة عشيرتها . ماذا سيقولون أيضًا ؛ بِمَ سيلوكون ألسنتهم وهم مُتَشَفّون بحالي : المسكين لم يعد يُسيطر على ابنته ، ابنته باعته بالرّخيص!! يا لَخيبة المسعى!! يا لَقتامة المصير!! يا لَسوء الطّالع!! يا لَلعمر الضّائع!!

لكنْ يا وهيب ألا يُمكن إصلاح ما فَسَد؟! ألا يُمكن أن نجلسَ إليها ونُحاورَها ، ونسمع منها ، فالخَبَرُ ليسَ كالعِيان . وفي الجلوس معها تتكشّف السُّتُر ، وتُزال السّدود ، ولربّما أقنعناها بالعُدُول عمّا تحوّلتْ إليه ، ووضّحنا لها نوايا الخبيث الّذي لَعِبَ بعقلها . الحِوار يا وهيبُ هو أساسُ الحلّ .

كلّ مُشكلة يبدأ حلّها بالحِوار يا مريم إلاّ هذه ؛ هذه لا يحلّها إلاّ الحَزْم ، إمّا أن تقطّع علاقتَها بهذا الأفّاك وتعود إلى دينها وتنسَى كلّ ما سمعتْه منه ، وإلاّ حبستُها هنا أو في أيّ مكان ومنعتُها من أن تذهبَ إلى الجامعة يومًا واحدًا حتّى يقضيَ الله فيها أمرًا كان مفعولا .

كُنْ رفيقًا بها ، ومعها ، لا تنسَ أنّها من لحمنا ودمنا ، (قالتْ له وهو يهمّ بالخروج من البيت لكي يعود بها على عادته في نهاية كلّ أسبوع من الجامعة) وأنّها حسّاسةٌ رقيقةُ المشاعِر ، فلا تؤذها في الطّريق بكلمة هنا أو هناك . واتركِ الأمر حتّى يلتئم شملُ العائلة هنا فننظر في أمرها ما نحن فاعلون .

نظرتْ من شُبّاك شقّتها ، فرأتْ سيّارةَ أبيها تقفُ في مكانها المعتاد

كلّ خميس . تحرّكَ قلبُها بين ضُلوعها كالمعتاد كلّما رأتْها من هنا . لكنْ بدل أن يتحرّكَ فرحًا وسرورًا ، شعرتْ هذه المرّة أنّه تحرّك غمًّا وضيقًا ألقتْ (وعد) عليها نظرةً أخيرة وهي تُرتّب حقيبتَها ، قالتْ لها وهي تحتضنها : «أخاف أنْ تكونَ هذه هي المرّة الأخيرة الّتي أراكِ فيها» ردّتْ عليها بثقة : «سترينني مرّات ومرّات ، وسنبقى صديقات» تعجّبتْ من ثقتها بنفسها ، ورجّحتْ أنّها تتظاهر بالطّمأنينة فيما هي جوارحُها من الدّاخل تنخلعُ هلعًا . نظرتْ إليها بعيْنين حزينتَين ، وقفتْ دمعةٌ في طرفَيهما ، ثمّ ما لبثتْ أنْ تحرّرتْ من هناك وسالتْ على خدّيها ، مسحتْ دُموعها بمنديلها ، ثمّ عانقتْها من جديد ، وهمستْ في أذنها : «ديري بالِك عَ حالك . أتمنّى أن تقضي عطلة نهاية أسبوع سعيدة» .

قفزتْ إلى جانبه كفراشة ، وحضنتْه قبل أن تقول له : «مساءُ الخير أبتي الغالي» . لكنّه تجاهل تحيّتها ، أدار مُحرّكَ السّيّارة وانطلق يقطع الشّوارع باتّجاه القرية . كانت شوارع المدينة في نهاية الأسبوع مزدحمة . كاد - لشروده - أن يدهسَ غيرَ واحد من أولئك الطّلبة المُتجمّعين بشكلٍ عشوائيّ على الطّرقات ينتظرون الباصات العموميّة لتقلّهم إلى أماكنِ سُكناهم في الضّواحي القريبة أو البعيدة . تأفّف غيرَ مرّة من هذا الازدحام الخانق مع أنّها الحالة نفسُها الّتي يُواجهها في كلّ مرّة . نظرتْ هي إليه فرأتْ فيه شخصًا آخَر غير أبيها ، شيءٌ من الهالَة الغامضة تسلّلتْ إليه فتلبّسَتْه ، شعرتْ بالخوفِ قليلاً ، لكنّها نفضتْ رأسَها غيرَ مرّة لتطردَ وساوسَ الشّيطان عنها ، وهتفتْ به لتفتح باب الكلام أو حتّى نافِذته : «لقد اشتقتُ إليكَ يا أبتي» . لكنّه أبقى الأبوابَ والنّوافذ والمداخل كلّها مُغلَقة ، وظلّ مُحافِظًا على صمته

وجبينه المُقطّب . حاولتْ أن تنفذ من طريقٍ آخر لعلّها تجدها مفتوحةً فسألتْه بمرحها المعتاد معه : «كيفَ حال أمّي ، هل هيَ بخير؟!» . لكنّ الصّخرة الّتي كانَها في تلك اللّحظة لم تتزحزحْ من مكانها ، حينَها عرفتْ أنّ خبرَ إسلامِها قد وصل إليه . استجمعتْ شجاعتَها ، وقرّرتْ مواجهة الموقف ، فهتفتْ : «أعرف ما الّذي يَشغلك؟!» . لكنّه لم يقل شيئًا . «صالح ؛ مشكلة صالح» . داسَ على الكوابح حالًما سمع اسمه يطرقُ مسامعه على لسانها ، أصدرتِ السّيارة زعيقًا مُزعجًا ، ركَنَها إلى جانب الشّارع ، التفتَ إليها ، وصرخ في وجهها : «لا تذكري اسمه أمامي مرّة أخرى ، وفي البيت سنتفاهم» . أجابتْه بهدوء مع أنّ كلّ خليّة في جسدها آنذاك كانت تضجّ بالبكاء لردّة فعل أبيها : «حاضر . . حاضرٌ يا أبتي» . شَغّل السّيارة من جديد ، وانطلق بسرعة هذه المرّة بعد أن تخلّصت الشّوارع من أكثر من نصف المارّة الّذين كانوا يملؤونها .

صارتِ المدينةُ خلفَهم . وبدأتِ السّيارة تستوي على الطّريق الممتدّة حيثُ القرية . اختفى ضجيجُ المدينة ، وساد هدوءٌ عميق المكان . كانت السّيارة تنفرد وحدها في الطّريق الصّامتة صمتَ القبور إلاّ من صوت عجلاتها على الأرض . نظرتْ بتول إلى أبيها فوجدتْه كما هو صخرةً صمّاء ، قد عَلاها الغُبار ، وَانْحَفَر أُخدودٌ عميقٌ في أعلاها . حوّلتْ نظرها عنه إلى الطّبيعة السّاحرة الّتي تترامَى على الجانبَين علّها تجدُ عندَها بعضَ الرّاحة . لفتَ انتباهها في ذلك المساء كثرةُ العصافير الّتي تحطّ على أغصان الأشجار باتّجاه الشّمس الّتي تكاد تُولّي لهذا الجزء من العالَم ظهرها . تمنّتْ للحظة أنّها عُصفور يستمتع بهواء نقيّ وأغصانٍ باسقة ويأكل مِمّا يجد في سبيله . هتفتْ في نفسها : «إنّها حياةٌ أكثرُ

بساطةً وجمالاً منَ التّعقيدات والصّعوبات الّتي يبدو أنّها سِمَة الحياة البشريّة جمعاء» .

في فُرجةِ الفضاء الواقعة بينَ تداخُلِ جَبَلَين شاهقَين بدتْ قريتُها الحبيبة وقد طبعتْ الشّمسُ قُبلةً أخيرةً على خدّها النّاتئ المليء بالأشجار الهَرِمة . ضَحكَتْ طفولتُها في أعماقها عندما خَلَبَ لُبَّها هذا المنظر السّاحر . نظرتْ إلى أبيها فوجدتْه على عهده ، بدا أنّه يُحدّق بعينَين من زُجاج إلى المشهد الماثِل أمامهما معًا ، وقد عبرتْهما نسائم الغروب اللّطيفة . سمعتْ نفسها تهمسُ لها : «إذا كان المنظر يتبدّى لنا جميعًا بالكيفيّة نفسِها ، فَلِمَ يحرّكني حتّى تضجّ به روحي ، ثمّ لا يكون له التّأثير ذاته على جاري» . صمتتْ ثمّ أدركت البَوْن الشّاسع بين من ينظُرُ بِعَينَي قلبه ومَنْ ينظر بعَينَي رأسه .

(٢٤)
﴿إنّا وَجدْنا آباءنا على أمّةٍ﴾

استقبلَتْها أمّها على البّوابة المفتوحة القائمة منذ ذلك الزّمن ، عانَقَتْها بحرارة ، وضغطتْ على جذعها بيدَيها ولم تُفلتْها قبل أن تُلقي برأسها على كتفها كأنّها ستفقدها إلى الأبد . هتفتْ في أعماقها : «كم أُحبّك يا أمّي . . . لقد كان أسبوعًا عصيبًا ، ما أجمل حضن الأمّ حينَ يملأ عليكَ دُنياك فيحيل صحراءها إلى ظِلال ظليلة» .

– ارتاحي الآنَ يا ابنتي . غيّري ثيابَكِ ، وسنجتمع على العشاء في غرفة الطّعام .

– حاضر يا أمّي .

حملتْ حقيبَتَها ودلفتْ إلى الدّاخل ، لفتَ انتباهها سلوى ووائل يجلسان في غرفة الجلوس ، واستغربتْ أنّهما لم يأتيا ليُحَيّياها لحظةَ وصولها . ألقتْ عليهما التّحيّة ، ومضتْ في طريقها إلى غرفتها . غُرفتُها في العادة لا تُمَسّ طوال الأسبوع ، سريرها مُرَتّب ، ومكتبها وعليه بعضُ الكتب الجامعيّة والإنجيل كذلك مُنضّدات بصورة مهذّبة . وَلجَتْ من الباب وملأتْ رائحةُ البرودة في الغرفة أنفَها . القريةُ الجبليّة باردة في اللّيل . وغيابُ النّاس عن منازلهم يُصيبها بالبرودة أكثر . ألقتْ حقيبَتَها بجانب المكتب . وغيّرتْ ثيابَها ، وتمدّدتْ على السّرير تُريح جَسَدَها المُنهَك في انتظار الأمّ الّتي لن يطول الوقتُ حتّى تُنادي –

كالعادة – على جميع أفراد العائلة لينضمّوا إلى المائدة .

اكتمل عقدُ العائلة على الطّعام . امتدّت الأيدي إلى الأطباق بصمت ، وسادَ سكونٌ مَهيب الجلسة ، وخلتْ من أيّ صوت عدا صوت المَضغ الّذي كان يُحدثه اصطكاكُ الاسنان ، وانهراسُ اللّقم

تمنّت الأم أن يبدأ الحديثَ لكنّه ظلّ صامتًا لا يُحرّك إلاّ فمه بازدراد الطّعام أو ابتلاعه ، إلى أن قطعتْ هيَ الصّمت المَريب ، بقولها :

– كيفَ كان أسبوعُكِ يا بتول؟!

– صعبًا شيئًا ما ، حدثتْ فيه حوادث مُخيفة ؛ زميلٌ لنا اختطفه مجهولون ، وأحرقوه مع كتبه حيًا في الصّحراء .

صاحت الأمّ مرتعبةً ، أمّا الأب فتوقّف قليلاً عن مضغ اللّقمة الّتي كانت تنحشرُ في فمه ، وبدا أنّه يُفكّر قليلاً ثمّ عاد إلى بَلْع ما تبقّى منها ، وأردف :

– أنتِ على أبوابِ الامتحانات النّهائيّة ولا أريدُكِ أن تنشغلي بغير الدّراسة .

– حاضِرْ يا أبي .

– لا أريدُ جلوسًا مع أحدٍ غريبٍ ولا حديثًا مع أيّ إنسان . السّكن للدّراسة ، والجامعة لتأدية الامتحانات .

– حاضِرْ يا أبي .

– إذا كان الأمر كذلك ؛ إذًا فمن هو صالح هذا الزّفت الّذي أفسدَ علينا حياتَنا .

– يا أبي ، أرجوك لا تَقُلْ عنه هكذا ؛ هو زميلٌ من أرقى الزّملاء ، وهو يهمّ بأنْ يخطبني منك .

– أهو مُسلِم؟!

– بلى يا أبي!!

فزّ الأب من مكانه كأنّ أفعى لسعتْه ، وَهَوَى بِجُمع يده على وجه ابنته فصفَعها ، فسقطتْ من على الكرسيّ ، وراح يصيح :

– وتقولين مُسلم . أيّ وَقحة مُتمادِيَة أنت؟!!

لكنّ الموقف الّذي أذهلها ، وردّة فعلِ أبيها المُفاجئة ولدّتْ لديها على الفور تحدّيًا من نوع أكبر ، فهتفتْ به كأنّما تريد أن تَغيظه :

– وأنا مُسلمة . . . أنا على دينه ، وسأتزوّجه . أنا عاقلةٌ راشدة ، وأملكُ أمرَ نفسي ، ولا سُلطانَ لأحدٍ عليّ . . . وأنتَ . . .

لم يستوعب ما قالتْ ، كانت كلماتها المُتمرِّدة قد ثوّرتْ في داخله براكين متفجّرة راحتْ تقذفُ حِمَمها على كلّ من حوله ، فقلب الطّاولة بكلّ ما عليها من الأكل ، وهجمَ على ابنته يُريد أن يخنقها ، لولا تدخُّل الأم الّتي طلبتْ من ابنتها وهي تبكي أن تدخل إلى غرفتها وتُغلِق على نفسها الباب ريثما يتمّ تدارُك الموقف .

جرّت بتول نفسَها إلى غرفتها جرًا ، كان كلّ شيءٍ ينهار أمام عينَيها ، كلّ ما وجدتْه من هذه العائلة من تكاتُفٍ راح ينهدم مع كلّ خُطوة ، وفي كلّ شهقةٍ من شهقاتِ بُكائها كانت تفكّر في كيفيّة التّخلّص من هذا الكابوس الّذي غرز أظافره في عنقها . رمتْ نفسها على السّرير ودفنتْ جسدها تحت الغطاء ، وغاصتْ في نَوْبة بكاء هيستيريّة .

هدّأتِ الأمُّ الأب ، ورجتْه أن يجلسَ لمناقشة الموضوع بهدوء ، وكذلك فعلتْ مثلها سلوى الّتي أذهلها الموقف فراحتْ تُهدِّئ نفسَها وتفكّر في طريقة للمُساعدة في الخروج من هذا المأزق المُخيف . جلسَ الأب وهو ينفثُ شهقاتِ غضبه كأنّه قِدْرٌ تغلي ويتطاير الماء المغليّ من

جوانبها ، طلبتِ الأمّ من وائل أنْ يأتي لأبيه بالماء بسرعة . وطلبت من سَلوى أن تنظّف بقايا الطّعام والأواني الّتي تبعثرتْ على الأرض من جرّاء انقلاب الطّاولة . وأعادتْ هي بنفسِها الطّاولة إلى مكانها ، وفي غُضون دقائق كان الأمر قد أعيد ترتيبه . فضّلت الأمّ أن تبدأ هي الحديث ، وعلى عادتها في ضرب الأمثولة ، قالتْ بحنان للأب :

– يا وهيب أرأيتَ لو أنّ شاةً ضلّتْ طريقَها ، وغادَرتْ قطيعها ، فكيفَ تردّها إلى مَأْمَنِها؟! أفتُطلِقُ عليها ذئبًا من أجل أن يُعيدها؟!

– لا . ولكنّني أُطلِقُ عليها كلبًا من أجل ذلك . وإنْ لم ترجع إلى المسيحيّة وتترك سخافتَها لأطلقنّ عليها كُلَّ كلابي .

– يا وهيب ابنَتُكَ الّتي هي بضعةٌ منك تحتاج أن تلفّها بعنايتك ولُطفِكَ وتفهّمك ، لا أن تصبّ عليها سوطَ عذابِك ، وتنهشها بناب مَلامتك .

– أمرٌ كهذا فاقَ حدّ التّصوّر لا سبيلَ للتّعامل معه إلاّ بهذه الطّريقة .

تدخّل وائل في الحديث الجاري ، مدّ أنفَ فُضوله بينهما ، فهتف :

– يا أبي ، أختي هذه عاقّة ، ولم تحفظ ما فعلْتَه من أجلها طوال عشرين عامًا ، وجاءت في نهاية هذه السّنوات الطّوال من الرّعاية تُهديكَ هديّةَ جُهدِكَ المُضني وتعبك المتواصل ، فماذا كانت الهديّة يا ترى : «أنا مُسلمة» . وقال العبارة الأخيرة باستهزاءٍ شديد .

– اسكُتْ أنتَ يا وائل ودَعْني أتابع الحديثَ معَ أبيك :

يا وهيب ، النّار الّتي تشبّ في أطراف بيتك لا تُلقي عليها البنزين لكي تُطفئها . إنّما ماء الرّحمة كفيلٌ بأن يُطفِئَ كلّ نيران النّقمة .

– الكافرة لا تُرحَم يا أمّي ، بل تُرجَم . (ردّ وائل مُقاطعًا أمّه) .

– قلتُ لكَ اسكُتْ أنت ؛ ألم تسمعني؟! (أجابتْ مريم بحدّة) .

– هذه الفاجرة تُصاحِب مُسلِمًا وتخرج معه طوال الوقت ، وتجلس إليه في الأماكن الخالية ولا ندري ماذا يفعلان أيضًا .

– قلتُ لكَ اسكُتْ أيّها . . . (قالتْ ذلك بغضب) اسكُتْ أو اخرجْ من هنا .

– لن أسكُت . . . ما يحدُث يهمّني ، ولن أخرج من هنا . . . المُصيبة ستقع على رأسي كما ستقع على رؤوسكم ، والعار الّذي ستُلحقه بنا هذه المرتدّة سيُصيبُ قذره كلّ مَنْ في العائلة وأوّلهم أنا فأنا الأخ الأكبر ، ماذا سيقول النّاس عنّي . أخوها الأكبر لا يغار على شرفها ، تركها تبيح عِرضها مع مُسلم . . . إنّني . . .

هذه المرّة لم تتمالك الأمّ نفسَها ، كانت كلّ كلمةٍ يقولها وائل تحفر في رأسِها أخدودًا عميقًا مليئًا بالنّار والصّديد ، فصرختْ بأعلى صوتِها لكي تُسكِتَ العُواء المستمرّ من وائل :

– قلتُ لكَ اسكُتْ يا لقيط . . .

وكأنّ وائل لم يفهم تمامًا أنّه المقصود بالكلمة ، فكرّرتْها الأم في ثورة غضبها على مسامعه لكي تُوقِف هذا السّيل من القيح الّذي يصبّه في كلماته ، فهتفت :

– نعم ، لقيط . . .!!

– أنا لقيط ، يا أمّي . . .؟!!

– نعم أنتَ لقيط ، وأنا لستُ أمّك .

– هل هذا صحيحٌ يا أبي؟! (وجّه سؤاله إلى أبيه بهلع ، لكنّ الأمّ لم تُمهِل الأب لكي يجيب ، فتابعتْ وهي تصرخ وتبكي :

– نعم ، لقيط ، وجدناك قطعةَ لحم حمراء مُلقاةً تحت شجرة ، لولا أنّنا تحمّلْنا قَرَفَك ما كنتَ لتعيش ، والآن تجيء لكي تتحكّم في أمور العائلة ، وتتدخّل في شؤونها الخاصّة .

– وائل ليس لقيطًا ، إنّ الرّبّ قد بعثهُ إلينا من أجل أن نشكره على نِعَمِه . (تدخّل الأب ليُهدِّئَ قليلاً من حِدّة الموقف الّذي آلتْ إليه الأمور) .

– لا ، بل لقيطٌ ، وإذا لم يصمتْ ، فسأطرده من البيت ، بتول ليستْ أخته ، وليسَ من حقّه أن يتكلّم عنها بهذه الطّريقة .

– لا يهمّني ما تقولينه عنّي يا امرأة ، ولأكُنْ لقيطًا كما تقولين ، لا فرقَ عندي . وهذه الكافِرة صارتْ في عُرفِ المجتمع أختي وإنْ لم يعد هذا الأمر بعد اليوم يُشرّفني ، وها أنذا أقول واسمعيني جيّدًا يا مريم إنْ لم ترتدع عمّا هي فيه ، فسأقتلُها . . . أتفهمين ما أقول سأقتلها . . . أُقسِمُ بالأب والابن وروح القدس لأقطّعنّ جسدها قطعةً قِطعةً وأرميها إلى الكلاب لكي تلتذّ بأكل لحم هذه الفاجِرة . . .

خرج مِنَ البيت يُرغِي ويُزبِد ، وصفق البَاب وراءه ، فارتجّ المكان للحظة ، ثمّ سكتَ الجميع كأنّ الطّامّة قد وقعتْ ، وصارتْ فُرَصُ النّجاة منها ضعيفة . قالت الأمّ وهي تتداعى إلى أقرب كرسيّ لتجلس عليه بعد أن كانت تقف ثائرةً في وجه وائل : «لِنَمْنَحْ أنفُسَنا فرصةً للرّاحة والتّفكير بهدوء . الأمور لا تُحلّ هكذا . يبدو أنّنا جميعًا نتّبع أسلوبًا خاطِئًا في التّعامل مع الأمور . دعونا نُهدِّئ خواطرنا لعشر دقائق ، ثمّ بعد ذلك ننظرْ في أمرنا» .

في غرفتها كانت أصواتُ كلّ هذا الهِياج والصّياح تصلها فتسدُّ عن سُمومها أُذُنَها ، طافتِ الغرفة بنظرها ، وغالَبها شريطُ الذّكريات

القديم ، هنا درجتْ ، وهنا ناغتْ في أشهرها الأولى ، وحبتْ في سنتها الأولى ، وتكلّمت في سنتها الثّانية ، ولعبتْ حتّى شبعتْ مع أبيها في الثّالثة وكلّ سنيّ الطّفولة . . . وهنا تعلّمتْ . . . لكنّ كلّ ما تعلّمتْه في هذه القرية لا يُساوي نصف ما تعلّمتْه من صالح في سنة . وقد آن أوان الاختيار الصّحيح . رفعتْ يديها إلى السّماء وطلبتْ من الله أن يقف إلى جانبها ، ويأخذ بيدها إلى دربِ الحقّ ، ويُعينها على أن تراه بأمّ عينها ولا تحيدَ عنه ، ولا تتركه مهما كان الثّمن .

أفاقتْ من بحر خواطرها على صوتِ أمّها يُناديها من غرفة الطّعام ، هُرِعتْ لتلبّي النّداء ، دخلتْ عليهم ، كان الأبُ مُطرِقًا كأنّه خَجِلٌ من نفسه ، وكانت سَلوى تنظر إليها بطرف عينها ، رأتْ في نظرتها إشفاقًا وخوفًا ، وحدها الأمّ قامتْ إليها ، واحتضنتْها ، ثمّ قبلتْ جبينها ، وأخذتْ بيدها برفق ، وأجلستْها إلى جانبها .

– يا ابنتي . دعينا ننسَ ما حدث قبلَ قليل ، ونبدأ من جديد . نحنُ عائلتُك . أرأيت إلى الشّجرة كيفَ يكون جذعها واحدًا يقفُ باستقامة ، وعنه تتفرّع الأغصان المتّصلة به . نحن هكذا ، الجِذع هو الدّين والعائلة هي الأغصان ، ولكلّ فردٍ من أفراد العائلة غُصنه ، فلماذا تريدين أن تقطعي غصنك ، وتنبتّي عن الجذع يا بُنيّتي؟! .

– لأنّ الجذع الّذي يبدو مستقيمًا يُسقَى بماء الخرافات والخُزعبَلات فلن يُنتِج إلاّ أغصانًا مريضة .

– الغصنُ المبتوت يموتُ سريعًا .

– لقد ضَمَمْتُ نفسي إلى جذع شجرة باسقة ، تُسقَى بماء الحقّ والحِكمة ، شجرة طيّبة أصلُها ثابتٌ وفرعها في السّماء ، تُؤتي أُكُلَها كلّ حينٍ بإذن ربّها .

- فإنْ وجدت نفسَك خاطئة .

- أعود ؛ ولكنْ أنتم إنْ وجدتم أنفسَكم خاطئين ، فهل تعودون؟!

- نحن لا نُخطئ ، لأنّنا بكلمة الربّ نعيش .

- هذا هو التّأليه بعَينه ، ألاّ تُفكّروا بما أنتم عليه ، وأن تأخذوا الأمور مُسلَّمات هو الّذي يُضلّكم ويرميكم في طريق : «إنّا وجدْنا آباءنا على أمّة» .

- وتتحدّثين بآيات القرآن؟!

- الكتاب الّذي «لا يأْتيه الباطلُ منْ بَيْن يَدَيْه وَلا منْ خَلْفه» . لا كتلك الّتي حُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ ، وغُيِّرَتْ مواضعها ، وأَمَرَ كلُّ ذي سُلطان الكَذَبَةَ منَ الكَتَبة أن يزيدوا فيها لكي تتوافق مع شهواته ورغباته . أنتم تعرفون أنّ عيسى حرّم الخنزير ، وتعرفون مَنْ أضافه إلى النّصّ وفي أيّ عصر لكي يُصبحَ حلالاً . إنْ كنتم لا تعرفون فارجعوا إلى التّاريخ الموثوق والمُوَثّق . التّاريخ لا يُخبِّئ نفسَه ؛ نحن الّذين ندفن رؤوسنا في الرّمال حتّى لا نرى الحقيقة الدّامغة الّتي يرفعها التّاريخ في وجهنا كالشّمس .

- يا وهيب . يبدو أنّ ابنتَكَ لديها الكثير لتقوله ، وربّما تحتاج إلى عالِم لاهوتيّ لكي يُناقشها . أنا مع كلّ دراستي اللاهوتيّة قد لا أجد بعض الإجابات الجاهزة على ادّعاءاتها ؛ فما رأيك؟!

- ليست ادّعاءات يا أمّي . أنا بحثتُ وطالعتُ وناقشتُ ووقفتُ أمام بيت الرّبّ طويلاً بمئات الأسئلة الّتي تحتاج إلى جواب وعلّقتُها في عنقه على أمل أن يردّها إليّ وقد شَفيَتْ ، لكنّه تركها هناك مُعلّقة . أنتِ أيضًا ألا تثور في جوارحك وأنتِ تؤدّين بعضَ الطّقوس الدّينيّة في صَلَواتك عشراتُ الأسئلة لعشرات المظاهر غير المُقنعة؟!

- يا وهيب ، قلْ شيئًا . يا سَلوى قولي شيئًا .

- يا ابنتي . . . لقد كنت وما زلتِ أميرتي وحبيبتي ، وقد كُنّا عائلةً متحابّة تلفّها السّكينةُ من كلّ جانب ، فلماذا تريدين بأفعالِك هذه أن تقلبي حياتنا وتحوّليها إلى جحيم .

- يا أبي . إنّما أنتَ منارتي . ولا أريد لمنارتي هذه أن تنطفئ ، ولا أن تغرق في البحر ، ويلفّها النّسيان . أريد لها أن تكون مع الحقّ وتدلّ على الحقّ . وأنتَ تعرف أنّ عيسى بشّر بمحمّد ، وأنّ دينهما الحقّ هو واحد . لكنّ أصحاب المصالح حرّفوا وبدّلوا من بعدهما ، وكلّ ما أطلبه منك لحبّي لكَ أن تفتحَ قلبَكَ وعقلَك ، وتفكّر من جديد . وصالح هذا الّذي أغضبَك ، لمَ لا تمنح نفسكَ فرصةَ الجلوس إليه ومحاورته ، فلعلّه يُقنعك فتجد فيما يقول الحقّ فتتّبعه . أبأسُ النّاس هم أصحاب المواقف المُسبقة ، والفتاوى المُعلّبة ، والأحكام الجاهزة ، وأُعيذُكَ يا أبي أن تكون منهم .

- صالح؟! لا . . . لا . . . هذا الإنسان أفسدَ عليّ ابنتي ، وسرقها منّي . ولا أحاور فاسدًا ولا لصًّا .

- يا أختي . إنّ حُبّكِ له ربّما أثّر على عقلكِ ، فرأيتِ أنّ كلّ ما يقوله صحيحًا . أنا أقترح أن تغيبي عنه أسبوعًا ، وتختبري نفسكِ بعدها ، هل ظلّ تأثير كلماته ماثلاً عليك ، أمْ أنّ اختفاء وهجه من القلب أعاد المنطق إلى العقل .

- لا يا أختي . له تأثير ؛ نعم . ولكنّ الإيمان أبعد من تأثير الأشخاص ، إنّه يمتزج بالقلب فيُصبحَ جزءاً منه ، وحينها لو جاءتْ كلّ قوى الكون لتنتزعه من هناك فلن تستطيع مهما فعلتْ .

- في النّهاية يبقى اختيارُكِ . (قالتْ سلوى)

– لا . . . لا . . . الدّين ليسَ اختِيارًا . (قال الأب ذلك وقد قفز من مكانه)

– عجيبٌ يا أبي ؛ هل حاسَبَك أحدٌ على ما اخترتَه في كلّ أمور حياتك ، ابتداءً من دينك ، وليسَ انتِهاءً بزواجك . أنا اخترتُ طريقي فلماذا تُعاقِبونني على اختِياري!!

في آخر اللّيل اتّصل الأب بابنه وائل ، وقال له : «حبيبي ، لا تأخذ على خاطِرِكَ من كلام أمّك ، ولْتكنْ على يقينٍ من أنّني معك في كلّ ما قُلتَه . عُدْ إلى البيت ، واطمئنّ من ناحيةِ أختك ، سوف نُرسِلها غدًا إلى الكنيسة لعلّها تُشفَى من الجنون الّذي أصابها . الأسقُف ذو القلب الطّيّب سيتولّى أمر إقناعها بالرّجوع عن . . . عن . . .» .

(٢٥)
لماذا يَخافُ الإنْسانُ المَوْتَ؟!

اقتيدتْ إلى ما يبدو أنّه سيكونُ مَثواها الأخير . عبرَ بها عَمُّها رُشدي الطّريق الزّراعيّة بسيّارته الفارهة قاصِدًا الكاتِدرائيّة . «ماذا سيكون الأمر يا تُرى؟!» سألتْ نفسَها . وأجابتْ مُباشرةً : «أعرف ، يريدون أنْ يَعرضوا هذه المَجنونة على الطّبيب القابع خلفَ مَكتبهِ الوثير في الكنيسة التّاريخيّة . وليكنْ . أعرفُ ما فَعَلتُ ، وأُدرِكُ ما اخترتُ» . تهادَت السّيارة وهي تذرع الأرضَ الصّاعدة بين الأشجار الباسِقة . تخيّلتْ أنّ الأشجار تبتسم في وجهها . بعضُها راحَ يُسلِّمُ عليها . حتّى الحجر حيّاها بقلبٍ رقيق . قال لها : «تَحملين الخير في قلبِك المؤمن ، فلا تتأثّري بما يقوله قُساة القلوب ، ولا أولئك الّذين ملؤوها بالعَفَن لطول ما أَشْبَعوها بالشّهوات ، فصارتْ سوداءَ كالحَة» . كان الجوّ باردًا قليلاً . صباحُ جمعةٍ من أوائل شهر كانون الأوّل . لسعةُ البرد أيقظتْ فيها ذكرياتٍ طويلةً معَ هذه الطّرق الصّاعدة ، وهذه المنعرجات المُلتوية . أقسمتْ بينها وبين نفسِها أنّها تعرفها أكثر من كلّ هؤلاء المُدّعين ، وتَحفظُها غيبًا في قلبها . زادتْ بسمتُها وهي ترى بعض الزّهور الّتي لا يَضُوعُ عَبَقُها إلاّ في أواخر الخريف ، تمنّتْ من عمّها أن يتوقّف قليلاً علّها تتمكّن من أن تلمّ باقةً منها وتزرعها في صدرها فيظلّ شذاها مُعينًا لها على الأيّام القادِمات الّتي يبدو أنّها ستكون حالِكات .

لكنْ لِمَ القلق ، ولماذا الحُزن؟!! كُلُّ شيءٍ كـان يُـبشّـر بالحـيـاة :
العصافير الّتي ما كفّتْ عن التّغريد ، الأغصان الّتي كانت تمدّ أيديها مُصافحةً لعابري الطّريق ، الأرانب البرّيّة الّتي كانت تقفز جَذْلى من بين الجذوع ، الفراشات النّادرة الّتي كانَ تحليقُها يشكّل قوسَ قزَح على الأرض بديلاً عن ذلك الّذي في السّماء ، خيوط الشّمس الّتي كانت تتسلّل من بين أوراق الأشجار فتُلقِي ببعض الدّفء على الوجوه . . .
كلّ شيءٍ كـان يضجّ بالحـيـاة ؛ الحـيـاةُ الّتي تهـزأ بالموت ، الموت الّذي يُصبح صديقًا لمن أراد حياةً أوسعَ ، وخلودًا لا ينقطع .

لماذا يخـاف الإنسـانُ الموت؟! لأنّه يجـهل ما بعـده . فـإنْ عـرف؟! اطمأنّ حسبَ المعرفة . «أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى» يُرَحِّبون به ؛ لأنّه يُحْييهم لا يُميتهم ، ويَرْفَعُهم لا يَضَعهم ، ويُعلِي مكانتهم لا يَخفضُها . ها نحنُ نولد ، ونشبّ ، ثم نكتهل ، ثمّ نشيخ ، وسنموت . مَنْ مِنَ البشر خرجَ عن هذه الدّائرة؟! لا أحد . مَن استطاع أن يحتال على الموت فـيـعـيشَ مُخلّدًا؟! لا أحـد . إنّمـا الدّنيـا والموت رفـيـقـان مُتلازِمان ، وكلاهما مَحكومٌ عليه بالنّتيجة نفسها ؛ الفناء . الدّنيا إلى ذلك والموتُ مَظهرُها . الموتُ إلى ذلك والدّنيا وعاؤه . فَرَحِّبْ أيُّها القلبُ بالموت إذا جاءَ في سبيل مَنْ كَتَبَهُ عَليك .

تابعتِ السّيارة الفارهة صُعُودَها . ها هي تقترب من القمّة ؛ القمّة الّتي يقفُ أعلى منها الرّبّ ، الرّبُّ الّذي يبسطُ يديه للتّائبين ؛ التّائبين الّذين أبصروا الطّريق ، الطّريق الّذي يؤدّي إلى الحقّ ، الحقّ الّذي لديه الخلود ؛ الخلود الّذي لا مـوتَ بعـده ؛ فَلِمَ الخـوفُ من الموت؟! لِمَ أيّهـا القلبُ النّقيّ ، وأيّتها الرّوح القدّيسة!!

تلقّاهما الأسقُف (أبرام) بابتسامةٍ عريضةٍ على باب مكتبه ، كان

قد شاخَ هو الآخر ، وغزَا الشّيبُ غرّته الهابطة من تحت قبّعته المُخمليّة الّتي يعتمرها فوقَ رأسه . رأتْ فيه ثعلبًا مُخادعًا ، وهو ينظر إليها من تحت نظّارته المُدوّرة الخالية من الإطار . قال له رُشدي : «هذه ابنتُكَ بتول ، إنّها أفضلُ ما يُمكن أن تلتقيه في حياتك ، وأرجو أن تجدَ عندكَ الرّاحة» . ردّ الأسقُف وكان دانيال يقف وراءه كتمثال : «أعرفها ، لا تُحدّثني عنها ، لقد نشأتْ في بيت الرّبّ ، وإليه تعود ، ليستْ غريبةً عن هذا المكان ولا المكان غريبًا عنها ، كلّ ما في هذا البيت ، ومَنْ في هذا البيت يعرفها ويُرحِّبُ بها . ها هي العُصفورة تعود إلى العُشّ ، ما أشبهَ اللّيلةَ بالبارحة ، أكاد أرى أُمَّها وهي في الرّابعةَ عشرةَ تقفُ هذا الموقف . لا عليكَ يا رُشدي ، كُنْ مُطمئنًا ، عُد إلى عملك في خدمة الرّبّ مِنْ مَوقعك ، ونحن سنتولّى الأمر على وجهه الصّحيح» .

خرج العمّ ، وبقيتْ بين الاثنَين ، أشارَ إلى دانيال إشارةً خاصّة عرفَ من خلالها ما عليه القيام به ، تقدّمَ من خلف سيّده ، وصار إلى جانبها ، وأشار لها مع انحناءة خفيفة من جذعه الطّويل ، ورأسه ذي الطّاقيّة الحمراء : «تفضّلي يا سيّدتي ؛ من هنا» . سارتْ خلفَه وهي توقن أنّها تفعل ذلك بإرادتها من أجل أنْ توصِلَ رسالتَـهـا . بعضُ الطّيّبين لا يُدركون مدى طيبتهم إلاّ إذا وقعوا في فخٍّ نواياهم الحسنة . لكنّها سمعتْ صوتًا داخليًّا يقول لها : «سنرى مَنْ سيُوقع الآخر» . وكانت واثقة . واستمرّتْ تتبعُ المُساعد .

طاف بها عبر البهو الفسيح حتّى بلغ الجزء الغربيّ ، كشفَ من خلف جدارٍ مُنزوٍ قائم هناك عن درج داخليّ ، هبطَ بها الدّرج الحلزونيّ الّذي ظلّ ينزل عبر جُدران سميكة بدا أنّه قد مضى عليها قرونٌ طويلة . شعرتْ بالرّهبة . هنا بدأتْ تُفكّر بالتّراجع عن الّذي في ذهنها .

قرّرتْ قرارًا سريعًا بالهرب ؛ لكنّ الوقتَ كان قد فات . هداها عقلُها إلى أنْ تحاول التّخلّص من الموقف لكنْ بطريقة ذكيّة ، وشجّعها تاريخُها الطّويل الجميل مع أبيها ، وهتفتْ في أعماقها : «لن يرمي أبي الحبيب بي إلى غابة السّباع ، لا بُدّ أنّ لديه خُطّةً ما لكي يُعيدني إليه كما يظنّ ، لا بأس ، سأتبع معه الخُطّة إلى نهايتها» . وواصلتْ هُبُوطها . سمعتْ في نهاية هذا الهُبوط أصوات الرّاهبات اللّواتي يعملْنَ في خدمة الرّبّ فاطمأنّ قلبُها قليلاً ، إذًا المسألة سهلة ؛ هكذا ظنّتْ . أرسلتْ نظرةً عبر الباب المُوارب إلى الدّاخل ، فرأتْ عددًا من الرّاهبات يُصلّين ، وبعضُهنّ يحملْنَ أطفالاً بينَ أيديهنّ ، تذكّرتْ أخاها (وائل) واستعادتْ الصّدمة لوهلة حينَ اكتشفتْ في النّهاية أنّ شقيقها لقيطٌ . سألتْ بتعجّب وحيرة : «أبناءُ مَنْ هؤلاء؟!» . «لُقطاء» . «آباؤهم هنا في الدّاخل أم في الخارج؟!» . أرعبها الجواب الأخير الّذي سمعتْه في أعماقها . وتابعت السّير خلفَ دانيال . ظنّتْ أنّه سيؤول بها المطاف إلى سرير جديد يُضاف إلى أسرّة الرّاهبات ، ولكنّ دانيال التفَّ نصفَ دورة تاركًا باب الرّاهبات خلفه ، ومادًّا يده إلى جيب ردائه ليُخرجَ سلسلةً من المفاتيح ويتقدّم بها إلى بابٍ حديديّ ثقيلٍ قديم علاه الصّدأ ، ويحاول مع قُفله ليفتحه . حينَها فقط أدركتْ تمامًا أنّها سارتْ بقدَمَيها إلى سجنها . ملأ الرّعب كيانها في ثوانٍ وانتشر في جسدها كما ينتشر السّمّ ، لفّتْ قدمَيها ، وأدارتْ ظهرها لكي تصعد الدّرج الّذي هبطتْهُ وتُولّي هاربة ، ما إنْ كادت تُدير شيئًا من جذعها ، حتّى رأت (زئيف) ذي العضلات البارزة يقف في أعلى هذه الدّرجات ، مُشبّكًا بينَ يديه على صدره النّافر . فعدلتْ عن فكرتها . لكنْ ما العمل؟! أدارتْ رأسها باتّجاه دانيال فرأته ينظر إليها من خلفِ ظهره لافًّا رأسه قليلاً باتّجاهها

وعلى طرف فمه انتقشتْ رُبْعُ بسمةٍ خبيثة . جمدتْ مكانها فلم تتزحزح . هبطَ زئيف الدّرجات بلمح البصر ، حملها بين يديه ككومة ثيابٍ خفيفة ، وخطا خُطوتَين فقط باتّجاه الزّنزانة الّتي صار بابُها مفتوحًا ليتلقّى السّجينة الجديدة ، ورماها هناك . أغلق دانيال البابَ عليها ، ومضى دون أن يقول كلمةً واحدةً .

احتاجتْ لدقائق كي تبتلع هول المفاجأة . ثمّ لّما عادَ إليها رُشدُها وقفتْ على قدميها ، وسعتْ إلى الباب الحديديّ ، وراحتْ تدقّ عليه بكلتا يَدَيها وتصرخ . لكنّ أحدًا لم يسمعها . كان الباب من السّماكة بحيثُ لا يُوصِلُ من الدّاخل إلى الخارج شيئًا مهما كانت شدّته ولو كان إصبع ديناميت مُتفجّرةً . تراجعتْ إلى الخلف وراحتْ تتفحّص مسكنها الجديد . أصابها الهلع لمجرّد تفكيرها بأنّها أصبحتْ سجينةً حقيقيّة . تكوّرتْ على نفسها قبل أن تكتشفَ عالَمها الّذي لا تدري كم ستمكثُ فيه ، وأغمضتْ عينَيها ، وراحتْ تُخاطِبُ نفسها : «الإيمان بالله الواحد هو المُنقذ في المُلمّات . عَلَيَّ ألاّ أفقد إيماني ، ولا صبري . لا أخاف الموت . ولَم أقْتَرِفْ خطأً . وما يأتي به الله لا مفرّ منه ، وسأقبل القَدَر على أنّه لم يكنْ لِيُخطئني حتّى لو كنتُ على سريري في بيتي وبين أهلي وأحبّتي . المهمّ ركّزي فيما ستقولين . وانتبهي إلى قلبك لا تخذليه ، ولا تدعي الشّيطان يتسلّل إليه» .

من الغابات البعيدة قَدِمَ الإنسانُ البدائيّ . بين الشّجَر والحَجَر عاش . أكَل من ثمر الأوّل ، واتقى الحرّ والبرد في ظلّ الثّاني . لم يكنْ يعرف كيفَ يُغضِبُ الله ، ولا كيف يتجرأ عليه . حتّى جاء ذلك الظّلّ الأسود ، ففحّ في أذنيه فحيحًا فكذّبه في البداية ، لكنّه لما استمرّ في فحيحة صدّقه . فانحرف . الّذين يستمعون إلى فحيح الظّلال السّوداء

سيسقطون . أمّا أولئك الّذين أصمّوا آذانهم عن هذا الفحيح وملؤوا قلوبهم بكلمة الله فهم الّذين سيصمدون . وهم الّذين سيطلع عليهم النّهار في نهاية المطاف!!

(٢٦)

لَنْ أَتَخلّى عَنْك حَتّى لَوْ تَخلّتْ رُوحِي عَنْ جَسَدِي

الجامعةُ خاليةٌ ؛ لأنّها خاليةٌ منها . هي كلّ الوجود وكلّ القلب وكلّ الحبّ . ما الّذي يحدثُ معها ، ها هو اليوم الرّابع الّذي تختفي فيه خلفَ سُدّة الغياب . إنْ كان مَرَضًا فقدرة الله على شفاء مرضاه تكون أتمّ ما تكون باللّقاء . وإنْ كان غيابًا اختياريًا فما الّذي يدعو هذه الحبيبة إلى أن تُمعنَ في هذا الغياب ، وامتحانات نهاية الفصل على الأبواب؟! لا بُدّ من البحث عن وسيلة لمعرفة ما يحدُث .

نقلَ خُطُواته الغامضات باتّجاه سَكَنها ، لا بُدّ أنّه سيجد جوابًا عند رفيقتها (وَعْد) الّتي كانت تذكرها بتول بين فترة وأخرى في غمرة حواراتهما الطّويلة . السّكن ليسَ بعيدًا عن البوّابة الرّئيسيّة وربّما في أحد طوابقه وخلفَ أحد أبواب شُقَقِه يقبعُ الجواب . استوقفه الحارس على الباب : «إلى أين؟! ممنوع الدّخول للرّجال» . «لن أدخل ، فقط أودّ أن أرى وَعْد» . «قريبتُك» . «نعم هي أختي» . اتّصل بها البوّاب ، وبعد دقائق كانت وعد الّتي ظهرتْ أمامه على خلاف ما توقّع تقف أمامه كأنّها قادمةٌ من حقول الحراثة . وقفتْ أمامه زائغةَ النّظرات وهي تتساءَل عن هذا الكائن الّذي ادّعى أنّه أخوها ، وقبلَ أن تفوه بـ لمة فتفضحَ المستور ، بادرَها بالسّؤال : «أينَ بتول؟! ما الّذي حدث لها؟!» .

«مين إنتا؟!» . تبادَل معه الحارس نظرات الاستغراب كيفَ تسأله مَنْ
يُفترض أنّها أخته هذا السّؤال ، استدركَ صالح الموقف حين نظر في
عَيني الحارس : «لم تتعرّف عليّ لأنّني غبتُ فترةً طويلةً عنها» . ثمّ
وجّه كلامه من جديد إلى وَعْد : «تكلّمي ؛ ماذا حدث لبتول» . لكنّها
صرختْ في وجهه : «إنتا صالح . . أكيد إنتا صالح . . .» ، ثمّ تراجعتْ
إلى الخلفِ كالمذهولة ، وبدأتْ تصرخُ من جديد : «اخرجْ من هنا قبل
أن أَلُمَّ عليك الدُّنيـا . . .» . تركتْـه وصعـدت الدّرجات عائدةً إلى
شُقّتها . كان الحارس في تلك اللّحظة قد أيقنَ أنّ خطأً ما يحدُث ،
فسارع إلى النّظر بغضبٍ في وجه صالح ، فما كان منه إلاّ أنْ أعطى
ساقَيْه للريح وولّى هاربًا .

عادَ كسيفَ البالِ ، مشغول الخاطر يجرّ أذيال الخيبة ، ومضى إلى
مُحاضَرته في الجامعة . صارَ جسدًا مُلقًى على المقعد بلا روح ، ظلّ
السّؤال الّذي يطوف حول بتول مُعلّقًا لم يجدْ له إجابة . فكّر بألف
طريقة ليجد سبيلاً إلى الجواب فأعيتْه التّجارب .

أقفرت الجامعة ، صار كلّ مكان فيها مُوحِشًا ، وكلّ سبيل فيها
تائهة . مشى حتّى وصل إلى الممرّ الّذي يفصل بينَ كلّيّتي الآداب
والتّربية . وقف عنده مَليًا وهو يستذكر الغائبَين ، أحدهما لم يعدْ يدبّ
على هذه الأرض الّتي تمتلئ بالظُّلم ، والآخَر غاب ولم يَعُد يُعرَف له
مقرّ . حاول أن يستنهضَ روحَها الّتي أقامتْ هنا زمنًا ماضيًا ليسألها
أين هِي؟! وناداها بلسان قلبه ، فضاعتْ كلّ نداءاته سُدىً .

في البيت جلسَ إلى مكتبه كئيبًا . تناوَلَ دفتَرَ كتاباته ، وبدأ يخُطُّ
مقالته الجديدة في سلسلة (الحرّيّات الدّينيّة) ، ارتجفَ القلم في يده ،
كتبَ بضعَ جملٍ شطبَ أكثرَ من نصفها ، مزّق الورقة ، ثمّ أعادَ الكرّة

فلم يُفلح في أن يبدأ مقالته بأسلوبه المعتاد . نزفَ القلمُ بين يديه دمًا ،
تركه على الورقة المُسَوّدة ، وضمّ يده على قلبه ، شعر أنّه فقدَ معنى
وُجوده . حينَ تفقد حبيبًا فإنّ كلّ شيءٍ يُصبح هو الآخر مفقودًا ؛ ذلك
لأنّ الحبيبَ هو كلّ شيءٍ ، فإنْ ذهبَ ذهبَ معه كلُّ شيءٍ . أحسّ أنّ
مُحاولاته البائسة لن تُجدِيَ نفعًا في إنتاج نصٍّ لعددِ يوم غدٍ من
الصّحيفة ، فقرّر أن يرتاح ، رمى نفسه بكاملِ ثيابه الّتي عاد فيها من
الجامعة ، وعقد يده اليمنى تحت رأسه ، وغطّ في نوم عميق .

في النّوم رآها ، كانت تلبسُ فستانَ الزّفاف الّذي كانت تحلمُ أنّها
ستُزَفُّ به إليه ، لم يرَ وجهها مُشرقًا أكثرَ منه في ذلك الحُلم . قالتْ له :
«أنا لكَ . آمنتُ بما آمنتَ به . ولم أتخلَّ عنك فلا تتخلّ عنّي» .
سقطتْ من عينه دمعةٌ ساخنة على خدّه فمسحها وهو يقول : «لن
أتخلّى عنك حتّى لو تخلّتْ روحي عن جسدي» . مدّ يده إليها يُريد أن
يضعها بين يديها ، لكنّها ابتعدتْ مثل غمامةٍ وغابت خلفَ الأفق .
استيقظَ من نومه أكثرَ أسىً وحُزنًا . قام فتوضّأ فصلّى ودعا الله أن
يجمعه بها عن قريب . ثمّ خَلُصَ إلى مكتبه ؛ فأتاه الكلام من حيثُ
لا يحتسب ، هذه المرّة قرّر أن يأخذ موضوع العنف الدّينيّ كمادّة
متفرّعة عن الموضوع الأشمل ؛ موضوع الحرّيّات الدّينيّة ، سالتِ
الحروف ليّنة ، لكنّها مُوجعة ، كان واضحا أنّ صاحبها يغمس ريشته
بدواة قلبه ويختار الكلمات النّازفة من أجل أن يُعبّر عن أفكاره :
«مُعظَم الحُروب الّتي سُعِّرتْ باسم الدّين عبر التّاريخ كانتْ من أجل
السّيطرة على الأرضِ والإنسان باسم الله لا من أجل الدّخول في دين
الله» . «انتقلتْ هذه العَدوى إلى النّاس العاديّين ، فقتلوا بلا ذريعة إلاّ
ذريعة الضّوء الأخضر الّذي أعطاه لهم الرّبّ ليفعلوا ما بدا لهم» .

رَفعَتِ المَقالةُ الأخيرةُ وتيرةَ الغضب عند المُتعصّبين المُدّعين الدّفاع عن حُرُمات الله حتّى بيّتوا لهذا الفتى ما بيّتوا . فانهالتْ عليه رسائل التّهديد من كلّ صوبٍ ، لكنّ الفتى الّذي آمنَ أنّه يحمل رسالةً عظيمةً وسط بيئةٍ خطيرةٍ مَضى في الشّوط إلى نهايته لا يهابُ أحدًا ، وكان فقدانه لبتول ، ولغيابها المُفاجئ أكبر الأثر في لا اكتراثه وعدم مبالاته . فراح يرفع صوته أكثر كلّما جاءتْهُ رسالةُ تهديدٍ جديدة .

***

أيّامٌ سوداء متشابهة تلك الّتي مرّتْ على بتول في زنزانتها الانفراديّة ، لم يَكُنْ يؤتَى لها إلاّ بالقليل القليل من الطّعام ، عُومِلَتْ ككلبة ؛ رُمِيَتْ إليها الفَضَلات وما تبقّى من أكل الرّاهبات ، ووُضِعتْ عندها قارورةُ ماءٍ لا تزيد عن لترين قال لها زئيف إنّ عليها أن تشربَ هذا الماء طَوال شهر . ولم تُعطَ غطاءً كافيًا في زنزانة مقرورة ينبعث البَردُ فيها كالسكّين من كلّ جهة . جُوّعتْ حتّى تتبع سيّدها ، وحتّى تُذعِنَ للرّبّ كما كان يقول لها زئيف في كلّ زيارةٍ مَقيتة .

نزل الأسقُف أبرام بنفسه إلى زنزانتها ، فتح له دانيال الباب الحديديّ الثّقيل ، صرّ صريرًا مُرعبًا قبل أن يتوقّف بزاوية قائمة ، ويدخل عبره الحبر الأعظم . هيّأتْ نفسَها للمفاجأة الكبيرة . وقفَ بين يدَيها كما يقف بين يدي الرّبّ ؛ خاشِعًا هادئًا . انتظر بضع لحظات قبل أن يطلب مقعدًا له ولها . جيءَ بأفخر المقاعد من ريش النّعام ، جلستْ عليه ولوهلة ظنّتْ أنّها في حُلم . نظر إليها وتمعّن في وجهها ، ثمّ صاح باندهاش : «لِيَرْحَمْني الرّبّ . ما هذا الشّحوب الّذي أراه باديًا في وجهك؟! يا زئيف أأنتَ فعلتَ هذا بقدّيستنا ، تعالَ أيّها الكلب . تعال» . جاء زئيف يَجُرُّ جسده الضّخم ، حتّى وقف بين يديه : «سأمُر

بكَ إلى وادٍ من وديان جهنّم إنْ رأيتُ حبيبتنا على هذه الهيئة مرّة أخرى . هاتِ لها ما لذّ من الطّعام والشّراب» . غاب النّصف الأعلى لزئيف عبر الدّرج الحلزونيّ ثم اختفى تمامًا . قرّب الأسقُف كرسيّه من بتول ، وأطبقَ باطنَي يديه المُتقابلَين وقرّبهما من وجهه في هيئة صلاة ، وطلب منها أن تُسامحه على ما حلّ بها ؛ فهو لم يكنْ يعرف أنّهم يُعاملونها هذه المُعاملة . لم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يعودَ زئيف وهو يحمل بين يديه طبقًا كبيرًا قد صُفّتْ عليه أشهى المأكولات ، من لحم مَشويّ ، وسمك ، وأرزّ ، وفواكه ، وعصائر . كانت المائدة بالفعل تميد بما عليها لتعدّد الأصناف والألوان . أمر بها أبرام فقُرّبَتْ إلى بتول . توجّست الأخيرة خيفةً ، ولم تمدّ يَدها إلى شيء . «ما الّذي يُؤخّرك يا ابنتي . . . هيّا . . . كُلي من رزق الله» . مدّ يده هو الآخر ، وأردف وهو يقرّب كرسيّه إلى المائدة أكثر : «وسأُشارِكُك» .

يكشف القلبُ ما في الوجه عند الصّادقين ، أمّا الكذبة والمُخادعون فالوجه عندهم يتلوّن بألف لون ، ويتشكّل على ألف هيئة . بعضُ الوجوه تتحوّل إلى أقنعة يُبدّلها صاحبُها في اليوم مئة مرّة . الغريب أنّه يُتقنُ القيام بالدّور الّذي يُناسِبُ كلّ قِناع ، حتّى لتظنّ أنّ الصّدق يتمثّل في هيئته وهو مغموسٌ بالكذب من رأسه إلى أخمص قدَمَيه .

– الرّبُّ أعطاكِ فرصةَ معرفته ، فَلِمَ تُضيّعين هذه الفرصة الثم نة يا ابنتي . (قال لها الأسقُف بلهجة حانية ، وبأسف ظاهر) .

– صدقتَ يا أبرام ، الرّبّ أعطاني هذه الفرصةَ فعرفتُه ، ومنعكَ منها فجهلتَه .

– أنا أجهل الرّبّ!!

- بلى .
- كيفَ يا قدّيستي؟!!
- خُذْ مثلاً هذا الصّليب الذّهبيّ الكبير الّذي يتدلّى على صَدْرِك هل تؤمن به حقًّا؟!
- بكلّ تأكيد . لقد صُلِبَ الرّبّ .
- يا رجل كُنْ عاقلاً ولو لمرّة واحدة ؛ أفرأيتَ رَبًّا يُصلب . إذا كان ربًّا وإلهًا على الحقيقة فَلِمَ يُصلَب ؛ لِمَ لَمْ يُنقذْ نفسَه؟! أنا أعرف أنّ الإله هو الّذي يُعذِّب لا الّذي يُعَذَّب .
- لكنّ مشيئة الأب كانت كذلك .
- مشيئةُ الأب اقتضتْ أن يُقتَل ابنُه الوحيد على فرض أنّه ابنه كما تقولون؟! أهذا معقول ، يُضحّي الله بابنه الحبيب والوحيد . ما هذه الخُرافات المَمْجوجة . . .!! أنتَ . . . أنتَ لو كان عندكَ ابنٌ أفتقدّمه للقتل والصّلب؟! أَمَجْنونٌ أنتَ؟!
- لكنّ الله أراد بسماحه له بالصّلب أن يُكَفّر بذلك الخطيئة .
- أيّةُ خطيئةٍ يا حَبْرَنا الأعظم؟! (قالتْ ذلك ساخِرةً)
- الخطيئة الّتي ارتكبها آدم .
- إذا كان الله عادلاً - وهو كذلك بلا شكّ - فلماذا لم يُحاسِب آدم نفسه . . . أنتَ على ظلم فيكَ كبشريّ أتقبَل أن تُحاسَب على خطيئة جارك الّذي سَرَق؟! يا رجل ضعْ عقلكَ في رأسِك مرّة واحدة ولا تجعله يتدلّى من عنقك مثل صليبك .
- أنتِ كُتلةٌ من الحماقة يا ابنتي . . . لا أدري ماذا أفعل لك .
- لن تستطيع أن تفعل لي ولا لكَ شيئًا . (قالتْها بتحدٍّ) .
حينَها ثارتْ ثائرته ، وقام من مكانه كثورٍ هائج وراح يدور حول

نفسه في الزّنزانة ، وهو يصيح :
- لقد أعطيتُكِ فرصةً لتتوبي ، ولكنْ يبدو أنّ تأثير هذا السّاحر كان أسود فلم تُجدِ معه النّصيحة . سوفَ أرى كيفَ تنعدلين حينَ يُعلّق جسدُكِ على العمود كالخنزير . يا زئيف ؛ أيّها البَغل ، تعال . . . تعالَ . . . لماذا تغيبُ هكذا مثل البَهيمة تعالَ علّمْ هذه الحمقاء كيفَ يعودُ إليها عقلُها لتعودَ إلى دينها .
خرجَ يفور كالبركان ، ومن خلفه مشى كحملٍ وديع مُساعِده دانيال . دانيال الّذي ظلّ يهزّ رأسه كلّما تحدّثتْ بتول ، وبدا أنّ سحرها سينتقل إليه . استنقذه الأسقف من بين تلك الأمواج ذات التّأثير السّاحر وخرج به قبل أن تُفسدَه هو الآخَر .
في المساء اتّصل به أبوها : «أيّها الأسقف ؛ بَشِّرْ» . «إنّها أقسى من الصّخرة الجامدة في الوادي العميق ، لم تتحرّكْ بوصةً واحدةً» . تنهّد قبل أن يهتف : «وما العمل يا أبتاه؟!» . «جاء دورُكَ الآن ، أنا بالنّسبة لي فعلتُ ما أستطيعُ أن أفعله . ولن أعودَ إلى هذه الكافرة مرّة أخرى» . «سآتي حالاً . . . لا أطيقُ الصّبر أكثر على الموضوع» .

(٢٧)
«لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنٌ»

الغيابُ وحشٌ يبتلعُ كلّ مَنْ يَجدُهُ في الطّريق . إنّه الصورة الأبشع للموت ؛ الموتُ غيابٌ ظاهريّ ، والغيابُ موتٌ خَفيّ . والطّعنة الّتي تأتيك في الخفاء أشدّ وأنكى من تلك الّتي تأتيكَ في العَلَن . والحياة حَلْبةُ صراع لا يفوز فيها إلاّ ذو قوّة ؛ قوة في الفكر ، وقوّة في العقل ، وقوّة في الرّوح ، وأخرى في الإرادة . الحياة طرقاتٌ شاقّة لا يبلغ نهايتها إلاّ مَن كان مُستعداً منذُ البداية بأمرَين لأمْرَين : ماءِ اليقين لصحراء الشّك ، ونورِ الإيمان لظُلُماتِ الكُفر .

هاتفَ (وهيب) أخاه (رُشدي) ، وطلبَ منه أن يتركَ عمله في الفُندق ويأتيه على وجه السّرعة . «لِمَ يا وهيب ، ماذا هنالك؟!» . «تعالَ أوّلاً ، وستعرف لاحقًا» . قال له وهو يقود السّيارة إلى الكنيسة : «بتول يا رُشدي لم تُغيّر قناعاتها . أنا تعبتُ منها وممّا جلبتْه لي من العار» . «يا أخي استخدم معها أسلوب التّرغيب فلعلّه يكون أجدى» .

هبطَ عليها زنزانتها ، تلقّفتْه بلهفة على الباب ، أسرعتْ نحوه حالَما رأته ، همّتْ باحتضانه ، لولا أنّه أبعدها ، وانتحى جانبًا ، أطرقَ طويلاً ، ثمّ ارتجّ جسده كما لو كان يبكي . تماسكَ . رفع رأسه ، وهتفَ بها :

– ماذا تريدين منّي أن أفعلَ لكِ حتّى تُريحينا من هذا الموضوع؟!

– يا أبي لو كنتُ شاكّةً بنسبة واحدٍ في المليون فيما أنا فيه ، ما

تحمّلتُ كلّ ذلك . يا أبي ؛ إنّما أريد الخيرَ لي ولكَ . أيهونُ عليكَ أن ترميني هنا في البرد والجوع والصّقيع ، وتعود إلى بيتك . كيفَ يغمضُ لك جفنٌ على سريرك وأنتَ تعرف أنّني أذوق كلّ أصناف الإهانات هنا؟! ألستُ حبيبَتَك؟! ألستُ صغيرتَكَ المُدَلّلة؟! ألستُ . . .

– توقّفي . . . توقّفي أرجوكِ . . . أنت تُحطّمينني . . . أنت تُدمّرينَ كلّ ما تبقّى في قلبي من عاطفة . . . أنا جئتُ اليوم أرجوك . . . أتوسّلُ إليكِ . . . أبوسُ رجليكِ . . . أن تتركي هذا الدّين ، وهذا الوغد . . . وتعودي إليّ . . . أنا أريد من ابنتي أن تعود إليّ . . . أنا لا أريد لذلك الوغد أن يظلّ سارقًا لحبيبتي . . . يا ابنتي . . . أرجوكِ . . .

– أنا الّتي أرجوكَ يا أبي . . . هذا الدّين الّذي اعتنقتُه إنّما اعتنقتُه عن قناعة . . . لقد شرح الله صدري له ، وملأني بنوره . . . أرجوكَ يا حبيبي أن تفتحَ قلبَكَ وتقف بينَكَ وبين نَفسكَ فتفكّرَ في العقيدة الّتي تؤمن بها والّتي لا تُقنعُ طفلاً لو هو منحها لحظةً من تأمُّله .

– أنا أعرضُ عليكِ عَرْضًا آخر . . . أنا مُستعدٌ أن أشتري لك أجمل سيّارة وأحدث موديل . . . وأشيري على أيّ شابّ مسيحيّ وأنا أُقنعه أن يركع تحت قدمَيكِ ولا أن تتزوّجي هذا الشّيطان الّذي خدعك وهو يحاول أن يظهر أمامَكِ كأنّه ملاكٌ هابطٌ من السّماء . . . هه ما رأيُكِ يا رائعتي؟!

– يا أبي . . . المسألة ليست في النّقود ولا في الزّواج ، أنا مطمئنّةٌ من هاتين النّاحيَتَين ومرتاحةُ البال ؛ المسألة في الإيمان الّذي هو أعظم من كلّ شيء . لماذا تُصرّ على أن تربط الأمور العالية بسفاسف الرّغبات ، أفَتَتَصَوّرُ أنّني أسلمتُ لأنّ الإسلامَ سَيَهَبُني قصورَ كسرى وكنوزَ قيصر؟! كلاّ يا أبي . إنّني قد أواجه من العَنَت والأذى من

المُسلمين مثلما أواجه من المسيحيّين أو أكثر . . . فانْزِعْ هذه الفكرةَ الخاطئةَ من دماغك . يا أبي أليس ديني لي ودينُكَ لكَ؟! فَلِمَ تُصرّ على أن تُحاربني فيه وتَنزعَه منّي؟!! أينَ ما ربَّيتَنا عليه من أنّ أهمّ مبادئ المسيحيّة التّسامُح ، والسّلام ، والعفو ، وتقبُّل الآخرين . . . يا أبي الحبيب هَبْني كافرةً على مذهبك ، فتقبّلْني على كُفري ، وأنا . . . أنا سأبقى ابنتَكَ الّتي تخدمك وتُقبّل الأرضَ من تحتِ قدمَيكَ!!

– يبدو يا بتول أنّ إقناعكِ أصعب من إقناع إبليس . . . بصراحة أنا تعبتُ . . . وحينَ أخرجُ من هنا . . . لن تعودي ابنةً لي أبدًا!!

خرجَ وقد ازدادَ عمره عشرةَ أعوام بعد هذه المُحادَثة . تلقّاه الأسقُف في الأعلى ، استضافَه في مكتبه ، وسأله عمّا حدث ، فردّ عليه : «لقد كانتْ معي أكثرَ عنادًا مِمّا كانت عليه معك . أنا بالفعل في حيرةٍ من أمري . أمعقولٌ أنّها تُضحّي بنفسها وبحرّيّتها وبأهلها من أجل هذا الدّين الّذي آمنتْ به ؛ إنّه بالفعل لأمرٌ عجيب» . «لا يا وهيب ، ليس بالأمر العجيب أبدًا ، إنّما سَحَرَها ذلك الشّابّ ، وحينَ وقعتْ في حُبّه آمنتْ بكلّ كلمة يقولها ، ألم يقولوا : الحبُّ أعمى ؛ بلى لقد أعماها حُبّها عن أن ترى الطّريق فَتَهاوتْ في الظّلام ، وأفقدَها ذلك الحُبُّ صوابَها وأطار عقلَها ، فتبعتْ هذا الدّجّال كالضّحيّة تتبعُ بَوْلَ الضَّبُع» . «فما الحلّ أيّها الأسقُف؟! لقد أعيتْني الحِيَل وتَرَكتْني عاجزًا» . «أتريدُ حَلاً جذريًا للمسألة؟!» . «بلى ، يا أبتاه ، دُلّني عليه أرجوك» . يصمت الأسقُف كمن يتردّد أن يقول ، ثمّ يهتف : «أرى أن تكسرَ عينَها حتّى لا تستقوي عليكَ ولا على الرّبّ» . «أكسرُ عينَها!!» . «نعم ، يا وهيب ، هذا هو الحلّ الأخير» . «وماذا تقصد بذلك؟!» . «أنْ يدخلَ عليها أحدُنا فيُفقدَها . . . .» .

(٢٨)
كانَ عَبْدًا صَالِحًا وَكانَتِ المَلائكَةُ تَمْشي إلى جِوارِه

لفّتِ الفجيعة حَبْلَها على قلبَيهما الطّاهرَين . مضى عهد الوداد سريعًا . وحلّتْ محلّ الرّوض العاطر أشواكُ الكراهية الّتي زرعَتْها الغربان . لو أنّ هذا العالَم سَلِمَ من الحسد والبُغض لعاشَ كلّ مَنْ فيه هانئًا راضيًا ، لكنّ الحقد غولٌ بستّين قرنًا لا تُبقي ولا تذر . والحسد نارٌ مُضطرمةٌ تأكلُ مَنْ حولها ، وأوّل ما تبدأ بصاحبها . ما الّذي اقترفه الإنسان من خطايا حتّى تتابعتْ عليه لَعنَات السّماء؟! وما المُقابل الّذي أُغريَ به هذا الإنسان ليرتكب كلّ هذه السّوءات . لماذا كلّما رأى الحاسدون طَيرَيْن يَبتَنيان عُشًا لهما راحُوا ينفخون بعاصفة خَبَثهم حتّى اقتلعوا العُشّ ومَنْ فيه؟! لماذا لا يُحبّ الإنسانُ الخيرَ لأخيه الإنسان؟! أكان آثمًا إلى الحدّ الّذي اسودّ قلبُه فَعَمِي عن كلّ فضيلة ، وزيّن له عماهُ كُلّ رذيلة .

أيُّ قلب لأب ذلك الّذي يُمالِئ الخنازير على أن تَلغَ في دَم ابنته؟! بل أيّ بشريٍّ ذلك الّذي يقبَل أن يرى أخًا له في الإنسانيّة ينزف أمامه ويستصرخه وهو يتلذّذ بمنظر عذابه ، ويسعدُ لتأوّهاته!! أفكان ماردًا من مَرَدَة الشّياطين هو مَنْ علّم كُلّ هذه الأفواج البشريّة أنْ تَهدِمَ كُلّ بانٍ ، وأن تَقتُلَ كُلّ مُحيٍ ، وأنْ تطعنَ كُلّ آمنٍ ومُطمئنّ!!

طرقُوا الباب طَرَقات مُؤدّبة ، فتح لهم الأب ، كانوا أربعةً بلباس الشُّرطَة . قالوا له : «لدينا مُذكّرة من المَحكمة بالتّحقيق مع ابنك . سنأخذه أقلّ من ساعة لسؤاله عن بعض الأشياء ، وسيعود بعدها» . «وما الّذي فعله ابني؟!» . قال الأب وقد ملأتْه الحيرةُ والاضطراب . «لا شيءَ مُجرّد تحقيق بسيط» . «مَنْ هُناكَ يا أبي؟!» .

خرجَ معهم بهدوء ، أركبوه في سيّارة مدنيّة . جلسَ عن يمينه أحدهم وعن شماله آخر ، وسرعان ما غطّوا وجوههم بقِناع أسود لم تَبِنْ من سواده في اللّيل الحالك إلاّ فتحتا العينَين . استغرب أنْ يفعل ذلك رجال الأمن . نظر إلى السّائق فلم يَبِنْ منه إلا صفحة وجهه اليُمنى . انطلقت السّيارة تجوب شوارع المدينة ، لكنّها لم تذهب إلى مركز الأمن أو أيّة دائرة أمنيّة أخرى . بل خرجتْ من شوارع المدينة واتّبعتْ طريقًا لم يعرفْه من قبل . ابتدأت الشّكوكُ تُساوره ، همّ أن يسألهم إلى أينَ يأخذونه ، لكنّ السّيارة توقّفت فجأة على جانب طريق حُرجيّة بعد أن أصبحت المدينة بعيدةً تتلألأ أضواؤها في اللّيل الهادئ في الأفق . برز من داخل الأشجار حوالَي عشرةُ أشخاص كلّهم مُلثّمون . تقدّم أحدهم من السّائق ، وأعطاه حقيبةً صغيرةً . ابتسم السّائق وأشار بهزّ رأسه باتّجاه المقعد الخلفيّ . فتح الاثنان بابَي السّيّارة ، ودفعه الّذي عن يمينه باتّجاه الشّارع . وفي لحظات تقدّم أحدُ المُلثّمين منه ورشّ في وجهه مادّة غازيّة ، كانتْ رائحتها مُنعشة . لكنّه في ثوان رأى النّجوم الّتي في السّماء تدور مثل السّاقية . وبدأت النّجوم تسقطُ نجمةً من بعدِ نجمة ، حتّى سقطَ هو .

أفاقَ من غيبوبته بعد ساعة ، تململَ في مكانه ، وتأوّه . سَمعَه القريبون منه ، فتحرّكوا مُسرعين نحوه ، سمع أحدهم يقول : «لقد

استيقظ . . . لقد استيقظ» . حاول أن يُحرّك يدَيه ، فاكتشفَ أنّهما مُقيّدَتان خلفَ ظهره ، ثمّ فعل المحاولة نفسها مع قدَمَيه فاكتشف الشّيء ذاته . عرف أنّ النّهايات تقترب . لم يضطرب . لم يرتجفْ . لم يتوسّلْ إلى أحد . لم ينطق بكلمة . فقط كان من الدّاخل يقول ألف كلمة حُجِبَتْ عن عالَم البشر وكُشِفَ عنها السّتار لعالَم الملائكة والأرواح العَلِيّة . عرفَ أنّه يدفع ثمن مقالاته ، وثمن مواقفه ، وثمن إيمانه الّذي يعُدُّه الآخَرون كُفرًا .

إنّها إحدى مشكلات الإنسانيّة تلك الّتي عبّر عنها ابنُ سينا بقوله : «ابتُلينا بأقوام يظنّون أنّ الله لم يَهدِ إلى الحقّ سِواهم» . وكُلُّ مَنْ خرج عن طائفتهم فهو خارجٌ من المِلّة يستحقّ الرّجم والقتل والذّبحَ مِنَ الوريد إلى الوريد ، والتّعليق على أعمدة الكهرباء في الأسواق العامّة!! إنّ اصطفاف النّاس خلفَ هذا المتراس أو ذاك بحسبَ ما فَهِموا من تعاليم دينهم وإلزام الآخَرين بمُقتَضى هذا الفَهم هو الّذي دمّر الإنسان ، وسوّغ له أن يشربَ الواحِدُ منه دَمَ الآخَر ، وعَدَّ ما يفعله قربةً من القُرُباتِ إلى الله!! وما في الشّرّ للإنسانيّة أكثر من هذا ولا أوجَعَ منه .

اجتمع عليه هذه المرّة خَلقٌ كثيرٌ ، ما إنْ صاح أحدُهم بصوت عال : «لقد استيقظ» . حتّى رأى أسرابًا كثيرةً من النّاس تُشبه أسراب الذّئاب أو الذّباب تجتمع عليه في وادٍ عميق بعيد أجرد من كلّ جهة . حتّى إذا تكاثَروا عليه ولم يتبيّن من هم ، سَمِعَ طائفةً منهم تقول له : «كنتَ تَظُنُّ نفسَكَ مسيحَها ، وتخدعها بكلماتكَ المَعسولة ، فلأجل أن تُصبحَ مسيحها كما كان عقلك الخرف يُسوّل لك ، وعقلها الواهم يُزيّن لها فسوف نرفعك على الصّليب ، والآن قُل بملء فمك لكلّ هذه الحشود الّتي جاءتْ لتشهدَ صَلْبَكَ : يا أبي لماذا تخَلّيتَ عنّي؟! يا أبي

لماذا تركْتَني لهذه الوحوش الشّيطانيّة من البشر تنهشُ من لحمي؟!!» .

ثمّ قهقهتْ هذه المجموعة ، فهزّ رأسه حينَ عرفَ مَنْ بعثهم ، لكنّ القهقهات لم تكدْ تتلاشَى حتّى نفذ من خلال الطّائفة الأولى من الشّامتين عددٌ آخر يصيح به بصوتٍ غليظ : «أكُنتَ تظنّ نفسَكَ فقيهًا حينَ كُنتَ تُحاورُ الكَفَرةَ والمُلحدين ، يا خَوّار العزم يا ناقصَ المُروءة ، أتكونُ لَيّنًا في دينكَ تُعطي الدّنيّة ، وتُلقي في رُوع المُتخاذلين أنّ الدّينَ دينُ حُبٍّ وسلام وتسامُح ، لا دينَ سيف وجهاد ومُباهَلة . سُحقًا لك ، وتبًا لعقلكَ الفاسد» . فَهزّ رأسه من جديد . لكنّه لم يفهم . لقد اختلطتْ عليه الأصوات ، الأصوات التي كان من المُستحيل أن تلتقي لتنافرها التّامّ ، واختلافها الكبير فيما تؤمن به اجتمعت اليوم عليه ، واتّفقتْ على دمه . هتفَ في داخله : «إنّ التّعصُّبَ لا دينَ له» . بدأت الأصوات تتداخل : «اقتلوه باسم الرّب» ، وينادي آخرون : «اقتلوه من أجل الله» . «مَلعونٌ أنتَ باسم الأب والابن وروح القُدُس» . «لعنة الله عليكَ والملائكة والنّاس أجمعين» . «يا مُهرطِق» . «يا زِنديق» . وظلّت الأصوات المُتباعدة تتداخل ، واتّسعتْ ابتسامته ، ولم يعد يدري مَنْ هؤلاء الّذين يُقَدّمونه إلى الموت السّاعة ، أهم إلى هؤلاء أم إلى هؤلاء!!!

مرّتْ ساعةٌ ثقيلةٌ عليه ، لم يكفّوا فيها عن العُواء لحظةً . حتّى إذا تَعبوا من ذلك . بدؤوا يتلاشَون واحدًا واحدًا . اختفَوا مجموعةً مجموعةً . وفي دقائق كان المكان خاليًا من كلّ أحد إلاّ منه . نظرَ حوله كان الوادي الّذي رَمَوه فيه يبدو عميقًا إلى الحدّ الّذي لا يُرَى منه في الأسفل إلاّ قبّة السّماء . ظنّ أنّه يحلم . استرجع المشهد الّذي مرّ به في هذه اللّيلة فلم يعثر على أملٍ واحد بأنّه حُلم . حكّ يدَيه وقدَمَيه بالأرض الصخريّة الّتي أُلقِيَ فوقها فآلمه رُسغاه ، وأوجعه كاحلاه ، كان

القيد قد أُحكِمَ وَثاقه بشكلٍ تامّ . التهبَ جوفه ، وجفّ حلقه من العطش تلفّت لعلّ أحدًا يسقيه فلم يجدْ . نظر إلى السّماء وتمنّى لو تُمطِر الآنَ فيشرب . ظلّ مُمعنًا في صفحة السّماء ، رأى فيها غُيُومًا تُسرِعُ الخطا في سَيْرها . شعر أنّ واحدةً منها توقّفتْ أعلاهُ تمامًا وهطلتْ عليه دُفقةً من الغيث . فتح فمه وراح يشرب ما يتساقط فيه . ارتوى . قال لنفسه : «لم أشربْ في حياتي ماءً أعذبَ من هذا» .

بدأتْ حُلكة اللّيل تَخِفّ . وتسرّب البياض تدريجيًا إلى الصّفحة الأزليّة . صلّى الفجر إيماءً . انشقّت السُّدفات . وأشرقتِ الشّمسُ بنور ربّها . صرخ في الوادي لعلّ أحد رُعاة الأغنام يسمعه ، فذهبتْ صرخاتُه هباءً . حاول أن يتحرّر من قيوده ، لكنّه لم يُفلح . بدأتْ قواه تضعُف . وآلام عظامه تتفاقم ، وظهر له عدوّان عنيدان هما الجُوع والعطش . تمنّى لو أنّ الله يُخلّصه من هاتين الغريزتَين ، فإنّما كُتِبَتا على الإنسان في حياته الطّبيعيّة لكي يُجنّباه الأذى فيتفرّغ لعبادة الله ، أمّا الآن وهما يُمعِنان في تعذيبه وإلحاق الأذى والهزيمة به فَلِمَ لا يُخَلّصه الله منهما ليخفّف عنه ما هو فيه!! شعرَ أنّ هذا الخاطِر ينتقصُ من إيمانه فكَفّ عنه .

اشتدّتْ حرارةُ الشّمس فبدأتْ تحرقُ وجهه . صرخ من جديد ليسمعه أحدٌ أيّ أحد . لكنْ هيهات ؛ إنّ الوادي الّذي أُلقِيَ فيه صعبٌ على الجنّ والشّياطين أن تصله . ولو كان ذا شجر لأَملَ أن يأتيَ راعٍ إلى هنا من أجل أن ترعى أغنامه ، أما وهو أجردُ لا نبتَ فيه ولا زرعٍ فإنّ هذا الأمل يُصبحُ ضربًا مِنَ الخيال . جفّ حلقه مع ارتفاع شمس الضّحى ، حاول أن يُزحزح جسده بالكامل ليصل إلى ظلّ فيستظلّ به من اللّهيب الّذي راحت الشّمس تبدو به عدوّة أخرى له ، لكنّ القيود عادتْ إلى حَزّ مفاصله ، فتأوّه من شدّة الألم .

نام من شدّة الإرهاق . حلم بأنّه شَرِبَ حتّى ارتوى ، وأكل حتّى شبع . وأنّه في القريب من الزّمن سيلتقي ببتول فاطمأنّ خاطره . استيقظَ في منتصف اللّيل ، حرّكَ جسده بما تبقّى له من قوّة وصكَّ على أسنانه من شدّة الألم ، سالَ بعضُ الدّم من كاحلَيه . فاحتْ رائحة الدّم في الأجواء ، عوى ذِئبٌ شمّ رائحتها من بعيد ، وقفَ على رأس الجبل الّذي يُطلّ على الوادي ، أبصرَ فريسةً شهيّة تنتظره في أسفل الوادي ، نظر إليها من جديد فرآها دَسمة ، لم يشأ أن يكون بخيلاً ويترك قطيعَه جوعَى ، عوى من جديد عُواءً خاصًا ، اجتمعت عشرات الذّئاب في القمّة ، هبطتْ إليه ، نظرَ إليها وهي تزحفُ نحوه . ابتسم ابتسامةً واسعةً ، ولمعتْ عيناهُ فرحًا ، هتفَ في نفسه : «الآن سوفَ أرتاح ، لكَ الحمدُ يارب» .

مرّتْ أيّامٌ وأيّام ، وأسابيعُ وأسابيع ، ثمّ شهورٌ ، وأعوامٌ ، ولم يعثُر أحدٌ له على أثر . وراحت تنتشر حول اختفائه الحكايات ، وتطوّرت الحكايات إلى أساطير . وتحوّل صالح نفسه إلى أسطورة خالدة ؛ قيلَ إنّ أجيالاً من الجدّات اللّواتي كُنّ زميلات له أيّام الدّراسة في الجامعة نسجْنَ حوله من القصص ما يُخالطُ الخيال ، واتّخذْنَ منها مادّة تُروَى إلى الأبناء والأحفاد : «لقد كان عبدًا صالحًا يا ابني ، وكانت الملائكة تمشي إلى جواره» . ثمّ راح هؤلاء الأبناء والأحفاد يروونها لمَنْ بعدهم . وهكذا أضيفَ اسمُ هذا البطل إلى قائمة العِباد الصّالحين الّذين مرّوا بالتّاريخ والإنسانيّة ، ودفعوا دمهم ثمنًا لما يُؤمنون به .

قال له مدير المخفر في اليوم التّالي ، وهو ينظر في جهاز الحاسوب الّذي أمامه : «أنا لم أبعث برجال الشّرطة لاعتِقال ابنك ، وملفّه نظيف وليسَ عليه أيّ شكوى من أيّ نوع!!» .

(٢٩)

نَحنُ نَتَشَقّقُ بِالماءِ فَنَروي الظّمآن، وَنَتَدَفّقُ بِالأنهارِ فَنَروي الكُثبان

دخل عليها مَزْهُوًا بفحولته . لمعتْ عيناه شهوةً وقَطَرَتا رغبةً وهو يرمقها كحَيَوانٍ شَبِقٍ جائع . تقدّمَ منها أكثر ، ظنّتْ أنّه جاء ليُلقي عليها إحدى مواعظه السّخيفة ؛ لكنّه استمرّ في الاقتراب منها . تقلّصَت المسافة بينهما حتّى لفَحَها بأنفاسه الكريهة ، تراجعتْ خطوتَين إلى الوراء مُبتعدةً عنه . فتبعها . نظرتْ إلى باب الزّنزانة كان مُغلَقًا بإحكام . عرفتِ الشّرّ في عينيه . قال لها وهو يلعقُ شفتَيه مثل خنزير : «سنلعبُ يا صغيرتي» . هجم عليها ، مدّ يديه المُرتعشتَين ليُمزّقَ عنها ثيابَها . صرختْ . فازداد شبقه . علا صُراخُها . فازدادَتْ شهوته . تراجعتْ أكثر حتّى التصَقَ ظهرُها بجدار الزّنزانة السّميك . مدّتْ يديها يمنةً ويسرةً تُحاولُ أن تعثرَ على شيءٍ تُدافعُ به عن نفسها فلم تجد . اتّسعتْ حدَقَتا عينَيها رعبًا من هذا الكائن الحيوانيّ الّذي يدّعي القداسة ويهجم عليها كفاسق . انفلتَ جسدها الصّغير من تحت جسمه المُتضخّم . تابعتْ صُراخَها لكنّها تذكّرتْ أنّ باب الزّنزانة لا يُوصِلُ إلى الخارج شيئًا . صار عليها وحدها أن تجد الطّريقة المُناسبَة لتُنقذَ نفسَها . تَظاهرتْ بالهُدوء ، اقتربتْ هيَ الآنَ منه ، وخاطبتْه بصوتٍ يفيضُ رِقّةً وعذوبة : «لا تُتعبْ نفسَكَ يا أبي . جسدي لك .

فاهدأ . دَعْنا نفعل الأمر بهدوء» . لمعتْ عيناه ، واستقام جسده ، وتوقّف ، ثمّ هتف : «حقًا يا حبيبتي؟!» . «بالطّبع . . . جسدُنا نحن ملكٌ للقدّيسين ، وأنتَ أجملُ القدّيسين . لمَ لا تقف الكنيسةُ في وجه ما نفعل؟!» . فردّ عليها : «أنا الكنيسة وأبو الكنيسة وأفعل ما أشاء» . «لكنْ أليستْ هذه خطيئة؟!» . «ليستْ خطيئة كبيرةً ، وسأشتريها لكِ ولي بأحدِ صُكوك الغُفران فلا تخجلي . ولا أحد يرانا» . كانت قد وصلتْ إلى صليبٍ معدنيّ كبير ينسدل على الجدار الّذي يلي الباب مُباشرة ، تناولتْه بخفّة ، وهوتْ به بكلّ ما تستطيع على رأس الأسقُف قائلةً : «خُذْ أيّها الأبُ الأطهر ، هذا أفضلُ صَكّ غُفرانٍ يُمكن أن تتلقّاه في حياتك» . ترنّح الأسقُف قليلاً من شدّة الضّربة . فلم تُمهلْه بتول حتّى يتعافَى منها ، فأتبعتِ الأولى بثانية ثمّ بثالثة ، ثمّ أخذها الهِياج وألم الرّوح فراحتْ تضربه بالصّليب بشكلٍ هيستيريّ . ضغطَ الأسقف قبل أن يسقط في بئر الغيبوبة على جهازٍ في حزامه ، ففُتِحَ باب الزّنزانة فورًا ، وقف زئيف البغيض هناك وشاهدَ الأسقُف ينزِفُ رأسُهُ دمًا ، كانت بتول تَشهَقُ كلبؤة جريحة وقد غارتْ عيناها المُتعَبتان في تجويف جفنَيها ، نظرتْ إلى البغل الواقف هناك بتحدٍّ أيضًا ، فتحاشَى نَظَراتها الحادّة . أسرعَ إلى الأسقُف ، أقامَه ، وخرجَ معه ، قال له وهو يصعد الدّرج الحلزونيّ : «هذه الفتاة ساقطة ، جئتُ لكي أكلّمها باسم الرّبّ ، فضربتْني بالصّليب الّذي حُمِلَ عليه الرّبّ ، تخيّلْ يا زئيف تخيّلْ ضرَبَتْني به بدل أن تجثو أمامه وتُؤدّي صَلَواتها وتطلبَ منه البركة . مجنونة . . . مجنونة . . . مجنونة . . . عليّ أن أتدبّر أمرها بطريقةٍ أخرى . . لقد حانَ دورُكَ يا زئيف . أتعرف ؛ سأوكل أمرها إليكَ . أنتَ ستتولّى الموضوع بعد الآن» .

هاتفَ أباها ، وهو يضع يده على الشّاش الأبيض الّذي يُغطّي موضع الجرح في رأسه : «إنّ ابنتك الآثمة ، اعتدتْ عليّ وشجّتْ رأسي بصليبٍ حديديّ ، ولولا لطفُ الرّبّ وعنايته لكنتُ فارقتُ الحياة . أيّ شيطانٍ يتلبّسُ ابنتكَ يا وهيب!!» . «لم تعد ابنتي بعد اليوم أيّها الأسقُف» . «وماذا نفعل معها؟!» . «تصرّفْ بالّذي تراه مناسبًا» .

بعضُ ما نسمعه يُمكن أن نعدّهُ ضربًا من الخيال . إلاّ أنّ الخيال يُعدّ ضربًا من الواقع في حالة بتول . والواقع أكثرُ غرابةً من الخيال . أيُّ وحوشٍ يُمكن أن تعتدي بهذه الصّورة على هذه البراءة!! منْ أيّ مادّةٍ خُلقتْ هذه القلوب؟! من الحجارة؟! كلاّ ؛ فالحجارة تستعيذُ من قساوة هذه القلوب ، وتبرأ إلى الله من جُحُودها ، وتقول : يا أخي نحن أرقُّ وأحنُّ ؛ نحن نتشقّق بالماء فنروي الظمآن ، ونتدفّق بالأنهار فنروي الكُثبان ، ونتصدّع من خشيةِ الله حينَ نسمعُ آياتِ القُرآن . ولا نعتدي على أحد ، ونقرّ في مكاننا حتّى لا نؤذي غيرنا ، وإن استخدمتْنا يدٌ آثمة في رَجْم الآخرين ، فَلُوموا اليد الآثمة ولا تلومونا نحن ، فإنّما يد الإنسان هي الّتي أصرّتْ على أن تغيّر من هدوئنا الراقي ، وتبدّل من طبيعتنا السّمْحة!!

دخلَ عليها زئيف هذه المرّة ، حاولت الهربَ منه ، لكنّه سدّ عليها الفضاء ، حملها بين يديه ، ونادي على دانيال ، جاءه دانيال بسلاسل غليظة ، وقيود سميكة كالمعاصم . ربطَ يدَيها بالقيود الّتي التفتْ على رُسغَيها كإسوارتين غليظَتَين ، جاءه دانيال من جديد بسُلّم طويل ركنه على أحد الجُدران ، ارتقى عليه ، ثمّ أدخل طرفَ السلسلة في تجويف حلقةٍ حديديّة مُثبّتة في سقف الزّنزانة الّذي يرتفع أكثر من خمسة أمتار . بدا واضحًا لبتول أنّ هذه الزنزانة مُعدّة للتّعذيب ، ومُجهّزة بكل

الوسائل من أجل ذلك ، وأنّ ما بدا زنزانةً فقط في الأسبوعَين الماضيَين ليس إلاّ ، هو في الأصل غرفةُ تعذيبٍ متعدّدة . شدّ زئيف السلسلة من الطّرف الآخر ، فارتفعتْ يدا بتول المقيّدتان بها . ثمّ شدّ أكثر فارتقى جسدها ، بدأت القيود الّتي على رُسغيها تغوص في لحمها الطّريّ ، نزّ الدّمُ من هناك . صرختْ . لكنْ في الفراغ المُصمَت . نادتْ مُستنجدةً لكنّ استنجادها ضاع داخل تلافيف الجدران الغليظة . هتفت : يا أبي أنقذني . لكنّ أباها هو الّذي سمح لهؤلاء الزّبانية أن يفعلوا بها ذلك . شدّ زئيف السلسلة أكثر فارتقى جسدها أعلى ، ثمّ تابع شدّه من هذا الطّرف وهي ترتفع من الطّرف الآخر ، حتّى إذا صارتْ على ارتفاع مترين عن أرضيّة الزنزانة ثبّتَ طرفَ السلسلة في حلقة أخرى مثبّتة لهذا الغرض تحت موضع الصّليب . تدلّى جسد بتول كالشّاة المذبوحة . نفضَ زئيف يديه بعد أن أنهى المَهمّة . نظر وعيناه تبرقان فرحًا لإتقانه اللّعبة الّتي يُحبّها . اقتربَ من الضّحيّة ، أدارها حول نفسها فراحتْ تلتفّ كأنّها مغزل دوّار . صرختْ . ضحك . استغاثتْ . قَهْقَه . أمسكها في غَمرة الدّوار وأوقف الجسد المتدلّي . تراجع إلى الوراء في هيئة المُلاكِم ، وسدّد ضربةً قويّة إلى وجهها ، سُمعَ صوتُ طقطقة . لقد كسر اللّئيم أنفَها ، تراشقَ الدّم على ثيابه ، وعلى أرضيّة الزّنزانة ، ارتفع مؤشّر سعادته ، وجّه لكمةً جديدة إلى وجهها فأفقدها الوعي . قفز إلى الحلقة المُثبّتة تحتَ الصّليب ، حلّ السّلسلة من هناك ، فهوى جسدها ساقطًا من ارتفاع مترين مرّة واحدةً إلى الأرض . سُمِعَتْ طقطقةٌ أخرى ؛ لقد كُسِرتْ ذراعها .

رَشّ على وجهها ماءً باردًا ، وأنشقَها نشوقًا لكي تستيقظ . أصدرتْ أنينًا خافتًا قبل أن تفتحَ عينَيها المُتورّمَتَين . حملها ورماها مثل

كلب أجرب على سرير إحدى الرّاهبات . التففْنَ حولها وهنّ يستعذْنَ بالله من الشّيطان الّذي في داخلها . سألتْ إحداهنّ : «ما قصّتها؟!» . أجابتْ أخرى كأنّما تدرّبتْ على الإجابة من قبل : «إنّها ساحرة ، سلبَ الشّيطان روحَها وأودعها في قعر الجحيم» . هتفتْ ثالثة : «يا لَلمسكينة!!» . قالتْ رابعة : «هل يجوز أنْ نُصلّي من أجلها» . ردّتْ صاحبة الرّوح المسروقة في الجحيم : «كلاّ ، فاللّعنة الّتي حلّتْ فيها لا يُمكن أن تخرجَ منها إلاّ بخروج روحها» . سألتْها : «ولماذا رَمَوا بها إلينا؟!» . أجابتْ : «منْ أجل أن نُجبّرَ كَسْرَها» . «ولكنْ هل هناك راهبةٌ طبيبةٌ أو ممرّضة؟!» . «كلاّ» . «فكيفَ نفعل؟!» «أنا أعرف» .

بجبارة بدائيّة ودون أيّ أدوات طبّيّة أو مُعقّمات ، لُفّت الجبارة على ذراعها كيفما اتّفق ، ثمّ أعادتْها الرّاهبة الّتي صنعتْ لها الجبارة إلى زنزانتها كأنّها تخاف أن تمكث عندهم أكثر فتُفسدَ روحُها الخبيثة عليهم أجواء الرّبّ الّتي يتنعّمون في ظلالها .

انجبر كسرُها بعد شهرَين ، لكنّه شوّه ذراعها ، فبدتْ كأنّها ذراعٌ مُقوّسة . خلال الشّهرَين ذاقتْ من أصناف العذاب ما لا طاقةَ لبشر به . كانت تُعَذّب بشكل يوميّ . تُضرَب ، وتُذلّ ، وتُجوّع ، وتُعَطّش . وكانوا يُدخِلون إليها الكلاب فتنبحها طَوال يوم كامل تقضيه في الرّعبِ والهَذَيان معها ، ولا تخرجُ الكلاب إلاّ وقدْ نهشتْ جزءًا من جسدها .

تاقتِ الأمّ لأن تراها ، لكنّها لم تكنْ تملك من أمرها شيئًا . لقد تحوّل وهيب الوديع الّذي كان لا يرفض لها طلبًا إلى وحش في هيئة إنسان . رفضَ رفضًا باتًّا أن تزورها إلاّ إذا عادَ إليها رُشدُها وآمنتْ بالرّبّ . أمّا ما عدا ذلك فدعيها حتّى تموت وننتهي منها . لكنّ الأمّ لم

تُطقْ صبرًا . ولم يكنْ بإمكانها ألاّ تعصي أوامر الزّوج القاسي ، فتسلّلتْ ليلاً دون علم زوجها ، وتبعت الطّريق الّتي طالما تَبعتْها ابنتُها من قبلها . طَوال الطَّريق كانت تبكي ، وترتجفُ من البرد والحُزن . فلمّا وصلتْ إلى الكنيسة التّاريخيّة ، استيقظَ أبرام منزعِجًا ، قال لها حينما رآى شبحها يغوصُ في المقعد داخل مكتبه الوثير : «لولا تاريخُك المجيد ، وخِدمتك للرّبّ ما استيقظتُ في هذ السّاعة لكي أراكِ» . أجابتْه : «شكرًا يا أبتاه» . «ماذا تريدين؟!» . «أريدُ أن أرى ابنتي» . «مستحيل» . «ولماذا مستحيل؟!» . «أخافُ عليكِ منها» . «تخافُ عليّ منها ، هل هناك أمٌّ تخافُ من ابنتها» . «هذه إرادة الرّبّ ولا مجال أبدًا أن أفعل ذلك لكِ» . «أيّها الأسقف هذه مشيئتُكَ أنتَ وأبوها فلا تُدخِل الرّبّ في كلّ شيء» . وقفَ غاضِبًا وخبطَ سطح مكتبه بشدّة وصاح : «بل مشيئة الرّبّ أيّتها المؤمنة» . «لكنّ مشيئة الرّبّ قد تتغيّر» . «كلاّ ؛ لا يُمكن ذلك البتّة» . «وإذا دفعتُ لكَ مبلغًا» . «حسب المبلغ ؛ تعرفين هذه مشيئة الرّبّ وحتّى تتحوّل يجب أنْ يكون الرّبّ راضيًا تمامًا» . «لا تَخَفْ ، جلبتُ معي من المالِ ما يجعلُ قلبُ الرّبّ يرقصُ فرحًا»!!

ذرَعت البهو خلف دانيال ، هبطت الدّرجات إيّاها ، في غمرة هُبوطها رَنّتْ في سَمْعها الصّرخة الّتي سَمِعَتْها في المكان ذاته قبل أكثر من عشرينَ عامًا تقريبًا ؛ لم تكنْ تعرف يومَها أن بيتَ الرّب يحتوي تحته سِجنًا ، وأنّ فيه زنازين انفراديّة ، وأنّ مهمّة زئيف في الكنيسة تتلخّصُ في أمر واحد وهو تعذيب الخارجين عن طريق الرّبّ . كادتْ تكفر بطريق الرّبّ وهي تُواصِلُ هبوطها باتّجاه زنزانة ابنتها ، وهتفتْ في أعماقها : «هذه ليستْ طريقَ الرّبّ إنّها طريقكم أنتم أيّها المُجرِمون» .

فُتحَ بابُ الزنزانة عن ابنتها ، لأوّل وهلة نقلتْ عينَها عن ذلك الكائن القابع في قعرها تبحثُ عن ابنتها لأنّها لم تشكّ لحظتها أنّها ليست ابنتها البتّة ، لم تتعرّف عليها لشدّة العذاب الّذي بدا أنّها تلقّته بشكلٍ ممنهج في هذا الجحيم الّذي يقبع تحت بيت الرّبّ . ازداد شكُّها وهتفتْ وجفْناها يرتجفان على حافّة البكاء ، وقدماها ترتعشان على حافّة الانهيار : «هذه ليستْ ابنتي . أيّها الرّبّ الرّحيم هذه ليستْ بتول» . لكنّ ابنتَها الّتي ابتلعتْ هول المفاجأة تحاملتْ على نفسها وقامتْ مسرعةً نحو أمّها وهوتْ عليها تحضُنها ، وتفجّرتْ طوفانات البُكاء ، وصعد النّحيب حتّى اخترقَ سقف الزّنزانة ، ثمّ ظلّ يصعد حتّى وصل إلى الله في مَلَكوته الأعلى ، وتشكّل على هيئة سؤال أمام الملائكة بينَ يَدَي المَلك : «لماذا يا ربّ؟!» .

قالتْ لها بتول : «المهمّ أن تخرجيني من هنا من جهنّم الّتي تبتلعني نيرانُها كلّ يوم يا أمّي» . «يا ويلتاه يا ابنتي . . . لقد فعلتُ المستحيل من أجل أنْ أراكِ . وأبوكِ لو يدري أنّني زُرتُك لقتلني» . «أبي؟!» . «نعم ، أبوكِ ؛ لقد تغيّر كثيرًا يا حبيبتي ، لم يعد أبدًا ذلك الّذي نعرفه ، إنّه وحشٌ في هيئة إنسان» . «واحسرتاه عليك يا أبتاه» . «يا ابنتي لقد انقلبتْ بعدكِ الحياة رأسًا على عقب ، وتحوّلتْ حياتُنا إلى عذاب ؛ فلماذا لا تُريحينني يا ابنتي وتريحين أباكِ ويُصبح كلّ ما حدثَ من الماضي» . «يا أمّي لقد اخترتُ وأنا أتحمّل نتيجة اختياري ، ولو رضيتُ بما قُلتِ لعشتُ في عذابٍ مُقيم» . «وأيّ عذابٍ أشدّ ممّا أنتِ فيه» . «يا أمّي هذا العذاب قد يُحتَمل ؛ لأنّه مهما بلغتْ شدّته فهو إلى زوال ؛ إنّه ينتهي بانتهاء العلاقة بين الجسد والرّوح ، لكنّ العذاب الّذي لا خلاص منه ولا موتَ له كيفَ السّبيل إلى

احتـماله؟!» . «يا ابنتي . . .» لكنّ البُكاءَ غلبـهـا . . يا أمّي خلّصي
نفسَك كما خلّصْتُ نفسي ، إنّ حياتنا ليستْ أطول من لمح البصر .
غدًا يتوفّانا الله ، فماذا سنقول له إنْ وقفْنا بين يدَيه ؛ سنقول له : كُنّا
نعبدُ من دونكَ تمثالاً . كُنّا نصلّي لِمَنْ لم يُنقِذ نفسه لكي يُنقذنا . . .
أنقذي نفسَكِ يا أمّي ، ولا تقلقي عليّ ، فكلّ ما يمرّ عليّ هنا هيّن إنْ
كان الله قد كتبه في اللّوح المحفوظ ، وخطّه في القَدَر الّذي لا يُردّ» .
«واحُزناه عليكِ يا ابنتي» . «لا حُزنَ عليّ بعد اليوم يا أمّي ، بل الحُزن
عليكم . . . لكنْ قولي لي : ما أخبار وائل وسلوى؟!» . «سلوى هي
الأخرى تغيّرتْ حُزنًا وفَرَقًا عليك ، أمّا وائل فلا يكفّ عن وعيده بأن
يقتلك ويشربَ من دَمك» . «لا عليه يا أمّي ، إذا جاءني الموت فلا
يهمّني إنْ كان على يدَيه أم على يَدَي سواه . . وصالح ، ما أخباره؟!» .
«لا أدري يا حبيبتي ، لكنّني سمعتُ أنّه اختفى منذُ أكثرَ من شهر» .
«اختَفى؟!!» . «اختَفى كأنّه لم يكنْ موجوداً من الأساس ، اختفى كأنّ
الحديث عن وجوده الحقيقيّ على الأرض كان نكتةً أو مزحة . النّاس
تقول عنه أشياء كثيرة غريبة» . «هل تقول عنه إنّه ارتقى كما ارتقى
المسيح» . «يقولون ذلك ، هل تُصدّقينهم أنت؟!» . «أُصدّق ما هو أكثر
من ذلك» . «ما هو؟!» . «أنّه ليسَ المسيح فحسب ، بل هو ملاكٌ هبطَ
من السّماء إلى الأرض برسالة لزمنٍ مُحدّد ثمّ عاد إلى سُكناه في
البيت المعمور» . «هل جُننتِ؟!» . «تقريبًا . . . أتخيّل يا أمّي . . .
أتخيّل . . .» . «هل أحببتِه يا بتول؟!» . «من كلّ قلبي يا أمّي» .
«تمنّيتُ يا ابنتي لو كان الأمر بيدي وزفَفْتُكِ إليه . . . آه كم كنتُ
أشتاقُ إلى أن أراكِ ترفلين بثوب الزّفاف وتجرّين وراءَكِ أذيال
السّعادة!!» . «لقد انتهَى ذلك الآن يا أمّي ؛ على الأقلّ في الدُّنيا» .

«كيف؟!» . «بغياب صالح ؛ لا خيرَ في الحياةِ بعده» . «واكرباه يا
ابنتي . . . ويا أسفاه يا حبيبتي» . فتح زئيف باب الزّنزانة ، وهتف
بصوته الأجشّ : لقد انتهت الزيارة يا مريم . قفزت بتول وتعلّقتْ بأمّها :
«لا تتركيني هنا وحدي مع الوحوش يا أمّي» . لكنّ زئيف لم يُمهلهما
كثيرا ، أمسكَ ببتول وقذفها كلعبة صغيرة داخل الزّنزانة وأغلق بابها
عليها بإحكام ، ثم دفع الأمّ باتّجاه الدّرج الحلزونيّ .

في طريق العودة فكّرت الأمّ بالانتحار ، جاءها خاطر التّخلّص من
حياتها في كلّ خُطوةٍ كانت تخطوها هابطةً نحو القرية . لم تعد تشعر
بأيّ قيمة للحياة ، وقد انهدم بُنيان البيت ، وامتلأتْ أنقاضه بالغربان
والبوم والعناكب والحشرات . ما الّذي يدفعها إلى أن تُواصلَ هذه الحياة
البئيسة . لمع بذهنها موقفُ ابنتها من الحياة ، قارنتْه سريعًا بموقفها هي
منها ؛ فوجدت أنّ الإيمان الّذي تُواجه به حياتها غير مستقرّ كاد أن
ينهار عند أوّل عاصفة ، ووجدتْ أنّ إيمان ابنتها ثابتٌ لا يتزعزع مهما
صَفَعتْه النّوائب وأحاطتْ به العواصف . فأدركت الفرق . وهتفتْ في
داخلها : «ربِّ آتني من اليقين بك بما آتيتَ ابنتي» . وأردفتْ وهي تتابع
سيرها : «ليتني أعرف كيفَ استطاع صالح أن يغرسَ في قلبِك هذه
الشّجرة الّتي كلّما هبّتْ عليها الرّياح تريدُ أن تقتلعها شمختْ
بأغصانها نحو السّماء!!» .

لم تتركْ لحظةً على الطّعام أو في غرفة الجلوس ، في الصّباح أو في
المساء إلا واستغلّتْها لتُحدّث (وهيب) في شأنِ ابنته : «كيفَ تتركها
هناكَ وحدها . . . ألا يرقّ قلبُكَ لها» . «لماذا لا تسمع منّي حينَ
أحادثُكَ بشأنها ؛ أليستْ من صُلبنا ، ألسنا أبويها فكيفَ تُطاوعنا نفسُنا
في التّخلّي عنها بهذه الطّريقة» . «أنا لا أصدّقُ أنّ الأب الّذي كان

يزرعها بين جفونه ، ويضمّها تحت كَنَفه ، ويخاف عليها من النّسمة العليلة ، يتركها هناك تذوقُ أصناف العذاب الّذي لا يُصَدَّق» .

وتظلّ تُخاطِبه ، وتستنهض مشاعره ، وتستفزّ حميّته إلى أن قال لها ذات مرّة بعصبيّة بالغة : «لا تخافي سأُريحُكِ وأريحُ نفسي منها» . وخرج من البيت وتركَ خلفه زوبعةً من الأسئلة والقلق والخوف .

(٣٠)
إنّ الرّوضَ في الضّفّةِ الأخرى يُناديني

قال لأخيه رُشدي ، وافِني عندَ الكنيسة ، لدينا مهمّة كبيرةٌ اليوم . تعوّد أخوه في هذه الأمور ألاّ يسأله ، غادرَ فُندُقَه على عَجَل ، ووافاه بعد ساعتَين عند الباب الحديديّ . دخل (وهيب) إلى الأسقُف ، خاطَبه على عجل : «أخرجْ إليّ بتول مقيّدة بشكلٍ جيّد» . «حاضِر يا سيّدي ، لكنْ ألا يوجَد حلوان للإفراج» . «خُذْ أيّها الجشع» . قذف في وجهه على مكتبه رزمةً من الأوراق الماليّة . وانتظر حتّى يأتي زئيف بابنته .

قذفها في قعر السّيارة الفارهة . وأشار وهيب الّذي جلس في المقدّمة إلى جِوار أخيه قائلاً : «إلى قمّة جبل البِئر» . هزّ رأسه مُذعِنًا وانطلقَ بالسّيارة إلى هناك . قوّمتْ بتول جذعها على المقعد الخلفي ؛ أرادتْ أن تُوَدِّع الدُّنيا من النّافذة الّتي راحتْ تقذف بصور الحياة من خلالها . صافحتْ بروحها الأشجار وشكرتْها على صداقتها القديمة ، وراحتْ روحها تهتف : «شكرًا أيّتها الأشجار لم أجدْ عندكِ إلاّ الوفاء . أيّتها الفراشات أُقبّل خَدَّكُنّ الرّقيق لقد كُنتُنّ صديقات مُخلِصات . أيّتها الطّيور المُغرّدة لقد ملأتُنّ حياتي بهجةً على مدى عقدَين من الزّمان . أيّها التّراب الّذي أطلعَني لم تَخُنّي يومًا ولم أر يدك تمتدّ بالغدر نحوي ولو لحظةً واحدة فشكرًا . . . أيّتها السّماء شُكرًا لأنّك أعددتِ

لي الحفلة ، وفتحت أبوابَك الثّمانية لكي أدخل إليكِ حوريّة جديدة» .

وصلَت السّيّارة إلى القمّة قُبَيل منتصف النّهار ، كانت الشّمس قد ارتقتْ أعلى منزلة لها لكي ترى بوضوح ما يحصل . خفّفت قليلاً من حرارتها حتّى تخفّف عن بتول جزءاً ولو يسيرًا من عذاباتها . على حافّة البئر كان يجلسُ أخوها اللّقيط وائل يحملُ سكّينًا كبيرة تلمع على وهج الشّمس بين يديه ، هتف بأبيه وعمّه مُرحّبًا ، وأردف : «إنْ كُنتما مُتعَبَين فأنا أتولّى عنكما المهمّة . استريحا أنتما ، وأنا سأتدبّر الأمر كما تُحبّان وزيادة» .

طوّفتْ ببصرها عبرَ المكان ، وعادتْ بذكرياتها القديمة ، شهق قلبُها فرحًا . استرجعتْ كلّ الصُّوَر الجميلة الّتي انطبعَ بها ذهنُها في الطّفولة . هنا كان أبوها يصطحبها لكي يُريها بهجةَ الدّنيا وفرحةَ الحياة ، وقد أخذتْ بالفعل نصيبَها منهما . وهنا تحتَ أغصان هذه الشّجرة العتيقة كان يصنع لها أرجوحة ويحملها برفق بين يديه ليضعها هناك ثمّ يؤرجحها في الفضاء فتُكركِر هي ، وأمّا هو فيطفح قلبُه بالسّعادة كلّما سَمعَ ضَحكات ابنته . . . وهنا أيضًا كان يوقدُ النّار تحتَ إبريق الشّاي ، ويجمع لها الحطب من الأرجاء . وهناك في الأسفل قليلاً كانا يجلسان كعاشقَين ويقصّ عليها الحكايا الجميلة ، فيملأ روحها بالانتشاء . واليوم . . . اليوم لم يعد الأب هو الأب ، وإنْ كان يحمل نفسَ الهيئة مع تغيّر واضح في لونِ الشّعر ، جسدُهُ هو؟! ربّما . لكنّ روحه لا . بالتّأكيد لقد تبدّلتْ روحُه بشكلٍ عجيب . غادرتْه روحه المُحبّة ليمتلئ جسده السّتّينيّ بكلّ هذه الكراهية المُطلَقة .

أضجَعها بمُساعدة أخيها على الأرض ، وأوثقا أطرافَها إلى أوتاد قائمةٍ على طرف البئر ، أشعَلا نارًا في المكان ذاته الّذي كان أبوها يُشعل فيه النّار قبل أكثر من ستّة عشر عامًا . اقتربَ أبوها منها أكثر ، خاطَبها : «إنّها فُرصَتُك الأخيرةُ لتنقذي نفسَك من الموت» . فردّتْ عليه : «إنّها فرصتي الأثمن لأتخلّص من العذاب» . سألها : «لم أفهم!!» . «سألتحقُ اليومَ بعالَم السّماء حيثُ لا وَصَبَ ولا نَصَبَ ولا تَعَب» . «قولي ذلك بصورةٍ واضحة» . «لن أتركَ ديني ولو قطّعتَني ألفَ قطعة فافعلْ ما شئت ؛ هل تريدُ وضوحًا أكثر من ذلك» . صرخَ كالذّبيح يا وائل هاتِ الأسياخ ، ناوَله وائل أسياخًا حديديّة . ردّها إليه : «ضعها في النّار حتّى تحمرّ ثمّ هاتِها مرّة أخرى . وأنتَ يا رُشدي تعال اكشف لي عن بطنها» . اقتربَ عمُّها منها ، وحينَ التقتْ عيناه بعينَيها تجمّد في مكانه ، كانت عيناها تفيضُ بالحبّ له في وسط هذا الأتون من العذاب المُفزِع . تراجع إلى الخلف ، وردّ على أخيه بصوتٍ مُرتَجِف : «لا أستطيع يا أخي . . . لا أستطيع» . «جبان ، طول عمرك جبان» . تركه يشتمه وانزوى عند طرف البئر ، وضع يده على فمه يُداري صرخةً مكبوتةً في أعماقه ، لكنّ طُوفانَها تغلّبَ عليه فانفجر بها حتّى تصدّعتْ لها أسبابُ السّماء .

هتفَ الأبُ من جديد بابنه : «هل جَمَّرْتَ الأسياخ يا ولد؟!» . «نعم يا أبي» . «هاتِها . اكشف لي عن بطنها» . فعلَ ما أمره دونَ تردُّد . غرزَ الأب السّيخ الأوّل في بطنها فأصدر صوت النّشيش ، غاصَ في لحمها مثل سكّين في قطعة زُبدة ، وتصاعدتْ رائحة اشتواء اللّحم . انتشى الأب والابنُ للرّائحة . هتف الابن : «تَنَحَّ يا أبي ، أنا أُكملُ عنك» . تناولَ سيخًا آخرَ أكثرَ احمرارًا ، هتفَ الأب بابنته والسّيخ يغوصُ أكثَر في اللّحم : «هل ترجعين عن دينكِ؟!» . أجابتْهُ وعيناها تكادان تنفجران ، ووجهها قد امتلأ بأوعية الدّم : «الآنَ وقد شارفتُ

على عبور قنطرة العذاب . . .؟! الآنَ يا أبي . . .؟! الآنَ يا حبيبي . . .؟! إنّ الرّوضَ في الضّفّة الأخرى يُناديني ، وها أنذا أهُمّ بالوصول» .

غاصَ السّيخ الثالث والرّابع ، عشرةُ أسياخ تناوبَ الابنُ والأب على غَرْزِها في ذلك الجسد الطّاهر . . . فقدت الوعي بعد السّيخ الثالث . وربّما فارقتِ الحياة . لكنّ الأب الّذي لم يشفِ غليله بعد كلّ ذلك ، تعاونَ مع ابنه على حملِ صخرة كبيرة ورفَعاها إلى أعلى ، وقبلَ أن يَهويا بها على رأسِ الطّاهرة بتول حانتْ منهما التفاتةٌ إلى وجهها ، كان يطفح بالنّور ، ويُشعّ بالرّضا ، أمّا ابتسامتُها فلم يَدْريا لها سرًّا ، وأمّا عيناها فلم يعرفا من قبلُ كيفَ تضحكُ العينان إلاّ في تلك اللّحظة . وأمّا هُما فدفعَ الشّيطان الّذي يقبع في قلبيهما الصّخرة بإصبعه فهوتْ على رأسِ الشّهيدة ، وسالَ دماغُها من تحتها .

«لقد قتلتُ ابنتي بِيَدَيّ هاتين» . قال الأب لمدير مخفر القرية الّذي جلس في مركزه وحوله عددٌ من الضّبّاط . نظر الضّابط إلى الرّجل السّتينيّ الّذي يبدو في حالة رثّة غيرَ مُصدّق ، زوى شفتيه ، وهتف في داخله : «ما أكثر المجانين الّذين يأتوننا إلى هذا المركز في كلّ يوم ليقولوا مثل هذا الكلام أو قريبًا منه» . رأى الأب أنّ الضّابط لم يُصدّقه ، فرفع صوته وهو يخبط سطح مكتبه : «أنا قتلتُ ابنتي . . . ألا تُصدّقني؟! أنا قُمتُ بتَهشيم رأسها بصخرة كبيرة . . . لماذا تنظرون إليّ هكذا . . .؟! نعم أنا فعلتُها . . . أنا قتلتُ أحبَّ النّاس إلى قلبي . . أنا أجهزتُ على حياتها وهي تنظر إليّ بعيَنين تفيضان حُبًّا» . وأجهشَ بالبكاء وراح يهذي .

في القرية توافدَ عددٌ غفيرٌ من المُسلمين ، وتناسلوا من القُرى المُحيطة بعد أن سَمِعوا بالخبر ، ظلّوا يتكاثرون «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ»

حتّى غطّوا الطّرُق الصّاعدة باتّجاه الكنيسة التّاريخيّة . كانوا كالسّيل الهادر يهتفون بشعارات غاضبة ، ويتوعّدون أن يأخذوا بثأر فقيدتهم . كانوا كلّما أجهدَهم المسير إلى بيت الرّبّ اشتعلتْ في أعماقهم جذوة الغضب . حتّى إذا صاروا على بوّابتها ، انساحوا حول سورها كالنّهر إذا واجه صخرةً في طريقه . ثمّ راحوا يأخذون من حجارة الأرض ومن صخورها ويقذفونها باتّجاه الكنيسة . تهشّم زجاج قاعة المواعظ . ودوّتْ أصوات انهياراتِ نوافذ ، وتكسّر زُجاج ، وصعد أحدهم على الجِدار الشّرقيّ للبناء ، وظلّ يصعد حتّى وصل القبّة العالية الّتي لا تنطفئُ في ليلٍ أو نهار ، تناول العصا الغليظة الّتي يحملها على ظهره ، وهوى بها على الصّليب فترنّح تحت وَقْع ضَرَباته ، وفي لحَظَات كان الصّليب يتدحرج من سمائه العالية ويفقد كلّما هوى على جزء جديد شيئًا منه ، حتّى إذا ارتطم بسطح الأرض كان قد أصبح «كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ» .

تجمّعتْ قوّات مكافحة الشّغب ، أطلقتْ بعضَ طلقات الصّوت التّحذيريّة لتحتوي الموقف . زاد ذلك من هياج المتجمهرين . تراجعت الشّرطة إلى الوراء قليلاً ، تقدّم من الضّابط المسؤول أحدُ الكبار ، بدا أنّه يستطيع أن يحتوي الموقف خيرًا منهم ، قال له : «أستطيع أن أكفّ كلّ هذه الجموع بلمحة البصر إذا حقّقتَ لها ما تريد» . «وماذا تريد؟!» . «جثّة الشّهيدة لأنّها صارتْ منّا ، ولم تعدّ تخصّ أهلها في شيء» . «لكَ ذلك» .

في مساء ذلك اليوم الأرجوانيّ الحزين ، وقفَ المُصلّون في مقبرة المُسلمين صفوفًا مُتراصّة كالطّيور الهائمة ، صلّوا عليها صلاةَ الوداع ، تقدّمَ أحدُ المؤمنين ، كان شابًّا بثياب بيضاء ، لم يعترض طريقَه أحدٌ ، بدا أنّ الجميع لا يملكون أن يقفوا في طريقه ، حمل الجسد المُسجّى في

كفن الرّضا ، ونزل به القبر ، ثمّ صعدَ ليُكملَ الآخرون المهمّة . نظَرَ إلى السّماء رأى ملكًا يحوم حول المكان ، حينَ أتمّ النّاس إهالةَ التّراب على القبر ، كان المَلَكُ يصعدُ بالرّوح إلى السّماء!!

(٠٠)

نعم . . .

في كلّ زمان وفي كلّ مكان ،

التقى ثلاثتهم دون تخطيطٍ مُسبَق وغابُوا في أيكة الحياة .

قد تختلف طريقة غياب أحدهم عن الآخَر ؛ لكنْ ما الفرق؟!!

النّتيجةُ أنّ الغيابَ لم يُخطِئ أحدًا منهم ،

لكنْ هناك شيءٌ جديد . .

لقد اتّضح كثيرٌ من الأسباب الغامِضة الّتي دارتْ حول غيابهم .

تمّــت

أيمن العتوم
عمّان
كُتِبَتْ من ٢٠١٥/٥/١٨
إلى ٢٠١٥/٦/١

الفهرس